الطبعة الرابعة

أشرف الخمايسي

انحراف حاد

رواية



الدار المصرية اللبنانية

انحراف حاد

رواية

الخمايسي، أشرف.
انحراف حاد: رواية / أشرف الخمايسي .- ط4.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2015.
400 ص؛ 20 سم.
تدمك: 0 - 774 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 11106 /2014

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: شعبان 1435 هـ - يونيو 2014م
الطبعة الثانية: 2014م
الطبعة الثالثة: 2014م
الطبعة الرابعة: 2015م

أشرف الخمايسي

انحراف حاد

رواية

الدار المصرية اللبنانية

أهديها لك

مُغلق عليك،

في حجرة ضيِّقة،

مع شمعة وحيدة مضيئة. حتَّى هذا

اللهب الضَّعيف، بعد وقت، لا بد من أن يذبل

وينطفئ، وسيغرقك الظَّلام، بينما وراء الجدران ضوء

باهر، تفيض به شمس منيرة أبدًا. حطِّم الباب واخرج، وتنوَّر.

0

"البعـض يقـول إن الدُّنيـا بسـيطة، والحيـاة تمضـي بحكاياتها المعروفـة، سـواء كانـت حكايـات مُدهشـة، أو عاديَّـة، النَّـاس يسـمعونها، أو يشـاهدونها، أو يقرأونهـا، وفي جميـع الأحوال هم أبطالهـا، في النِّهايـة.. الدُّنيا بسـيطة، والحياة شـغَّالة، يقولون ذلك بأريحيَّة، على أن الأمر في حقيقته ليس هكذا، ليس بهذه البسـاطة، فإذا كان أحدهـم غير مسـتعد لتحريك سـيَّارته مـن جراچها إلَّا لأمر هام، فما الذي يدعو مالك الشَّمس لأن يُطلعها كل يوم من المشارق، وفي نفس التَّوقيت، طوال ملايين السِّنين الفائتة، ولملايين السِّـنين القادمـة، إن لـم يكـن ثمَّة أمر، غاية في الخطـورة، يربض في الآفاق السَّحيقة؟".

توقَّـف عن المشـي بين سـيَّارات "الميكروبـاص"، الأجرة، في موقـف "أحمد حلمي"، وفـي الحين الذي كانت تعلـو فيه أصوات المُنادين وهـم يُعلنون عن الجهات التي ستنطلق إليها هذه السيَّارات، إلَّا أن فِكره السَّارح بعيدًا أغلق أذنيه، ورفع وجهه الطَّويل، المهيب،

إلى شمس السَّاعة التَّاسعة من صباح هذا النَّهار الشِّتوي الرَّائق في العام 1980 الميلادي، ونظر إليها طويلًا.

"لا تُشرق الشَّمس كل يوم، وبهذا الانتظام الدَّقيق، لمجرَّد أن تمنح الآدميين نهارًا للعمل، أو لتهبهم الدِّفء في صقيع الشِّتاء، أو لتعطي حقولهم ضوءًا، يبني خلايا زروعها، فتثمر أكلًا يأكلونه، أو ليُعبِّئوا كهربتها في محطَّاتهم الشَّمسية ، وإنَّما لأمر أخطر من هذه الأمور بمراحل".

أخيرًا عادت أصوات المُنادين إلى وعيه، أحدها يزعق:

- "أسيوط".. "أسيوط"..

ورغم طوله الفارع، ولحيته المتدلية حتَّى أعلى سرَّته، وعمامته الخضراء الضَّخمة، الملفوفة هرميًّا بغير عناية، وقد تدلَّت ذؤابتها بين كتفيه العريضتين، وجلبابه الأبيض الذي، بالكاد، يصل منتهاه إلى منتصف ساقيه، ونعليه العتيقين المشدودين إلى كاحليه بسير رفيع، مع كل هذه المواصفات الغريبة، إلَّا أن أحدًا في الموقف لم ينتبه إليه، ولا إلى وقفته العجيبة، رافعًا وجهه، عيناه في الشَّمس السَّاطعة ولا تطرفان بمقدار رعشة جناح ذبابة.

وبالتَّالي، لم ينتبه أحد إليه وهو يدلف إلى داخل السيَّارة "الميكروباص"، التي تحمل اللوحة المرورية رقم" 345678 أجرة أسيوط"، والتي كانت فارغة من أي ركَّاب.

جلس في أوسط الأريكة الأولى خلف كابينة القيادة، ولم تمضِ سوى دقائق قليلة حتَّى بدأ صوت "أبو أميرة" الجهوري، المشروخ، ينادي بنشاط:

- ياللا واحد "أسيوط".. واحد "أسيوط".

"أبو أميرة"، سائق هذه السيَّارة، يعلن عن احتياجه إلى راكب أخير بصوت فرحان، وبقلب مندهش من تساهيل اللـه لمَّا تعمل لصالحه.

كان قد توالى ركوب المسافرين لسيَّارته بسرعة غير معتادة، يتقدَّمون إليها ويدخلونها برشاقة، يأخذون أماكنهم بسلاسة، كأنَّهم قد سبق لهم اختيارها وحجزها، ولأوَّل مرَّة طوال مدَّة عمله الطَّويلة في هذه المهنة تمتلئ سيارته بثلاثة عشر راكبًا خلال أقل من خمس دقائق فقط، كما أن الرَّاكب الأخير ها هو يقترب.

هتف "أبو أميرة" بصوت راقص:

- واحد "أسيوط" بالصَّلاة على النَّبي.. واحد "أسيوط".

اقترب "زياد" وقد تعلَّقت بكتفه حقيبة صغيرة:

- "أسيوط"؟

كان وجه "زياد" ملفتًا جدًّا، بشرته فائقة البياض، عيناه ضيِّقتان للغاية، أنفه مفلطح، شفتاه مسطَّحتان، وعندما هز "أبو أميرة" رأسه

بما يعني أن السيَّارة متَّجهة إلى "أسيوط"، دلف إلى منتصف الأريكة الأخيرة.

لقد امتلأت تمامًا، ودفع "أبو أميرة" الباب ليغلقه فلم ينغلق، دفعه مرَّة أخرى، لم ينغلق أيضًا، دفع بقوَّة أكبر، لا شيء، فدفعه بكل عزمه، حتَّى أن عمامته كادت تسقط من على رأسه، لكن الباب ظل مسمَّرًا.

زعق "أبو أميرة" بلهجته الصَّعيديَّة، وهو ينظر إلى الباب وقد أمسك بمقبضه وأخذ يهزّه هزًّا شديدًا:

- مالك.. الله يخرب بيت اللي خلَّفوك!؟ هِيَّا يعني لو اتسهلت من هْنِه لازم تتعقَّد من هِنه؟! ما تمشيش حلو لآخرها أبدًا؟!

انطلقتْ من داخل السيَّارة ضحكة أنثويَّة شابَّة، انطلقت منفلتة، لتفاجئ "أبو أميرة" وهو لم يزل متشبثًا بمقبض الباب، دار برأسه ينظر إلى مصدرها، فرأى بقايا الضَّحكة تنسال من بين شفتي بنت شابَّة، غاية في الجمال، ذراعاها عريانان، وأعلى ثدييها، وترقِّص قطعة من العلكة بأضراسها اللؤلؤ، تلوكها كالغوازي.

انبهر بجمالها، وفي نفس لحظة الانبهار داهمه شعور بأنَّه قد رأى هذه البنت من قبل، واندهش من كونها تُعرِّي كل هذه المساحة من لحمها في برد "طوبة"، ورغم ذلك بقي لحمًا أبيض حيًّا، لا أثر فيه

لزرقة الكسل الشِّتوي، كأنَّما تجري فيه دماء صيف حار، نشط.

لم يفلح هذا الجمال الصَّارخ في أن يهدِّئ من غضب "أبو أميرة"، الواقف عاجزًا أمام بابٍ عاصٍ، بل العكس بالضَّبط ما جرى، لقد زاد غضبه.

زعق، وهو يحرق الفتاة بعينيه الملتهبتين:

- لِيه حق الباب ما يقفلشي.. ذنوب الخلق تهد الجِّبال وتنشِّف البحور..

ضغط على أسنانه، موجِّها كلامه إلى الباب المتشبِّث بالعناد، وقد ارتكز عليه بكل ثقل جسده النَّحيف:

- كِفياك دلع ف يومك الاكحل دَهَه واقفل.. يخرب بيت ابوك وامَّك.

انطلقت الضَّحكة هذه المرَّة غرقانة في الدَّهشة، وغرقانة في الدَّلال أيضًا، فترك "أبو أميرة" الباب ووقف ينظر إليها بعينين حارقتين للغاية.

عيناها غجريتان، تشبهان تمامًا عيني "سوسن"، كما أن ضحكتها فيها من ضحكة "سوسن"، لكن التي أمامه الآن، تبدو سيِّدة صغيرة من صنف النَّاس الذَّوات، مربربة، تلبس الغالي الجريء، وتطلي وجهها بالمكياجات، على العكس تمامًا من "سوسن".

في هـذا الظَّرف الصَّعب، الـذي يعاني منه "أبو أميـرة"، لـم تكن هناك أيَّة فرصة لذكرياته مع "سوسـن" كـي تنبش جيِّدًا في وجدانه، البـاب يعانـد، وامرأة تضحك مـن معاناته، وبدا أنَّه سـوف يقفز إلى داخل السـيَّارة ليجذبها من شـعرها، ويلقي بها إلى الخارج، ما دفع المجنَّد "ياسر مبروك"، الذي يرتدي بذلة الجيش "الزَّيتي"، ويجلس في آخر كرسي بجوار النَّافذة اليمنى، أن يقول لـ "أبو أميرة":

- ما تاخُدشِ ف بالك يا باشمهندس واستهدا بالله.

كما أن الرَّجل الذي يجلس خلف كرسـي السَّائق، بجوار النَّافذة اليسـرى، قال بصوت يرن بنبرة مرح مصطنعة، موجِّها كلامه لـ "أبو أميرة":

- يـا راجـل.. هُوَّ اليوميـن دولا في حد بيضحك بوسـع صدره كِدا!؟

واستدرك:

- خلِّيها تضحك.

واسـتدار، ونظر إلى "سوسـن"، التي كانت تجلـس في الأريكة السَّابقة لآخر أريكة، و قال:

- اضحكي يا ستِّي اضحكي.. اضحكي ولا يهمِّك.

ولـم تضحك، لكن عيناها صرختا في وجه الرَّجل:

- وانت مال أهلك؟!

بـدأ عـرق "أبو أميـرة"، رغم برودة شـمس "يناير"، يتسـاقط من أرنبة أنفه، ومن أسـافل أذنيه، وفقد كل أمل في أن ينغلق الباب دون أن تُجرى له عملية إصلاح عند أحد سـمكريَّة السيَّارات، ما يترتَّب عليـه تأجيـل رحلة السَّـفر، وتَرْك الـركَّاب للسيَّارة، وتأخير دوره في المغادرة من الموقف، وهذه خسـارة بالغة بالنِّسـبة لسائق سيَّارة "ميكروباص" أجرة.

نفـد كل صبره، فأخذ يجـذب الباب ويدفعـه بقوَّة، ليسـت قوَّة مَنْ يريد حل المشـكلة، وإنَّما قوَّة مَـْن يريد أن يفش قهره، فارتجَّت السـيَّارة ارتجاجًـا عنيفًـا كان كافيًـا كـي يثيـر المرح علـى وجه هذا الطِّفـل، الـذي بالكاد يتعدَّى عمـره العامين، ويقف فـي حجر امرأة جلسـت وظهرها في مواجهة "سوسن"، كانت المرأة تحضنه بحنان أم رءوم، بينمـا يواصل التَّصفيق بيديه، وإطـلاق الصَّيحات التي لم تنقطع منذ دخل السيَّارة.

لكـن القسِّـيس، الذي يجلـس في الكرسـي الملاصق لكرسـي السَّائق، انزعج من هذه الارتجاجات، التي شعر بها مهينة لإنسانيَّته، فضـلًا عن قداسـته، فأدار وجهـه إلى مكان المشـكلة، وقال لـ "أبو أميرة" الهائج:

- بمحبَّه يا أخي.. بمحبَّه.. اقفل الباب بمحبَّه.

نظر "أبو أميرة" إلى القسِّيس بنفس العينين الملتهبتين اللتين كان ينظر بهما إلى "سوسن" منذ قليل، وقال من بين أسنانه:

- بتقول إيه يا بونا!؟

رفع القسِّيس صوته، ممزوجًا بنبرة خوف هادئة من غضب "أبو أميرة"، وقال:

- بقول اقفل الباب بمحبَّه.

قال "أبو أميرة"، بنبرة ساخرة:

- كِيف يا بونا اقفل الباب بمحبَّه ؟ أبوسه يعني؟!

وإذا بالضَّحكة الغجريَّة تنطلق، تجلجل، لقد ضحكت "سوسن" ضحكة، وكانت ضحكة، ضحكة تحيي الميِّت، ثم تسطله، ثم تميته مرَّة أخرى، ضحكة جعلت الشَّمس تسخن، والهواء يتنسَّم الدفء، وجعلت الشَّيخ الأزهري، الجالس ما بين النَّافذة اليمنى والقسِّيس، يلوي رأسه لينظر بانزعاج ناحية البنت، ويزعق:

- أعوذ بالله.. أعوذ بالله.

ثم ينظر بزهق إلى "أبو أميرة"، الذي وقف هذه المرَّة يطلق من عينيه انبهارًا صريحًا بالبنت وضحكتها، ويهتف:

- سَمِّ الله ياخينا.. واقفل الباب.. وفُضِّنا مِ الحِكِّيوَه ديْ.

جر "أبو أميرة" نفسه من انبهاره، وزعق:

- يعني هِيَّا دي اللي هاتحل المشكله يا مولانا؟! طيب.. بسم الله.

ودفع الباب دفعة غُلب فانغلق.

انزلق منسابًا في مجراه كأسْيَل ما يكون الانسياب، منفلتًا بسرعة البرق إلى مغلقه.

وركله "أبو أميرة" بعد أن انغلق ركلة غِل، وبصق عليه وهو يزعق:

- يخرب بيت اللي جابوك.

وانطلقت الضَّحكة الغجريَّة، وانطلق "أبو أميرة" إلى مقدِّمة السيَّارة، وبينما يأخذ مكانه أمام عجلة القيادة، قال بصوت خفيض:

- اضحكي اضحكي.. العيب مِش عليكي.. العيب عَ اللي ربَّاكي.

ضبط جلسته في كرسيِّه، ومسح عرقه البارد بمنديل ورقي، وأخرج مفتاح محرِّك السيَّارة من جيبه، ونظر إلى الشَّيخ الأزهري نظرة تقدير، وقال:

- بركاتك يا مولانا.. وحياة سيدك النَّبي تدعيلنا نوصلو بالسَّلامه.

قال الشَّيخ بثقة:

- إن شاء الله نوصلو بالسَّلامه.

وبينما يضع "أبو أميرة" المفتاح في مكان التَّشغيل مال الشَّيخ برأسه ناحية القسِّيس وقال:

- أي مشكله مَهْمَا عَظُمت تتحل إن شاء الله ببسم الله.

فقال القسِّيس، وقد ابتسم ابتسامة هادئة:

- صحيح يا مولانا.. مَ انا قولتله يقفل الباب بمحبَّه.. والله محبَّه.

ثمَّة مشكلة أخرى تظهر على السَّطح، وتواجه "أبو أميرة" بجمود أخطبوط.

لقد أدار المفتاح في اتِّجاه التَّشغيل، لكن المحرِّك لا يعمل.

أدار المفتاح عدَّة مرَّات، والسيَّارة، فقط، تصدر صوتًا يشبه صهيل فرس مريض، أو كلب يحاول النُّباح.

استمر يحرِّك المفتاح، يمينًا، شمالًا، وعيناه جمرتان متَّقدتان، صامتًا تمامًا، لكن صوت الغيظ يكاد يفلق صدره كأزيز مرجل

عملاق، والسُّكون المترقِّب دب في قلوب كل الركَّاب، وقد بدا لهم بوضوح أن السيَّارة لا تريد أن تتحرَّك.

زعق "أبو أميرة" وهو يضرب عجلة القيادة بيديه:

– يوم إيه الاغبر دا بس يا ربِّي!؟ دا حتَّى راكب معانا شيخ وقسِّيس!

لَوَى رقبته، ونظر إلى القسِّيس نظرة لها مغزى، وقال:

– تِصدَّق يا بونا.. أنا لِيَّا تلاتين سنه ف الشُّغْلانه الوُصخه ديْ.. ما حَصَلِّلي ف يوم اللي بيحصَلِّلي النَّهاردِه!

واستدرك:

– خلِّي بالك يا بونا.. دي أوَّل مرَّه يركب معاي قَسِّيس.

كان الكلام جارحًا، لكن القسِّيس لم يُبد غير الامتعاض، حتَّى إنَّه قال:

– هدِّي نفسك بس.. ودَوِّر المفتاح بالرَّاحه.

وبينما يدير "أبو أميرة" المفتاح همس القسِّيس:

– باسم الصَّليب.

نَبس همسًا خافتًا جدًّا، لكنَّه كان مسموعًا لـ"أبو أميرة"، الذي فوجئ بمحرِّك السيَّارة يكح، ويعطس، ثم يدور، ويهدر، فهتف وهو

ينظر للقسِّيس نظرة امتنان:

- إيوا كْدَهَه.. بيِّن بركاتك يا بونا.. وحياة العضرا ام النُّور تدعيلنا نوصلو بالسَّلامه.

الشَّيخ قدح السوَّاق بنظرة من شرر النَّار، وَمَضَت في وجه القسِّيس، فَتململ في قعدته، وقطَّب جبينه، لكن "أبو أميرة" لم يُعر غضب الشَّيخ أدنى اهتمام، وإنَّما ضغط بقدمه على دَوَّاسة البنزين فنعرت السيَّارة، وهتف بحماسة قائد أفلت للتَّو من هزيمة منكرة:

- جاهزين يا عرب؟

توالت أصوات الركَّاب بحماس:

- جاهزين.

- كُلُّه تمام.

- توكَّل على الله.

1

مـا أجملها، هـذه السـيَّارة "الميكروباص" الأجـرة، إنَّها بيضاء، يحيط أوسـطها إطار فضِّي ضيِّق، ويدور حول أسفلها إطار برتقالي ناصع عريض، بينما أُضيف إلى جُنوط عجلاتها ومرآتيها الجانبيَّتان صفائح "الاستانليس" البرَّاقة، وكُتب على واجهتها أسـفل الزُّجاج "وزيَّنَّاها للنَّاظرين"، وعلى خلفيتها "حلوة صلاة النَّبي".

ورُغم أنَّها مثقلة بأغراض المسافرين، الموضوعة على سطحها، والمثبَّتـة في شـبكتها جيِّـدًا بالحبـال، إلَّا أنَّهـا تنطلق علـى الطَّريق الزراعـي السَّـريع انطلاقة الفهد، والأرض تفر مذعـورة إلى الوراء، والجبال البعيدة، في الجهة الغربيَّة، تُحوِّم ببطء مثل ضباع متربِّصة.

وكمـا فـي موقـف "أحمـد حلمـي" بالضَّبط، لـم ينتبـه أحد من الـركَّاب إلى هـذا الجالس بيـن رَجُلين في الأريكـة المتقدِّمة، رُغم الغرابة المفرطة لهيئته، ورُغم......

حتَّـى إن أحدهـم لم ينتبه لاسـتغراقه فـي نوم عميـق، وبطريقة عجيبة.

كان فـاردًا ذراعيه إلـى الأمام، وقد قبض بيديه على حافَّة مسـند أريكـة القيـادة، راكزًا ذقنـه، بلحيتها الكثيفـة، في الشَّـق الضَّيق بين العضدين، منكفئًا بوجهه على رسغيه المتينين.

ثم كيف لرجل، يسـتغرق كل هذا الاسـتغراق في النَّوم، أن تبقى يـداه قادرتين على القبض بحافَّة المسـند أمامـه قبضًا محكمًا، حتَّى إنَّه، ورغم مرور السـيَّارة منطلقة بكل سـرعتها على بعض المطبَّات المفاجئة التي تتسـبَّب في ارتجاجها بعنف، لم تُفلت يداه حافَّة هذا المسند أبدًا، كما إنَّه لم يرفع رأسه ولو لمرَّة واحدة.

كان الطِّفـل لا يتوقَّف عن تصنيع الصَّخـب، يتنطَّط على فخذي المـرأة التـي تحضنـه، يصفِّق مـرَّة ويصيح مـرَّات، وكلَّمـا حاولت المـرأة كفَّـه عـن هذه الضَّوضـاء يهجم برأسـه ويديه علـى وجهها، ويمسـك طرحتها و يشـدَّها بعنف، فتنزلق عن شعر مهوَّش، قصير، صفعه البياض، فتسارع بإعادة الطَّرحة إلى شعرها وهي تنهره برفق، ثم تضمُّه إلى صدرها بقوَّة لتسـيطر عليه، ورغم ضآلة حجمه إلَّا أنَّه كان عنيفًا، ببساطة ينخلع من صدرها ليعاود شططه الطُّفولي.

ولـم يبد أن أحدًا قـد تضايق من الضَّوضاء التي كان يسـبِّبها هذا الطِّفـل، ربما يكون الوحيد الذي فعل، هو هذا الرَّجل الجالس على الأريكة الأخيرة، في أقصى يسار السيَّارة بجوار النَّافذة، منهمكًا في النَّظر إلى صورة بنت صغيرة في جريدة اصفرَّ ورقُها من فرط قدمها،

فقد كان من حين لآخر، عندما يزداد شطط هذا الطِّفل، يرفع عينيه من الجريدة لينظر ناحيته بوجهٍ خالٍ من أي تعبير.

"سوسن" ترى وجه الطِّفل بوضوح؛ لأنَّها تجلس في الأريكة خلف تلك التي تجلس عليها المرأة، في ظهرها تمامًا، وهكذا كانت قريبة جدًّا منه، فلاحظت أن تقاطيع وجهه الصَّغير ترمي على ملامح وجه "أبو أميرة" السوَّاق، فارتبكت لهذه الملحوظة، التي دفعت عقلها في اتِّجاه خاطر يُداني المستحيل نفسه، وشعرت بحنان جارف يفيض من قلبها نحو هذا الطِّفل المشاغب، فمدَّت يدها وقرصت خدَّه، وبحلقت في عينيه بمرح، وهزَّت رأسها كالأراجوزات، وقالت:

- إنت ولد عفريت.

وأرسلت له قبلات في الهواء:

- يا مُجرم أوي.

ومالت إلى الأمام بجذعها الرَّشيق، وأحاطت بكفَّيها صدغيه، وقبَّلت جبينه، وقالت:

- أنا عايزه اتجوِّزك.. إيه رأيك.. تتجوِّزني؟!

وعندما ابتسم الطِّفل لها، ورأت ضحكته المشرقة، شعرت بأن قلبها يتزعزع، وأن عليها تهدئته في أقرب فرصة.

وخطفت نظرة إلى المرآة الأماميَّة، كي تنظر إلى وجه "أبو أميرة"، فوجدت عينيه ملتصقتين هناك، منهمكتين في مصِّ صورتها، وضخِّها إلى صدره.

"يا ترى ممكن يفتكرني؟"

كان "أبو أميرة" يشم رائحة علاقة مؤكَّدة بين هذه السيِّدة الجميلة بنت الذَّوات، و"سوسن" التي عرفها، في لقاء حميمي وحيد، منذ ما يزيد على سنتين تقريبًا، ولقد شغله الأمر جدًّا، حتَّى إنَّه من فرط مشغوليَّته به لم يلحظ أن السيَّارة قد بدأت تنحرف ببطء إلى وسط الطَّريق، متَّجهة بهدوء إلى الاتجاه المعاكس.

2

انسـابت دمعتان من عيني "رشـيد أحمد الطِّمـاوي" وهو يطالع المشهد الحُسيني.

كانـت أيَّـام مولده المبـارك، الزِّحـام لا يمكن وصفـه، لا مكان لقدم، الأجسـاد تتحرَّك في لُحمة واحدة، وقد اتَّخذت شـكل خليَّة أميبية متوحِّشـة، تتمدَّد في الشَّوارع، والحارات الملاصقة للمسجد الفخم.

دخـان مطاعـم المشـويَّات، و"الكباب"، ومسـامط "الكرشـة"، و"لحمة الرَّأس"، و"الكوارع"، يتطوَّح في الهواء برائحته المشتهاة؛ ليمتزج بدخان البخور المعطَّر، وترن صاجات باعة الـ "عرقسوس" والمشـاريب المثلَّجـة، وتشـق الزحـام صيحـات المجاذيـب غيـر المفهومة أغلب الوقت.

منذ سنوات سبع، كان هنا مع زوجته، قطعا الزِّحام ببالغ المشقَّة، ووصلا إلـى المقام المذهَّب لابن بنت رسـول الله، الحنون، الذي يقضـي الحاجـات، ومرَّغا الأصـداغ على عتباته، واشـتكيا له طول

القِرَان من غير خلفة، وأن القلب موجوع، والرُّوح زهقانة، وأنَّه أهلٌ للمنِّ والعطاء، وطلبا أن يمنحهما مَن يؤنس وحدتهما، ويدفع عنهما نظرة المُشفق، وعين الشَّامت.

ولأنَّه مقاول عمومي كبير، لم يجد صعوبة في أن يقدِّم لأضياف "الحسين" عجلًا فحلًا، مملوءًا لحمًا، ذبحه بالحلال، وأطعمه للنَّاس بالرِّضا، ومضيا عائدين إلى "طِما".

وها هو، اليوم، يعود بصحبة زوجته ومعهما "زينب"، طفلة في غاية الحسن، عمرها خمس سنين، ولقد جاء يشكر الجوَّاد ابن الجوَّاد، "الحسين بن علي"، ويخبره أنَّه قد سمَّى عطيَّته على اسم اخته امتنانًا وعرفانًا، وأنَّه سيقدِّم لأضيافه، هذه المرَّة، عجلين من أضخم العجول.

شق اللحم البشري وقد حمل "زينب" بين ذراعيه، وأمسكت زوجته بعقب قميصه، ومئذنة المسجد ضاربة في السَّماء مثل قلم ضخم، يليق بأصابع إله صوَّاغ مقادير، يكتبها على صفحة السَّماء.

وأخيرًا، تمكن من دخول غرفة الضَّريح، وتذكَّر أوَّل دمعة سالت من عينيه هنا، دمعة ملتهبة، دمعة محتاج مقهور.

وتاهت عيناه في الخطوط الدوَّارة بأعلى الضَّريح، خطوط مذهَّبة غنيَّة بفيض من رحمات الله الذي يجبر خاطر المنكسرين، رأى النُّقوش المعمولة بعظمة، كأنَّها منحوتة لتصير خريطة طريق

إلى السَّماء الرَّحيمة، وسالت دموع باردة، دموع شاكرة، وشعر أنَّه يريد أن يرفع ذراعيه إلى آخرهما نحو الله، الذي رحم عذاباته، وعذابات زوجته، بـ"زينب"، فأنزلها من بين ذراعيه إلى جواره، وحرص على أن يجعلها تقبض طرف قميصه بيدها الصَّغيرة، ونظر إلى زوجته، فوجد دموعها تغرقها، وقد سبحت بناظريها في سقف الضَّريح، ورفع ذراعيه يشكر، ونصب جسده على مشطي قدميه يشكر، ويلهج بالحمد لله والثَّناء عليه، بينما التدبير الإلهي كان على غير ما يُحب "رشيد" وزوجته، أو يشتهيان.

لقد سحب طوفان المريدين، حول الضَّريح، "زينب" إلى بعيد، سحبها بمكر إلى الضَّياع، في الوقت الذي لم يكن قد انتهى الأبوان من شكر الله أنْ وَلِداها بعد طول عقم.

وفي قلب الصَّدمة، نسيا الله، ونسيا "الحسين"، وأخذا يدفعان النَّاس هنا وهناك، يضربان الأماكن بأبصارهما المشدوهة، يصرخان:

- "زينب".. "زينب".

انطلقا إلى خارج الضَّريح، رأيا العالم قد اتَّسع جدًّا، صار صحراء جرداء، ساكنة، وفي كل الاتِّجاهات، حتَّى الآفاق، لم يكن هناك أي أثر لـ"زينب".

فجأة ظهرت هذه المئذنة، هذا القلم الذي يسطر المقادير، بقمَّته المدبَّبة مثل نصل خنجر مُعَد دائمًا للارتشاق في قلوب البشر، ثم

عـاد زخم أصوات النَّاس التي فجعها ما أصابه، وقد داروا حولهما، يحاولـون إفاقته، ومن تحت سـحابة تُغطِّي عينيـه رأى زوجته ملقاة بجواره، وسمع صوتًا يقول:

- حـد يبعت صورة البنـت لأي جورنال ويكتب خبر.. إن شـاء الله هانلاقيها..

سمع صوتًا آخر يقول بإلحاح:

- هِيَّ اسمها إيه؟

وعندمـا يبكي القلـب تغيض دموع العين، وتنسـد مجاريها التي تصـب في المآقي، منذ هذا اليوم البعيد، الذي غار في أعماق الزمن عشـرين سـنة، تحجَّرت عينا "رشـيد"، وصار ملح الدُّموع ينسكب في داخله، ينشع في جدران مواجيده، يهرِّئ روحه تمهيدًا لانهيارها التَّام، ولم يرفع كفَّيه للسَّماء بعدها أبدًا.

- رفعتهم لِيه وانا ف بيته.. كنت باشكره وانا ف بيته.. وهو بيدبر لي في نصيبه سودا.. وانا ف بيته!

لم يعد له من سـلوى غير السَّـفر في بلاد الله، يركـب القطارات، والأوتوبيسـات، والميكروباصـات، يبحث عنها فـي كل مكان، لو توقَّـف عن البحث سـيموت، هذا بخـلاف النَّظر الدائـم في صورة "زينب" المنشورة في الجريدة، تطالعه مبتسمة، بينما الملح ينـدلق بين ضلوع صدره.

3

مع أن الشَّيخ والقسِّيس يجلسان في الأريكة الأماميَّة، بجوار "أبو أميرة"، ويبحلقان في الطَّريق الممتدِّ أمامهما كأفعى ضخمة، إلَّا أنَّهما لم يلحظا انحراف السيَّارة نحو الاتِّجاه المعاكس، الذي تسدُّه شاحنة ضخمة، لنقل المواد البتروليَّة، قادمة تجلجل بسرعة البرق، كانت التقطيبة التى ارتسمت على جبينيهما تؤكد أنهما سارحين في هموم صعبة، بينما كان "أبو أميرة" محوِّلًا عينيه إلى المرآة، مشغولًا بامتصاص صورة "سوسن" التي انطبعت عليها، ومستغرقًا في ضخِّها إلى قلبه، ربما استطاع التعرُّف على حقيقتها، وهل هي بنت الشَّوارع التي قضى معها أحلى ليلة من ليالي عمره، أم لا.

الكارثة ستقع لا محالة، وفي أقل من دقيقة.

فجأة، سمع "أبو أميرة" صرخة مهيبة، منبعها لا يمكن أن يكون سوى حنجرة رصينة:

- انتبه.

صرخة بلسـان عربـي فصيح، بلكنـة بدويَّة، ومدوِّيـة مثل قرقعة صخـور ضخمـة، تتهـاوى من أعلـى قمَّة في جبل شـاهق، لتسـقط على رأس "أبو أميرة" فتدوشه، ليتصرَّف بعد ذلك البرنامج الفطري داخل كل آدمي، والخاص بإدارة أزمة شتات العقل عند المفاجأة.

فعل "أبو أميرة"، كما يفعل أي سائق يقود سيَّارة ما، على الطَّريق السَّـريع، بسرعة تزيد على مائة كيلو متر في السَّاعة، ناظرًا في المرآة الأماميَّة، سـارحًا بفكـره بعيدًا عن الطَّريق، ثم يسـمع فجأة صرخة: "انتبه".

انتبـه تمامًـا، خاطفًا نظره من المرآة، وبحلق في الطَّريق، فسـقط قلبه، وشَلَّ عقله.

كانت شـاحنة المواد البتروليَّة الضَّخمة فـي مواجهته، قريبة إلى الحد الذي لا يسـمح له بالتَّفكير في كيفيَّة الهروب من هذا الموت القادم يجلجل.

شـحب وجه الشَّـيخ الأزهري، ودفع بظهره إلى الوراء، ملتصقًا غايـة الالتصـاق بظهر الكرسـي الذي يجلس عليـه، وفتح فمه، ولم يقـل كمـا يُتوقَّع من شـيخ أزهـري أن يقول فـي مثل هـذه اللحظة: "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله". وإنَّما زعق:

- حاسب.

والقسِّيس، أيضًا، أغمض عينيه بقوَّة، وتقلَّصت تجاعيد وجهه، ونسي هو الآخر أن يسلِّم روحه لـ"يسوع"، وهمس بصوت طحنته ضروسه، التي انطبقت متشنِّجة على بعضها:

- حاسب.

ضرب الصَّخب رأس "أبو أميرة"، صخب تفجَّر في داخله، فطارت شظاياه لتمزِّق كلَّ أعضاء جسده، صخب امتزجت فيه أصوات مدافع، مع أصوات طواحين قمح، مع أصوات صراخ نساء، مع صوت نفير هادر لشاحنة تقترب بسرعة البرق، مع صرخة مدوية:

- انتبه.

وفي اللحظة قبل الأخيرة، رأى "أبو أميرة" ما لم يَرَ مثله من قبل، ولن يرى مثله من بعد، حتَّى لم يخطر على قلبه أبدًا أنَّه سيراه.

رجلًا يرتدي جلبابًا أبيض، غريب الهيئة، يضع على رأسه عمامة خضراء ضخمة، عجيبة المنظر، له لحية سوداء مشوبة بشعيرات بيضاء، تتطاير في الهواء، يجلس على المَصَدِّ الأمامي العريض للشَّاحنة القادمة بعنف، يشير بذراعه اليسرى، وقد ثبتت عيناه في عينيه.

كانت هذه الإشارة فارقة في حياة ركَّاب السيَّارة "الميكروباص"، فقد أعادت، خلال ومضة زمنيَّة بارقة، عقل "أبو أميرة" للعمل، ليدير

عجلة القيادة قليلًا، وبسرعة، ناحية اليمين، فمرقت الشَّاحنة بجوار "الميكروباص" كإعصار، فرجَّتها رجًّا عنيفًا.

شعر الركَّاب بالسيَّارة تنحرف بشدَّة إلى اليمين، وقد ارتفع جانبها الأيسر، إثر هبوب ريح عاصفة، فجَّرها مرور شاحنة ضخمة في الاتِّجاه المضاد.

الانحراف كان قويًّا للدرجة التي جعلت الطِّفل، الواقف على فخذ أمِّه، يميل ليرتطم بزجاج النَّافذة، وأوراق الجريدة المتهرِّئة، في يد "رشيد"، كادت تتمزَّق من عصف الرِّيح التي اخترقت السيَّارة، فأخذ يلملم أوراقها بحنو بالغ، وقد تنطَّطت في عينيه نظرات مستفهمة.

زعق "ياسر مبروك":

- إيه في؟!

مط "زياد" رأسه إلى الأمام، ناظرًا إلى حيث يجلس السَّائق، ثم همس:

- ابن الدايخه السوَّاق باين عليه معمَّرها حشيش ومسطول ع الآخر.

نفخ "أبو أميرة" الهواء الذي انحبس في صدره طوال هذه اللحظات العصيبة، وزعق:

- يا ساااتر.. كنَّا هانروح ف ستِّين داهيه.

فقال الشَّـيخ الأزهري، وهو يجفِّف العرق، الذي غسـل وجهه، بمنديل قماش كبير:

- هُوَّ حصل إيه؟! انت سرحت ولَّلا إيه؟

ضحـك "أبو أميرة" ضحكة خاطفة، تشـبه صيـاح ديك مذعور، وقال:

- شوفتو الرَّاجل اللي كان قاعد على اكصدام التِّريلّه؟!

ولم ينتظر إجابة، وإنَّما ضحك ضحكة تشبه صياح إوزَّة، وقال:

- واللـه لولا أنُّه شـاورلي آخـد يميني كنت لبسـت فيها.. وكان زمانهم "ناكر" و"نكير" بيحاسبوا فيكم دلوقتي.

قال الشَّيخ من تحت منديله الذي يجفف به شفتيه:

- "منكر" مش "ناكر".

اهتز جسـد "أبو أميرة" وهو يضحك مصدرًا فحيحًا كفحيح ذكر بط يغازل أنثاه، وقال:

- واللـه حاجه ولا فِ الغرايب! كِيف البني آدم دَهَه عارف يقعد على اكصدام التِّريلّه وهيَّا ماشيه بالسرعه دي؟!

ارتسمت علامات الدَّهشة على وجه القسِّيس:

– مين قاعد على اكصدام التريللا؟! ما فيش حد يا بني كان قاعد على اكصدام التريللا!

زعق "أبو أميرة":

– لا.. كان في واحد لابس أُبيض ف أُبيض.. وعلى راسه عِمَّه كبيره خضرا.. ودِقنه طويله طول ابويا وامِّي.. وقاعد على الاكصدام من قدَّام.

بدا فزع مريع على وجه القسِّيس، استمر لثوانٍ، قبل أن يقول بصوت دائخ:

– صدَّقني.. ما كانش في حد خالص قاعد على الاكصدام.

ارتبك "أبو أميرة"، لكنَّه زعق:

– إيه يا بونا؟! انتا هاتمَخْوِلني ليه؟! عليَّا الطَّلاق بالتَّلاته كان فيه واحد قاعد على الاكصدام.. بس الظَّاهر الخوف خلَّاك ماتشوفوهش.

قال القسِّيس بصوت متضعضع، وهو يعرف أنَّه يقاوح:

– طب ليه ما يكونش الخوف هوَّ اللي خلَّاك تشوف المنظر المستحيل ده؟!

فزعق، "أبو أميرة"، مخاطبًا الشَّيخ الأزهري:

- إيه يا مولانا؟! ساكت ليه؟ ما تقول حاجه!

كان الشَّيخ قد رفع الطربوشة الحمراء، الملفوف نصفها الأسفل بلفافة بيضاء، بيده اليمنى، وأخذ يمسح العرق الذي أغرق صلعته بيده اليسرى، قال:

- أبونا معاه حق.. باين يا ولدي المسائل ضربت معاك لَخْمِه.. ركِّز فِ الطَّريق الله يخلِّيك.. خلِّينا نوصلو بالسَّلامه.

كلام الشَّيخ لم يعجب "أبو أميرة"، كما لم يعجبه كلام القسِّيس، فهمس لنفسه غاضبًا:

- والله العظيم.. مولانا وابونا.. الاتنين.. جاهم عمى فِ عنيهم!

4

لا تذكر "سوسن" من طفولتها غير هذه اللحظة الصَّاعقة، عندما انفلتت من أبيها في زحام ساحق، تحوطها عماليق النَّاس، يدفعونها في سيرهم إلى المجهول، وصوت بكائها يضيع في جهير صاخب لا تفهمه.

وعندما تعبت من البكاء جلست في مكان استطاعت أن ترى منه مئذنة مسجد تستطيل إلى علِّيين، وشعرت بثقل يتمدَّد في رأسها، فتمدَّدت على الأرض ونامت.

ولمَّا استيقظت كان الظَّلام قد لوَّن السَّماء، والصَّخب صار أشد قسوة، والزِّحام فتَّاكًا، وهي وحيدة، تائهة، فلم يكن أمامها سوى اللجوء إلى الحل الذي تعرفه كطفلة، أن تبكي بحرقة.

تتذكَّر أن امرأة متوسِّطة العمر، اتَّشحت بالسَّواد، ربتت كتفها، وقالت لها إن أباها لا بد يبحث عنها، وإن أفضل مكان يجب أن تتواجد فيه الآن هو الباب الكبير لمسجد سيدنا "الحسين"، وأمسكت بيدها، وقادتها في الزِّحام إلى زقاق بالغ الضِّيق، ودخلت

بهـا إلى منـزل قديم، حيـث غرفة معتمـة، بدَّلت لها ملابسـها وهي تتكلَّـم بحنـان، ثم نكشـت لها شـعرها، ولطَّخت وجهها بشـيء لم تعرفـه، قبل أن تخرج بها مرة أخرى إلـى الزِّحام، تخترقه إلى الباب الكبير لمسجد سيدنا "الحسين".

بعـد معافـرة طويلة أمكـن لهما الوصـول إلى الباب، فجلسـت المـرأة على العتب، وأجلسـتها بجوارها، ورأت يـد المرأة ممدودة بكف مبسوطة، بينما بدأت تمط صوتها بكلام غريبٍ باكٍ، والبعض يميل إليها ويضع في كفِّها نقودًا.

دنـا رأس المرأة ناحيتها، وسـمعتها تسـألها عن اسـمها، فقالت لها:

- "زينب".

رأت أناسًـا أدهشـوها. رجال غريبو الأشـكال، تحيط رؤوسهم عمامات خضراء، وحمراء، وصفراء، وقد تدلَّت من رقابهم عشرات السُّـبح الملوَّنة، يتطوَّحون وهم يهتفون بكلام لا تسـتوعب معانيه، ورأت آخرين، مزَّقهم كبر السِّـن، يدخلون إلى المسـجد محمولين على الأكتاف، وبدا أنَّها نسيت مصيبتها عندما رأت عينيه تصطدمان بعينيها.

أبوها.

كان بائسًا، تغضَّن وجهه بالذُّهول، في عينيه توهة، لقد قضى النَّهار بأكمله، وبعضًا من الليل، يفتِّش المسجد وما حوله من شوارع، وحوارٍ، وأزقَّة، وبلغ به الجَهد أن صار ينظر لكنَّه لا يرى.

لم يرَ "زينب" رغم أن عينيه وقعتا في عينيها، ولقد اعتقدت أنَّه سيتقدَّم ناحيتها مهرولًا، وانتظرته للحظة، غير أنَّها رأته يمضي في الزِّحام، ويختفي، فهبَّت واقفة، وصرخت:

- بابا.

لكن العماليق من حولها أخفوه عنها، وتلك الأصوات الشاذَّة، الصَّاخبة، قتلت صوتها الصَّغير، وعندما همَّت بالرَّكض في الاتِّجاه الذي اختفى أبوها فيه، شعرت بيد المرأة تجذبها من ملابسها كي تعود إلى الجلوس بجوارها، كانت تقول:

- هاييجي تاني.

"وما جاش تاني" .

5

لن يستطيع البوليس القبض على "حميد المِجَري" أبدًا، طالما هو يسكن في غرفة بإحدى هذه البيوت، الحقيرة، المنثورة على جزء من سفح جبل "المقطَّم" ناحية "إسطبل عنتر"، فلا طريق معبَّد يصلح لمرور عربات الشُّرطة، لا من فوق الجبل، أو حتَّى تحته، ليس هناك سوى ممر ضيِّق، يتلوَّى قادمًا من مشارف عمار حي "الزهراء" ليزحف بين هذه البيوت الغرائبيَّة، القادرة على إيواء البشر، والعقارب، والفئران، ومياه المجاري، تحت سقف واحد، قبل أن يتثنَّى، هذا الممر، صاعدًا إلى بيوت الجبل.

من فرط ضيق هذا المدق كانت إذا جلست إحدى نساء الحارة على عتبة البيت الذي تسكنه، لتنقِّي أرزًا من شوائبه، وفرطت ساقيها، تخبط قدماها جدار البيت المقابل.

المنطقة عشوائيَّة تمامًا، يسكنها خطرون كُثر، ولا يمكن للضبَّاط، أو العساكر، أن يخاطروا بالمشي لمسافات طويلة في هذه الممرَّات الضيِّقة، ليداهموا غرفة مسجل خطر، خصوصًا إذا كان

المطلوب القبض عليه هو "حميد المِجَري"، المسجَّل خطر نصب وسرقة بالإكراه.

نظر "المِجَري" باندهاش ممزوج بالحذر ،والتخوُّف، إلى هذا الرَّجل الذي يدخل الغرفة الملاصقة لغرفته، إنَّه السَّاكن الجديد، يرتدي أسمالًا عجيبة لم يرها من قبل سوى على أجساد مجاذيب "السَّيدة"، أو "الحسين"، عمامة خضراء في ضخامة هرم، وجلبابًا خفيفًا قصيرًا، وتتدلى من ذقنه أطول لحية رآها حتَّى الآن.

الخاطر الذي داهمه، فور رؤيته لهذا الآدمي، هو احتماليَّة أن يكون مخبرًا تدسُّه الشُّرطة لتسهيل القبض عليه، لكن إحساسه النَّاتج عن خبرة قديمة في التَّعامل معها، ومعرفته العريقة بكل مخبر من مخبري المنطقة نفيا أن يكون هذا الرَّجل، غريب الهيئة، واحدًا من هؤلاء.

عمومًا، كانت الأصول تستلزم أن يرحِّب "المِجَري" بجاره الجديد، فقام يعمل كوبين من الشَّاي، وضعهما في صينيَّة، وخطا بهما خطوتين إلى الغرفة المجاورة، وطرق الباب، الذي انفتح بعد برهة، ليطل من خلفه وجه من أجمل الوجوه، وجه مُلوكي يميل إلى الطُّول، أبيض مخلوط بحُمرة، عينان واسعتان، كأجمل ما يكون الاتِّساع، مليئتان بالرَّزانة والعقل، بدتا مكحَّلتين، وأنف هرمي شامخ، لا ضخم ولا دقيق، وشفتان مملوءتان بالحمرة،

كأنَّهما شفتا رضيع حديثتا التَّركيب، لم تتكلَّما كثيرًا، بينما اختفى صدغاه تحت لحية كثَّة جدًّا، طالت حتَّى كادت تلامس سُرَّة بطنه، وثمَّة تجاعيد خفيفة حفَّت بأطراف العينين لتشي بأنَّه ربما يكون في منتصف خمسينيات عمره.

لم يقُل الرَّجل أي كلمة ترحيب، سوى أنَّه فتح الباب واسعًا، وانبسط جبينه، ففهم "المِجَري" أنَّه مرحَّب به، فدخل، ومنذ البداية ضرب قلبه إحساس صارخ بأنَّه في مواجهة رجل غير عادي، رجل مختلف، من غير هذه النَّوعيَّة التي تعج بها الدُّنيا، له مهابة لا تدانيها حتَّى مهابة وزير الداخليَّة نفسه.

أشار الرَّجل له بالجلوس على السَّرير، الذي لم يكن هناك أي قطعة أثاث غيره، فجلس، بينما وقف الرَّجل في وسط الغرفة، ينظر إلى سقفها، كأنَّما يستنزل مددًا ملائكيًّا.

تنحنح "المِجَري" قبل أن يقول:

- أهلًا بيك يا حاج..

نظر الرَّجل إليه، وابتسم، فقط، ثم عاد ينظر إلى السَّقف.

"معقوله يكون مجنون؟!".

أمسك "المِجَري" بأحد الكوبين وقدَّمه إلى الرَّجل:

- اتفضل اشرب الشَّاي قبل ما يبرد.

أمسك الرَّجل الكوب، وأعاده إلى الصينيَّة، ثم جلس على الطَّرف الآخر من السَّرير، ونظر إلى "المِجَري" نظرة مرحِّبة، شجَّعت هذا الأخير على أن ينطلق في الكلام:

- محسوبك "حميد المِجَري".. أكبر نصَّاب فيكي يا "مصر".. الصَّراحه حلوه.

توقَّع "المِجَري" أن يرى اندهاشًا في مقلتي الرَّجل، لكن خاب توقُّعه، فقرَّر أن يستدرك:

- مافيش واحد فيكي يا "مصر" دوَّخ البوليس زي ما دوَّخته أنا، ولا حد بهدله زي ما بهدلته أنا، ولا حتى خُط "الصعيد" اللي بيقولوا عليه.

الرَّجل لم ينطق حتَّى، يسمع فحسب، ويسمع بملامح باردة.

قرَّر "المِجَري" أن يخبره بما سيثيره حتمًا، ليجبره على تمزيق هذه الحياديَّة التي تلف وجهه:

- أنا ف مرَّه خطفت ظابط برتبة "مقدِّم" تلات ساعات كامله.

ونظر في عيني الرَّجل ليرى فيض الاندهاش الذي سيتدفَّق منهما، فلم يرَ أي أثر لأي شيء، لكنَّه تأكَّد من أن للرَّجل عينين لم يرَ مثلهما من قبل في وجه بشر، ويستحيل وصفهما إلَّا بأنَّهما خارقتان.

وبينما يجر عينيه بقوَّة، يسحبهما من العينين الخارقتين، أشار بيده ناحية غرفته وقال:

- كَتِّفتُه بحبل غسيل ورميته ف أوضتي اللي ف ريحك دي.

لم تكن في صوت "المِجَري"، هذه المرَّة، زهوة الخيلاء، وإنَّما انكسار خفيف، وكان هذا مفاجئًا له، إذ إنَّه لم يعرف الانكسار من قبل أبدًا.

"يطلع مين ابن التَّايهه دا؟!".

هذا ما سأل "المِجَري" به نفسه وهو يخطف نظرة سريعة لوجه الرَّجل، غريب الهيئة، فوجده ينظر إليه وقد قطَّب جبينه.

شعر "المِجَري" وكأن الرَّجل يقرأ ما يدور في داخله فارتبك، وهرب بنظره إلى الصينيَّة الموضوعة على الأرض.

أمسك أحد الكوبين وقدَّمه للرَّجل، مرَّة أخرى، الذي أشار بكف يده إشارة رافضة، حاسمة، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة رائقة.

وبينما "المِجَري" يعيد الكوب إلى مكانه، في الصينيَّة، كانت عيناه قد تعلَّقتا بابتسامة هذا الرَّجل، إنَّها ابتسامة بلغ سحرها حدَّ القدرة على فصله عن العالم.

6

الإناء الزُّجاجي، إذا سقط من مكانٍ عالٍ، تفتَّت إلى مائة شظية، ويستحيل إصلاحه، وكرامة الإنسان مثل هذا الإناء، وها هي كرامته، الآن، تتزحزح من مكانها الشَّامخ في روحه، وتتهيَّأ للسُّقوط.

صوت العقيد "هاني علي الدِّين"، قائد فرع مركبات الفرقة العاشرة مشاة ميكانيكي، ينسل من سمَّاعة "التَّحويلة" الخاصَّة باتِّصالات الفرقة، هادئًا:

- هات الخط يابن الـ "..."

العرِّيف مجنَّد "ياسر مبروك خليل" هو الذي يقبض على السمَّاعة. ولقد فوجئ للغاية بهذه الإهانة.

كانت سمعة العقيد "هاني علي الدِّين" واسعة بين ضبَّاط وعساكر الفرقة، كرجل صاحب مزاج سيئ، لا يحترم أحدًا دونه في الرُّتبة العسكريَّة، على خلاف ما يبديه من أدبٍ جمٍّ، واحترامٍ عظيمٍ، لمَن هو أعلى منه رتبة.

لكـن العرِّيف مجنَّد "ياسـر المبـروك" لـم يُعطِ هـذا "العقيد" أيَّ فرصـة كي يهينـه، إنَّه يبقى دائمًا فـي ورديته علـى "التَّحويلة" منتبهًا جدًّا للمبة الصَّفراء الخاصَّة بخطِّه، ما إن تضيء حتَّى يسارع بتوصيل "الكوردة" بهذا الخط التليفوني، ويتكلَّم بصوت عسكري رصين:

- أؤمر سعادتك يا فندم.

لـم يكـن "ياسـر المبـروك" يسـتخدم هـذه الطَّريقة العسـكريَّة، الصِّرفـة، فـي التعامل مع أكثر مـن ثلاثين ضابطًـا، مختلفي الرُّتب، ابتداءً من "ملازم" وحتَّى "عقيد"، والذين اتَّصلت خطوط تليفونات مبيتاتهم داخل الفرقة بـ"التَّحويلة" الرئيسـيَّة التي يؤدِّي "ياسر" مدَّة خدمته العسـكريَّة عليها، فكل هؤلاء الضُّباط يتعاملون معه على أنه عرِّيف مجنَّد برتبة "صديق"، بل إن بعضهم يُرسل إليه بعض الهدايا، مثل سـجائر "المارلبـورو"، أو كثير مـن اللحم والدَّجـاج، بطاطين "ميري"، "زُنط" إضافي، حتَّى منهم مَن كان يدعوه بنفسـه لشـرب الشَّـاي في مبيتاتهم، أو لتنـاول الطَّعام معهم في الـ"ميس" الخاص بهم.

فقـط ثلاث لمبات، لثلاثة ضبَّاط، هـي التي أولاها كل اهتمامه، وكل جدِّيتـه: لمبة "العميد" قائد الفرقة؛ لأنـه الرأس الكبير، ولمبة "العميـد" رئيس أركان الفرقة؛ لأنـه رأس كبير أيضًا، ولمبة العقيد "هاني علي الدِّين"؛ لأنَّه قليل أدب.

أما باقي اللمبات فلم تكن على ذات الدَّرجة من الخطورة، وأصحابها يعرفون أنَّهم مجرَّد ضبَّاط عاديِّين، لم يصلوا بعد إلى قيادات مهمَّة، فلجأوا إلى التَّعامل الرَّاقي مع عساكر "التَّحويلة"، على اعتبار أن هذه الطريقة في التَّعامل قد تشجِّع هؤلاء العساكر، المسؤولين عن إدارة خط "سنترال" وحيد لصالح كل ضبَّاط الفرقة، على الترفُّق بهم، والانتباه إليهم في كل هذا الازدحام الاتِّصالاتي، الذي تأكل فيه الرُّتبة الكبيرة حق الرُّتبة الصَّغيرة، فيتمكَّنون من اختلاس وقتٍ كافٍ كي يسمعوا أصوات عشيقاتهم، أو زوجاتهم، وعيالهم، وأهاليهم، وأصدقائهم، فيأخذوا جرعة كافية من عالم الوَنَس والعمار تزيح عنهم، ولو قليلًا، همَّ العزلة في صحراء مليئة بالأوامر العسكريَّة، التي لا تستهدف في عمومها شيئًا مفيدًا بقدر ما تستهدف أن يبقى مبدأ "حكم النَّفس على النَّفس" صالحًا للاستعمال الجيِّد طوال الوقت.

فلم تكن هناك أدنى مشكلة في أن تضيء لمبة خاصَّة بتليفون "ملازم"، أو "نقيب"، أو حتَّى "مقدِّم"، و يتباطأ "ياسر" في الدُّخول بـ"الكوردة" إلى جهاز "التَّحويلة".

كما يمكنه، بعد كل هذا التباطؤ، أن يرد بهدوء:

- أفندم.

فقط "أفندم"، أو:

- أيوا يا فندم.

هكذا، يرد بطريقة عاديَّة جدًّا، وخالية من أي نبرة عسكريَّة.

والحقيقة أن تباطؤ العرِّيف مجنَّد "ياسر المبروك" لم يكن مُتعمَّدًا، بل، هو بالتَّحديد،كان أسرع زملائه في الرَّد على الضبَّاط، لكن "التَّحويلة" تضم واجهتها أكثر من ثلاثين لمبة، يتَّفق غالبًا لعشر لمبات، أو أكثر، أن تكون في حالة إضاءة، أي أن هناك عشرة ضبَّاط، أو أكثر، يطلبون خط "السِّنترال" في نفس الوقت، فكان لا بد لـ "ياسر" أن يتعامل مع اللمبات حسب رتبة مَن تشير إليهم، فكيف يمكن أن يرد على ضابط برتبة "ملازم" قبل أن يستجيب لآخر برتبة "نقيب"؟ أو يقدِّم الـ "نقيب" قبل الـ "مقدِّم"؟ أو الـ "عقيد" قبل الـ "عميد"؟ وهكذا، يمكن للمبة الـ "ملازم" أن تبقى مضيئة لخمس دقائق متَّصلة قبل أن يجد "ياسر" فرصة للدُّخول عليها بـ "الكوردة"، عندها لا بد وأن يسمع الجملة الافتتاحيَّة، التي تُعبِّر عن زهق هذا الضَّابط، الذي يدرك، بالتَّأكيد، أن تدنِّي رتبته هو السَّبب الوحيد في طول انتظاره:

- إيه يا عسكري انت؟! أنا مش مالي عينك وللا إيه؟!

يُشفق "ياسر" في قرارة نفسه على هؤلاء الضبَّاط، ولا يجد ثمَّة اختلافًا كبيرًا بينهم وبين العساكر المجنَّدين، فإن كانوا يأكلون طعامًا أفضل في "ميس" خاص بهم، ويسكن كل منهم في "مَبيت"

خاص به، يتفنَّن في أن يجعله أشبه بفيلا صغيرة، ويكون في خدمة كل ضابط منهم عسكري مجنَّد، يخدمه خدمة تامَّة، يصل تمامها إلى درجة غسل ملابسه الدَّاخلية، وتلميع بيادته، إلَّا أنَّهم يعانون من الإهانة، كثيرًا، أمام الضبَّاط الأعلى رتبة، في بعض الأحيان تصل الإهانة حد الرَّكل بقدم الرُّتبة الأعلى على مؤخِّرة الرُّتبة الأدنى، وكانت الإهانة بهذه الطَّريقة هي أسلوب العقيد "هاني علي الدِّين"، حتَّى إنَّه مرَّة ركل بقدمه مؤخِّرة ضابط برتبة "مقدِّم"، أمام جميع ضبَّاط وعساكر الفرقة، في طابور الصَّباح، عندما رآه لا يقف "انتباه" بطريقة منضبطة، ولم يضع أي اعتبار لكون رتبة "مقدِّم" هي رتبة كبيرة؛ لأنَّها في النِّهاية أدنى من رتبته.

كانوا فعلًا يستحقون الشَّفقة، فلم يكن "ياسر" يغضب من ردود أفعالهم النَّاتجة عن انتظارهم الطَّويل كي يستجيب لهم، وإنَّما كان يتلطَّف معهم.

- إزَّاي يا فندم؟! سعادتك تِملا عين الأسد.. بس "العميد" قائد الفرقه كان على....

فيقاطعه الضَّابط وقد ارتضى:

- طيِّب يا خويا.. وصَّللي الخط.. عايز اكلم البيت.

7

صار هذا المكان مبعث غضب شديد، ومنطلق حزن حرَّاق، وكل ما فيه يذكِّره بهذا الوجع الصَّاعق الذي أودى به، وبزوجته، إلى الغيبوبة، رغم أن ما حدث يودي إلى الموت، لا مجرَّد غيبوبة، هل يمكن أن يعيش مَن يُنتزع كبده نهشًا؟

عام آخر، واحتفال آخر، وآلاف من المخدوعين في هذه الساحة، مَن يظنُّون أنَّها مُتنزَّل الرَّحمات، وأن صاحب المقام حلَّال مشاكل، يحوطون المسجد الكبير بالخيام والسُّرادقات، يرفعون شكواهم وينتظرون الاستجابات.

رفع عينيه إلى المئذنة، حاجبًا بجريدته ضوء الشَّمس كي يرى جيّدًا، بخلاف كل المآذن التي رآها، إنَّها تشبه الحربة، أو نصل سكِّين عمياء، ومرشوقة في قلبه، كيف لقتيل أن يمشي على قدمين؟! فضلًا عن أن يمارس حياة.

"هُوَّ الحسين دا مش عارفني قدِّ كِيف انا مدبوح؟".

رفع وجهه إلى غيم يقطع زرقة السَّماء، وقد لوَّنه دم الغضب بزرقة قانية، وهمس ساخرًا:

- إيه الحكاية بس يا ربي؟! هوَّ عشان انت خلقتنا.. وتقدر تخلق ملايين غيرنا.. بقينا رْخاص عِنديك للدرجه دي!؟ طب انت عنديك كَتير.. لكن "زينب" دي اللي حيلتي.. واحده ما فيش غيرها.. تِتوِّهَّا منِّي! مِش انت رحيم؟ طب انا قدَّامك أهَه.. بموت.. شايفني واللا لهْ؟! والمَرَه امَّها بتموت ف البلد.. شايفها واللا لهْ؟! ارحم عاد.

يقلِّب عينيه في كل مكان، لكن ليس بحماسة سنين الضَّياع الأولى، إنَّه يبحث كي يستمر حيًّا، لقد فقد الأمل في العثور على "زينب" بنسبة كبيرة، لكنَّه لم يفقد الحنين إليها، وربَّما هي هنا، في مكان ما أقرب ممَّا يتخيَّل، ولا يتمكَّن من الوصول إليها، لا لشيء غير أن يمارس الله ما يقول عنه الفقهاء إنَّه الحكمة.

لفت نظره أحد السُّرادقات الكبيرة، وقف فيه النَّاس صفوفًا يتطوَّحون برؤوسهم وأذرعهم، يميلون بصدورهم ميل جذوع النَّخيل في ريح طيِّبة، بينما تنطلق من صدورهم كلمة "حَي" بصوت يشبه هزيم نار مكبوتة في لحظة انفلات.

شعر بأنَّه يريد أن يتطوَّح، لعلَّه يُجهد حزن قلبه فيضطره للهدَّة والسُّكون، فدخل في أحد الصُّفوف، وبدأ يتطوَّح، كان المنشد يُدندن:

- "حبيبي أنت سؤلي وبغيتي.. كفى بك للرَّاجين سؤلًا ومغنما"

"مش فاهم حاجه"

- حَيْ..

- "ألست الذي غذَّيتني وهديتني.. ولا زلت منَّانًا عليَّ ومنعمًا؟".

طِيب المسك، والعطر العنبري، وصوت الشَّادي مكسور مثل نغم النَّاي، يريد الإنسان أن يشرخ السَّماء بصوته المعذَّب: أثبتُّ لك يا ألله العطاء والمنح.. فلا تأخذ عزيزي.

ويتضوَّع الإنشاد من حنجرة محترقة، في روعة الأبنوس وسواده:

"عسى مَن له الإحسان يغفر ذلَّتي.. ويستر أوزاري وما قد تقدَّما".

- حَي.

"حوالِيَّ فضل الله من كل جانب.. ونور من الرَّحمن يفترش السَّما".

"وينُه الفضل دَهَه؟! دا مغرِّمني الضَّنى".

وبينما "رشيد" يتطوَّح بين الصُّفوف، كانت "زينب" واقفة خارج السُّرادق، تشاهد هذه الأجساد التي بدأت تُسرع من وتيرة تطوُّحها،

كان الوجد قد بدأ في الحلول.

- حَي.. حَي.

"فإنْ تعفُ عنِّي تعفُ عن متمرِّد.. ظلوم غشوم لا يزايل مأثما".

"ظلوم.. غشوم!؟ يعني ياخد منِّي روحي واسكت؟!".

كان التطوُّح قد بلغ معاليه، والعقول راحت نحو الشَّتات، ارتفعت صيحات الوجد، وعلت صرخات المعذَّبين، وانفلت "رشيد"، يبكي، ويصرخ:

- يا ظالمني.. حَي.. حَي..

- يا قاتلني.. حَي.. حَي.

لم ينتبه أحد لمعنى صراخه، كان الكل قد راح في أوجاعه، والأجساد صارت ترتج مثل نواقيس مجنونة.

"فإن تنتقم منِّي فلست بآيس.. ولو أدخلوا نفسي بجرم جهنَّما".

"وهِيَّا جهنَّم إيه غير غياب الضَّنا.. لا عارفها ان كانت حيَّه.. ولا ان كانت ميِّته".

- يا جبَّار.. حَي.. حَي.

ودارت الدُّنيـا مثل دوَّامة، وانبلج نـور في ظلام، وتداخل أبيض في أسـود، وامتلأت السَّـماء بحَبِّ اللؤلؤ الوامـض، ثم انفتح الأفق علـى قصـر من نحـاس، محمول على سـنام جمل فـي حجم جبل، وأخـذ يقترب بسـرعة قطـار، قبل أن يجد "رشـيد" نفسـه أمـام بابه الفضِّـي، الذي انفتح ليخرج منه رجل اعتمَّ بعمامة خضراء ضخمة، لحيته السَّـوداء تنساب حتَّى سرَّة بطنه، مسربل بهالة المُلك، ليخطو باتِّجاهـه خطوتيـن، ويمـد يـدًا كبيـرة، يحيط بهـا رقبته، ثـم يضغط عليهـا، يخنقه، خنقه فامتنع النَّفـس، وغامت الرُّؤية، وتحوَّل القصر إلـى دخان، قبل أن يتهـاوى، ويتحوَّل إلى مـاء، صيَّر الأرض تحت قدميه طينًا، فتسيخ قدماه، ويسقط.

عندما فتح "رشـيد" عينيه، وجد نفسه خارج السُّرادق، وأحدهم يجرُّه من رقبته، وفي ثوانٍ قليلةٍ كان قد استفاق، ورأى عجبًا.

رجل القصر، صاحب العمامة الخضراء، يسحبه، يمخر به عباب الزِّحام.

8

فتافيت السُّكر المبعثرة في أنحاء صينية الشَّاي تجذب النَّمل، وفي الوقت الذي تفلح بضع نملات في الوصول إلى هذه الفتافيت تنهمر، فجأة، دفقات عاتية من المياه لتغرقها.

"حميد المِجَري" يغسل كوبين زجاجيِّين ليصب فيهما الشَّاي.

كانت عملية غسل أي آنية بالنِّسبة لـ "المِجَري" صعبة للغاية، فلا صنبور في غرفته ينساب منه الماء ليغسل الأواني تحته بسلاسة وإتقان، وإنَّما يمسك بيده اليمنى دورقًا بلاستيكيًّا ويصب منه على الكوب المراد تنظيفه، والذي يمسكه بيسراه؛ لذلك بقيت نظافة أيّ آنية في غرفة "المِجَري" غير مكتملة، وصارت أكواب الشَّاي الزُّجاجية صفراء غير برَّاقة، ولم يعد مقبولًا بشكل قاطع شرب الشَّاي في مثل هذه الأكواب المتَّسخة، التي تُقَدَّم على صينيَّة تلطَّخت بماء لوَّثته جثث عشرات من النَّمل الغارق.

ولقـد قـدَّم "المِجَري" الشَّـاي لهـذا الرجل الغريب، فـي الأيام الثَّلاثـة الأوَل من سـكنه، أكثر من سـبع، أو ثماني مـرَّات، والرَّجل يرفض شربه.

فـي المـرَّة الأولـى لم ينتبـه "المِجَـري"، لكنَّـه فعل فـي الثَّانية، وفـي الثَّالثة أيقن أن شـايه مرفـوض، واختبر هذا اليقين فـي الرَّابعة فوجـده صحيحًا، وفي المرَّة الخامسـة بان ضيقـه في تقطيبة وجهه، فـي السَّادسـة بدأ يبحث عن سـبب مـا يجعل الرَّجل يرفض شـايه، وفي السَّـابعة فكَّر في إن كان يمكنه الكلام معه في هذا الأمر، وفي الثَّامنة لم يستطع أن يكلِّم الرَّجل، لكنَّه ألح عليه في أن يشرب شايه، وأصر الرَّجل ألَّا يشرب، وعاد مهمومًا في المرَّة التَّاسعة إلى غرفته، وقد اتَّضح له الأمر مثل شـمس ظهيرة أحد أيَّام "أغسـطس"، مبهرة الإضاءة إلى حد العمى، وملتهبة كالعذاب.

"مالـي حـرام.. والرَّاجـل دا بايـن عليـه ولـي مـن أوليـاء الله الصَّالحيـن.. أوليـاء الله الصَّالحيـن هُمَّا بس اللي مكشـوف عنهم الحجاب.. وبيعرفوا الحلال م الحرام".

وأحس، "المِجَـري" أن قلبه يتصدَّع، وليس أوجع للإنسـان من قلـب يتصـدَّع، إذ إن روحـه بالتَّالي تتصـدَّع، وتصدُّع الـرُّوح يعني الذُّبول، والاقتراب من حافَّة الموت، لكن ليس من طبع "المِجَري" أن يسـلِّم نفسه بسهولة لمثل هذه الأفكار المميتة، حاول الخلاص،

فقال لنفسه:

– ومين قال ان الشيخ مش راضي يشرب الشَّاي بتاعي عشان حرام؟!

كان "المِجَري" مستلقيًا على سريره، يتهيَّأ لقيلولة الظَّهيرة، عندما نظر إلى السَّاعة الرَّخيصة المعلَّقة على الجدار في مواجهته، عقرباها يشيران إلى اقتراب الثَّانية، فأغمض عينيه وهو يبتسم ابتسامة مريضة، نضح بها قلبه الموجوع، وهمس:

– ولو.. شايك حرام يا "مِجَري".

لكن في اليوم الرابع من سكنى غريب الهيئة، بعد العصر، يدخل "حميد المِجَري" حجرة الرَّجل وهو يحمل صينيَّة من "الميلامين"، نظيفة للغاية، ومزوَّقة برسومات أرابيسكيَّة ملوَّنة، عليها كوبان زجاجيَّان يبرقان وقد امتلآ شايًا، بدا الكوبان، وقد حُلِّيا بحلقات ذهبيَّة وهَّاجة، تحفتين غاية في الرَّوعة.

كان الرَّجل يجلس على سجَّادة الصَّلاة، فانحنى "المِجَري" واضعًا صينيَّة الشَّاي على الأرض بجوار السجَّادة، وجلس بمواجهته.

ثمَّة قلق ينتشر في وجه "المِجَري"، أخذ كوبًا وقدَّمه للرَّجل، و همس:

- اتفضل يا مولانا.. اشرب الشَّاي.

مد الرَّجل يده، وأمسك الكوب.

البخار دافئ، يتسامى، ويتضوَّع في الحجرة ناشرًا رائحة الشَّاي ممزوجًا بالنَّعناع.

ورغم أن رائحة النَّعناع عادة ما تبعث على الهدوء، ثم استرخاء الأعصاب، فتتناغم دقَّات القلب، إلَّا أن قلب "المِجَري" أخذ يدق بشكل أسرع.

"مولانا أخد كوبَّاية الشَّاي!"

وها هو، ببطء شديد، يرفع الكوب إلى فمه، و"المِجَري" يختلس النَّظر إلى وجهه.

كان الرَّجل ينظر إلى الشَّاي، بينما يمط شفتيه ليضع بينهما حافَّة الكوب الدَّافئة، ويرشف أوَّل رشفة، لكن، وقبل أن يفعل، نظر إلى "المِجَري"، وقال بالصَّوت العربي الفصيح:

- هل أنت مَن أعدَّ هذا الشَّاي؟

أخيرًا تكلَّم الرَّجل، ويا لبهاء صوته! كأنَّ له صدى، عميق كصوت الطَّبل البلدي، يطرب كالرَّباب.

أومأ "المِجَري" برأسه، وقال:

- أيوه يا مولانا.

سحب الرَّجل الرَّشفة الأولى، كانت رشفة طويلة، بدا من طولها أنَّه مستمتع جدًّا بطعم ورائحة هذا الشَّاي.

كرَّر، بالصَّوت العربي المبين، السُّؤال:

- هل أنت مَن أعدَّ هذا الشَّاي؟

تململ "المِجَري" في جلسته، قبل أن يقول:

- أيوه يا مولانا.

رشف رشفة أخرى، أطول، وقال:

- هل أنت مَن أعدَّ هذا الشَّاي؟

قالها، هذه المرَّة، وهو يحدق في وجه "المِجَري" الذي انكفأ ناظرًا في رسومات "الأرابيسك" التي تزيِّن الصينيَّة، نظرات غائمة.

لم يُجب "المِجَري" عن سؤال الرَّجل، فنطق باللسان العربي المبين:

- قال أخي "محمَّد": المؤمن يقتل، ويسرق، ويزني، لكنَّه لا يكذب.

امتقع وجه "المِجَري" .

لم تكن مسألة أن المؤمن لا يكذب، والتي هي تصريح واضح

مـن الرَّجـل، غريب الهيئـة، بأنَّه قد كشـف كذبه، هي سـبب امتقاع وجهه، وإنَّما سماعه له وهو يقول: "قال أخي محمد".

لـم يَبـد أن الرَّجـل قـد اهتـم، حتَّـى أقل اهتمـام، لامتقـاع وجه "المِجَري"، الذي يحاول الكلام لكنَّه لا يستطيع، كأن ثقلًا حديديًّا ضخمًا تعلَّق بطرف لسانه.

رشـف غريب الهيئة الرَّشفة الأخيرة، وقال الجملة التي صعقت قلب "المِجَري"، فأضاءته بيقين جديد:

- شاي السِّت "كريمه" شاي طيِّب.

"وحـق اللـي خلـقِ الخلـق الرَّاجـل دا ولـي مـن أوليـاء اللـه الصَّالحيـن.. دا مش بس عرف انِّي مش انا اللي عملت الشَّـاي.. دا كمان عرف مين اللي عملته!".

لكـن هنـاك ما هو غريـب، ومحيِّر جدًّا، غريـب ومحيِّر للدَّرجة التي يمكنها أن تزعزع يقينه الجديد.

"هُمَّا أولياء الله الصالحين ممكن يشـربوا أساسًـا شـاي المَرَه دي؟!".

إنَّهـا امرأة مومس، تـأكل بثدييها، وتسـتمتع بالنَّوم مـع الرِّجال، وتسـتمتع أكثـر بالمراهقيـن، يسـميها الزَّبائـن، ومَن يعرف مشـيها البطَّال، "كريمه السِّـيما التركي"؛ لأنها تعمل في السَّرير مع زبائنها،

ما يفوق الذي تعمله الممثِّلات التُّركيَّات في أفلامهن الإباحيَّة.

"يِمكِن! أسمع ان الأوليا ليهم أحوال".

همس "المِجَري" دون أن ينظر في وجه الرَّجل:

- هل ينفع يا مولانا إن حد يقول على نفسه إنَّه أخو النَّبي صلى الله عليه وسلم؟!

فرط غريب الهيئة ساقيه قبل أن يقول:

- يجوز.. عندما يكون أخًا للنَّبي.

دبَّ "المِجَري" عينيه في عيني الرَّجل، فالشَّيخ يتكلَّم بما لا يرضي الله.

ابتسم غريب الهيئة لمَّا رأى نظرات الاستنكار تشع من عيني "المِجَري"، وقال:

- ألم تسمع أن محمَّدا قال إن الأنبياء إخوة لِعلَّات.. أمَّهاتهم شتَّى.. ودينهم واحد؟!

هزَّ "المِجَري" رأسه يمينًا و يسارًا بسرعة، يُعبِّر عن رفضه الشَّديد لما يقوله الرَّجل، الذي لا يتكلَّم، في هذه اللحظة، بما لا يرضي الله وفقط، وإنَّما، والعياذ بالله، يقول كفرًا.

خرج الكلام من تحت ضروس "المِجَري" عنيدًا جدًّا:

- ما فيش أنبيا بعد سِيدنا "محمَّد" صلَّى الله عليه وسلَّم.

ضحـك الرَّجل من غير أن يقهقه، فبدت أسـنانه ناصعة البياض، دقيقـة، مصفوفـة بانسـجام شـديد، وصار وجهـه مثل قمـر مكتمل البهاء، قال:

- نعم.. ليس بعد أخي "محمَّد" نبي مثله.

لـم يتخيَّـل "المِجَـري" وهـو النَّصـاب الخطيـر، الـذي يلعـب بالأعصـاب، ويحيـا بالمغامـرة، أنَّه مـن الممكن أن يمـر بمثل هذه اللحظـة المربكـة، التي فقـد فيها القدرة علـى الفهـم، وبالتَّالي فقد القدرة على اتِّخاذ أي رد فعل مناسب.

ودون أن يشـعر، وضـع يده علـى عرقوب قدم الرَّجل اليسـرى، وقال بصوت امتص ربكة اللحظة فاهتز:

- أنا مِش فاهم حاجه.

قال اللسان العربي الفصيح:

- مُنحـت النبـوَّة قبل أن يُمنحها أخي "محمَّـد"، مُنحتها قبل أن يُمنحها أخي "عيسى"، أنا نبي قبل أخي "موسى".

وصل عقل "المِجَري" إلى حالة الغليان، وشارف حد الانفجار، فراح يقهقه بجنون، كان يحاول وهو يقهقه أن يقول شـيئًا، لكنَّه كان يُوغـل أكثر فـي القهقهة، حتَّى إن دموعه انسـابت علـى وجنتيه إلى

ذقنه، أغرقت وجهه، وبدأت تقطر على صدر جاكت "الترينج" الذي يرتديه، وبالجهد الجهيد، استطاع أخيرًا أن يقول شيئًا، قبل أن يغرق مرَّة أخرى في الضَّحك المنفلت، قال:

– سلامة عقلك يا مولانا.

ظلَّ "المِجَري" طويلًا، يحاول فهم ما حدث بعد أن قال كلمته هذه فلم يفهم.

لقد وجد نفسه، فجأة، يُنتزع من فوق سجَّادة الصَّلاة، ويطير في الهواء، ثم يُلقى به على السَّرير الصَّاج المُفرد، والرَّجل يربض بركبته على صدره، وقد بسط أحد كفَّيه على عينيه، وأخذ يضغط عليهما، يمنعه من الرُّؤية، وحنجرته ترعد باللسان العربي الفصيح:

– ماذا ترى؟

كان "المِجَري" في حالة غيبوبة عن إدراك ما يجري، لكنَّه صرخ:

– ماذا أرى إيه؟!

جمع الرَّجل طرفي ياقة "الترينج" بيده الأخرى، وهزَّ رأس "المِجَري" بقوَّة، وقال بنبرة أعتى:

– ماذا ترى؟

لا يـرى "المِجَري" غير الظَّلام الذي انكبس في عينيه بفعل كف الرَّجـل الضَّاغطـة، حتَّـى إن ثقلهـا كاد يكتم أنفاسـه، فخرج صوته مخنوقًا:

- والله ما شايف حاجه.. إبعد إيدك عن عينيَّا خلِّيني أشوف.

لــم يبعد غريب الهيئـة يده عن عينـي "المِجَـري"، وإنَّما زاد من ضغطهـا، ليشـعر الأخير، بأن رأسـه سـيتطبَّق كعلبة صفيـح صدئة، وبينمـا يضيق خنـاق ياقة "الترينج" على رقبته، سـمع صوت الرَّجل عميقًا، بعيدًا، يكرر سؤاله الذي استعصت عليه إجابته:

- ماذا ترى؟

وبينمـا "المِجَري" يختنق، والظَّلام يتكثَّـف حوله، ويثقل، وماء غزير ينضح من مسام جبهته وصدره.

بينما "المِجَري" يغرق في لُجج الظَّلام.

بينما يشعر بدبيب الموت يسري في خلايا جسده.

إذا بالظَّلام ينشـق عن نور خاطف، مثـل إضاءة برق، نور اختفى بنفس السُّـرعة التي شقَّ بها السَّواد، وترك بقاياه وقد اتخذت شكل شـموس صغيرة، تكبر وتتسـع، لتتكشَّـف صحراء، منبسـطة، تمتد إلى غاية بصـر "المِجَري"، ثم تنبثق من قلب الصَّحراء أكمة، وعلى الأكمة تقف فرس عفيَّة، كحيلة، ينعكس نور الشُّموس على صفحة

رقبتها، وفخذها، وتشع غرَّتها بياضًا في منتصف جبهتها، تحمحم بالعز، وقد جلس على سرجها المفضَّض رجل يتلألأ في جبينه بدر مكمَّل.

"إيه دا؟! أي جمال جمال الرَّاجل دا؟! جمال مولانا نفسه ما يروحش شكَّه فيه"

وقبل أن يسأل "المِجَري" نفسه عمَّن يكون هذا الرَّجل، إذا به، وبأحلى صوت عربي مبين، يقول:

- أنا النَّبي لا كذب.. أنا ابن "عبد المطلب".

9

هل تصلِّي العصافير؟

لا بـد وأنَّهـا تصلِّـي. وإلَّا فما سـبب كل هـذه الشقشـقات التي تصدح بها عند شروق الشَّمس وعند الغروب؟!

وإذا كانـت كل عصافيـر العالـم تصلِّي، فلمـاذا توقفت العصافير التي تسكن هذه الشَّجرة عن الصَّلاة؟!

يا لـها من شجرة!

إنَّها تضرب في السَّماء لمسافة لا تقل عن عشرين مترًا، و محيط جذعها لا يقل عن أربعة أمتار، تسـكن بين أغصانها أمم من الطِّيور، غربـان، وقراديـن، وهداهـد، وآلاف مؤلَّفة من العصافيـر التي تعلو شقشقاتها على أصوات كل الطِّيور الأخرى.

لكنَّهـا، العصافيـر، توقَّفـت منـذ أيـام عـن شقشـقات الشُّـروق والغروب، توقَّفت عن الصَّلاة.

لماذا؟!

إذا كان ابن "آدم" يتوقَّف عن الصَّلاة لأسباب عديدة، يتعلَّق أغلبها بالخطيئة المشتهاة، فأي خطيئة التي يمكن أن تشتهيها العصافير فتتوقَّف من أجلها عن الصَّلاة؟!

10

ذاكرة الطُّفولة في قعرها ثقب واسع، تسقط منه كل الأحداث الصَّغيرة العاديَّة، بينما تنحشر فيه اللحظات العميقة، الكبيرة، فلا تسقط أبدًا، لكنَّها تبقى على حدِّ الألم، كلَّما ارتجَّت الذَّاكرة خدشها هذا الحدُّ، فتشع حيَّة، طازجة تمامًا، وكأنَّها لم تذهب بعيدًا في مجرى الزَّمن.

اختفت المرأة التي كانت تتسوَّل بها، لا تذكر "سوسن" سبب اختفائها، ما تذكره أنَّها صحت على صوت أذان الفجر كالمعتاد، الوقت الذي تستيقظ فيه هذه المرأة وتظل تبكي بكاءً حارًّا، فلم تجدها، ظنَّت أنَّها ذهبت لقضاء حاجتها، فعادت إلى نومها، وعندما فتحت عينيها مرَّة أخرى، كان النُّور يتسلَّل محشورًا من الباب الخارجي لهذا المنزل العتيق، ثم يستلقي على الجدران الكالحة، المنتصبة خارج هذا الجُحر الذي تنام بداخله.

خرجت إلى الزُّقاق، ملابسها الرثَّة تفوح منها رائحة العطن، وشعرها ملبَّد بحشرات القمل والصِّئبان، وجلست أمام البيت تنتظر عودة المرأة.

مضى اليوم، ولم تعد المرأة، وإنَّما عصر الجوع معدتها الصَّغيرة، فقامت تمشي إلى خارج الزُّقاق، أوَّل مرَّة تسير وحدها، مضت في حارات تعرفها، سلَّمتها إلى شارع واسع، ألقى بها في قلب ساحة المشهد الحسيني.

كانت تمضي ناحية طعام ما، أي شيء تضعه في بطنها يُذهب عنها هذا الألم، ورغم هذا العذاب إلَّا أنَّها، ولأوَّل مرَّة، منذ أن فقدت والديها، تشعر بشيء من الفرحة، إنَّها تمضي في الدُّنيا من غير امرأة تقودها إلى التسوُّل، ثم تبقى تئن في منتصف الليالي، وتبكي مع أذان الفجر.

وعندما صعب حالها على أحدهم، وأراد أن يعطيها قرشًا، رفضت أن تمد يدها، فوضعه في جيب مهلهل، ملطوع بملابسها المفتَّتة.

أوَّل قرش جاءها من باب الشَّفقة، وأن تقبل الشَّفقة هذا اليوم فلن تستنكر التسوُّل في يوم آخر.

لم تنسَ "سوسن" هذا القرش أبدًا، كان خفيفًا، وممسوحًا.

11

"أبو أميرة" في الخامسة والثَّلاثين من عمره، مواليد "طهطا"، إحدى مدن محافظة "سوهاج"، قمحاوي البشرة، ضيِّق العينين والجبهة، مفلطح الأنف، فمه واسع، وشفتاه ضخمتان، كأنَّهما شفتا إفريقي من "النيجر".

مواصفات رجل مكتمل دمامة الخلقة، لكنَّه، رغم ذلك، كان يبدو وسيمًا جدًّا.

لقد تغلَّب على هذه الدَّمامة بالأناقة، يهتم للغاية بمظهره ونظافته، لا يخرج مطلقًا من بيته إلَّا مرتديًا جلبابًا من القماش غالي الثَّمن، ولا بد أن يكون مكويًّا عند المكوجي الذي يستعمل المكواة "الرِّجل" الثَّقيلة، وعمامته لا بد وأن تكون مزهَّرة، ملفوفة حول أعلى رأسه بعناية فائقة، تقرص جبهته، يستنفد لفُّها وقتًا طويلًا أمام المرآة، ثم بعد أن يتأكَّد من تناسق هندامه يرش العطر الباريسي خلف أذنيه، وحول رقبته، وتحت إبطيه.

عطر باريسي.

من أجل ما سبق كان "أبو أميرة" محط تعجُّب جيرانه ومعارفه في "طهطا"، وكذلك محط تعجب زملائه من قائدي سيَّارات الأجرة في موقف "أحمد حلمي" بـ"القاهرة".

فالجيران والمعارف في "طهطا" لا يرون من حق سائق سيَّارة أجرة، أن يكون أنيقًا إلى هذه الدَّرجة، فلقد اعتادوا على أن سائق السيَّارة الأجرة رجل ليس من ضمن اهتماماته أن يكون مهندمًا، بل العكس هو ما تمَّ الاعتياد عليه، أن يكون حقير المنظر، تفوح منه روائح الجاز، والزَّيت، الخاصَّة بمحرِّكات السيَّارات، ممزوجة بروائح عرقه، مضافًا إليها رائحة عفنة تهب من فمه إذا تحدَّث، وكان هذا هو نفس ما يراه السَّائقون أنفسهم في "أحمد حلمي"، إنَّهم ينطلقون بالسيَّارات فتعصف بهم الرِّيح، ليغطي سفيف التُّراب ملابسهم، ثم إنَّ سيَّاراتهم كثيرًا ما تتعطَّل، أو تنفجر إطاراتها، على الطُّرق المقطوعة من الخدمات، ما يدفعهم لمحاولة إصلاح هذه الأعطال بأنفسهم، فيصيب الوسخ ملابسهم، لذلك يرون أنَّه ليس من الحكمة ارتداء ملابس فخمة، ونظيفة، أثناء القيادة، وكذلك كيف يمكنهم التعطُّر ببارفانات ستطيِّرها عواصف الرِّيح النَّاتجة عن انطلاق السيَّارات على الطُّرق السَّريعة؟!

لذلك، كان زملاء "أبو أميرة" يتعجَّبون منه، وكثيرًا ما نصحوه بأن يخفِّف من هذه الأبَّهة المكلِّفة، لكنَّه في كل مرَّة كان يجيبهم بإجابة واحدة:

- سمعت بوداني شيخ ف إذاعة القرآن الكريم بيقول انِّي في واحد من العُلما بتوع زمان قال "تَقَمَّشوا تهابكم الرُّجال".

وكان زملاؤه كلَّما سمعوه، وهو يحاول نطق هذه الجملة باللهجة الفصيحة يضحكون منه، وأحيانًا يمتد الأمر إلى حدِّ السُّخرية، فأحدهم ردَّ عليه ذات مرَّة قائلًا:

- مهما تقَمَّش القِرد برضو هايفضل قرد.

- القِرد دا يُقْبا ابوك يا بن الكلب.

كان "أبو أميرة" بالإضافة إلى تأنُّقه العالي، صاحب حس فكاهي عالٍ، وبديهة نشطة، ولأجل كل ذلك صار محبوبًا جدًّا، وظل بدوره يحافظ بحرص شديد على هذا الحب، فكان يتعمَّد أن يكون بشوشًا دائمًا، وأن يكون ابن نكتة طوال الوقت، وأن يبتعد، وهو مع النَّاس، عن تذكُّر هذا الهم المهول الذي يأكل روحه، ويُذيب قلبه مثل لهب يذيب شمعة.

كما أنَّه تمتَّع بميزة جعلته الأشهر بين كل سائقي سيَّارات "الميكروباص"، ودفعت أصحاب هذه السيَّارات للتهافت عليه، طالبين منه أن يقود سيَّاراتهم.

"الأمانة".

إنَّه أمين جدًّا، لدرجة أنَّه ما إن يتسلم السيَّارة من مالكها حتَّى ينسى أن للسيَّارة مالكًا سواه، فيأخذها فور استلامها إلى أحد محالِّ

الإكسسوار في مدينة "سوهاج"، محل شهير هناك عُلِّقت على واجهته المتَّسعة لافتة ضخمة تتلألأ ليلًا بالأضواء المبهرة، كُتب عليها: "إكسسوار السيَّارات المرفَّهة".

وهناك ليس عليه سوى الجلوس على كرسي صغير، مريح، ثم يأتي إليه أحد العاملين بكتالوج ضخم، فيه صور لسيَّارات "ميكروباص" مزيَّنة، وما إن يختار الشَّكل المطلوب حتَّى يجد الشِّيشة قد قُدِّمت إليه، ويظل، وهو يدخِّن باستمتاع شديد، يرقب سيَّارته وهي تتجمَّل رويدًا رويدًا، كعروس في كوافير.

ولم تكن الأمانة التي يتمتَّع بها "أبو أميرة" سببًا في أن السيَّارة التي يتسلَّمها تتحوَّل من مجرَّد سيَّارة عاديَّة، لا تلفت الأنظار، إلى السيَّارة الأجمل في كل موقف "أحمد حلمي" وفقط، وإنَّما سبب في تحول مالك هذه السيَّارة من رجل بلغ به اليأس منها درجة التفكير في بيعها، من طول الإنفاق عليها دون تحصيل ربح مقابل يغطي تكاليفها، إلى رجل يدخل جيبه مبلغ محترم كل أسبوع، يجعله يفكِّر في اقتناء سيَّارة أخرى.

لكن مقابل هذه الميزة الرَّائعة، التي يتمتَّع بها "أبو أميرة"، كان هناك ما يراه أصحاب السيَّارات عيبًا خطيرًا فيه.

"نَفَسُه القُصَيِّر".

إنَّه لا يعمر في قيادة أيٍّ سيَّارة لأكثر من بضعة أشهر، والسَّبب حبُّه للتغيير، خاصَّة إذا كانت السيَّارة المعروض عليه قيادتها بحالة الفابريقة، أي استعمال نظيف، لكن يسيل لعابه إذا كانت السيَّارة خارجة من المعرض، ليكون هو أوَّل مَن يركبها، في هذه الحالة يتحوَّل "أبو أميرة" إلى عاشق، ينسى كل ما في الكون حوله، ليمتلئ عالمه بهذه السيَّارة الجديدة، يطوف حولها وهو يتحسَّس هيكلها، يملأ عينيه بشكل إطاراتها، ثم يقترب جدًّا من أحد الإطارات، ويشد شهيقًا طويلًا على مهل، فيعبئ صدره بعبق الرَّائحة الطَّازجة للكاوتش، ثم يقبض على مصابيح الإشارات الخلفية ويهزّها ليتأكَّد من متانتها.

بعد ذلك يُقدِم على اللحظة الأجمل دائمًا في حياته المهنيَّة، لحظة فتحه لبابها والانزلاق إلى داخلها، ومن ثَمَّ الجلوس على كرسي قيادتها.

إنَّه يُقدِم على هذه الخطوة بتأنٍّ، وقد غطَّى وجهه وَلَه الدَّرويش المتعلِّق بمقام أحد مشايخه من الأولياء، يهمس:

- بسم الله.. بسم الله.. بسم الله.. يارب ادِّيني خيرها.. وابعد عنِّي شرَّها.

يجلس على الكرسي، عيناه ناعستان، تمسحان اللوحة أمامه، عدَّادات السُّرعة، والبنزين، نوافذ التَّهوية، الرَّاديو، ذراع ناقل

الشُّرعة، بينما يُدخل المفتاح برفق شديد في فتحة التَّشغيل، يديره وهو يبسمل، فينساب هدير المحرِّك مثل نغم النَّاي، وينسطل "أبو أميرة"، ويرمي رأسه إلى الوراء، ويغمض عينيه، تدغدغه المتعة إلى المنتهى، ثم، فجأة، يعدل رأسه وهو يزعق:

- أيوه قولي.. يا حلاوة كلامك.. يا قوَّاله.

يضع يده على ناقل الشُّرعة، يحرِّكه، بينما يضغط بقدمه على دوَّاسة البنزين، رافعًا الأخرى عن دوَّاسة بدء الحركة، ليبدأ في ارتشاف اللذة العظمى بالنِّسبة له، قيادة سيَّارة لم يقدها أحد من قبله، سيَّارة عذراء عفيَّة، ستتفنَّن في إظهار كل إمكانياتها له، يشعر بها تنساب مع مناوراته بها، وكأنَّها تراقصه، ويسمعها تهمس له:

- بحبَّك.

تدوِّخه النبرة الهيمانة، فيميل برأسه إلى الأمام، ويقبِّل أوسط مقودها، ويهمس همس العشَّاق:

- أحلف يمين الله لتعيشي معايا أيَّام سعدِك وهناكي.

مُغرم "أبو أميرة" بحب السيَّارات الجديدة، لكن ما إن تمر على قيادته، للواحدة منها، بضعة أشهر، حتَّى يغلبه طبعه، فتهفو نفسه إلى التَّغيير، لتصير بعد ذلك أي سيَّارة، وإن كانت قديمة، قادرة على إغوائه.

وكانت السـيَّارة "الـميكروباص"، رقم "345678، أجرة أسيوط"، سـيَّارة جديـدة، ما زال "أبو أميرة" يعيش معها شـهر العسـل، لكنَّه، وعلـى غير عادته، لـم يكن سـعيدًا معها أبدًا، والسَّـبب وجيه للغاية، من وجهة نظره بالتَّحديد.

فمـا إن قضـى أول رحلـة سـفر إلـى "القاهـرة"، وعـاد بهـا إلى "طهطـا"، حتَّـى ركنها أمام بيته، كان ذلك فـي إحدى ليالي "يناير" البـاردة، وكان نهـارُ غدٍ سـوف يحمل إليـه النَّبأ العظيـم، النَّبأ الذي سيصبغ حياته المستقبَلة بأحد لونين: أبيض، أو أسود.

لذلك، ليلتها نظر إلى السيَّارة طويلًا قبل أن يعطيها ظهره ليدخل بيته، وهمس:

- مشـوار بُكره أهم مشـوار ف حياتي يا ست الحسن.. وقَدَمِك هايبان.. يا قَدَم سعد.. يا قَدَم...

12

أن يُمَكِّن عسكري "التَّحويلة" أكثر من ثلاثين ضابطًا من الاتِّصال بذويهم متى شاءُوا ليس أمرًا شاقًّا وحسب، وإنَّما مستحيل؛ لأن الخط دائمًا في حالة انشغال، ولا يستطيع أي ضابط أن يكلِّم أحدًا يهمُّه في عالم المدنيَّة وقتما يريد بالضَّبط، وإنَّما يمكنه، إذا أراد أن يحقِّق اتصالًا ما في السَّاعة السَّابعة مثلًا، أن يبدأ في طلب الخط من السَّاعة الخامسة، وحتَّى هذا لا يُحقِّق الهدف غالبًا، فتحدث على "التَّحويلة" حالة من العشوائيَّة الاتِّصالاتيَّة المربكة.

يصرخ ضابط برتبة نقيب:

- فين الخط؟!

- يا فندم الخط مع الرَّائد...

"الرَّائد" رتبة أعلى، فيسكت "النَّقيب".

يصرخ ضابط رائد:

- فين الخط؟!

- يا فندم الخط مع العقيد...

"العقيد" رتبة أعلى، فيسكت "الرَّائد".

يصرخ العقيد:

- يابني فين الخط؟!

- سعادتك الخط مع النَّقيب "حسن".

"النَّقيب" رتبة أقل، فلا يسكت "العقيد".

- نقيب مين دا كمان!؟ أنا يا بني العقيد "تيمور".. وصَّللي الخط بسرعه.. أحسن تلاته بالله العظيم أحاكمك محاكمه عسكريَّه.

في مثل هذه الحالة يمكن لعسكري "التَّحويلة"، غير المتمرِّس، أن يرتكب حماقة كبيرة، إذ إنَّه ما إن يسمع كلمة "محاكمة عسكريَّة" حتَّى يركبه الهلع، فيفعل مثلما فعل العرِّيف مجنَّد "رمضان صدِّيق"، الذي سارع بتوصيل "الكوردة" في خط النَّقيب "حسن" وهو يكلِّم زوجته، ودخل عليه وهو يقول لها:

- قميص النُّوم الأسود.. أبو فتحه ع السُّره.

كان النَّقيب "حسن" مندمجًا بكامل أحاسيسه مع زوجته، التي غاب عنها لأكثر من عشرين يومًا حتَّى هذه اللحظة، وكان يُعِدُّها للقاءٍ قريبٍ سيتم بعد يومين، يُطلق هيجانها بمثل هذا الكلام المنفلت، وكان ينتظر رد زوجته بخصوص فكرة انتظاره بقميص النَّوم الأسود ذي الفتحة المثيرة على سرَّتها، عندما فوجئ بصوت

غشيم، مرتبك، يقفز إلى أذنه:

- ياللا يا فندم خلَّص بسرعه.. العقيد "تيمور" عاوز الخط.

ولأن مـا حـدث مهين جـدًّا للنَّقيب "حسـن"، علـى الأقل كونه جـرى بمسـمع مـن زوجته، فـكان لا بـد مـن رد الإهانة بأسـرع ما يمكـن، وبأقوى ما يمكن، وفي اللحظة، بدون أي تأخير، وبمسـمع من زوجته أيضًا.

- اطلع م الخط يا عسـكري يا بن الكلب... ينعل سنسفيل أبوك لابو العقيد "تيمور" بتاعك.

سحب "رمضان" الكوردة من خط النَّقيب "حسن" وهو مرعوب، وزاد رعبه لمَّا وجد لمبة العقيد "تيمور" تومض ومضات متشـنِّجة، مـا يعني أن العقيد "تيمور" يسـتعجله في طلب الخط، وكان مكتوبًا في صحيفة "رمضان" أن يتبهدل وقتها.

- أيوه يا فندم.. سـيادة النَّقيب "حسن" مراضيش يسيب الخط.. عايكلم أهل بيته يا فندم.

- قولتله ان العقيد "تيمور" عايز الخط؟

- قولتله يا فندم.. بس هُوَّ عايكلم الجماعه بتوعه يا فندم.

- اسحب الخط حالًا من عنده وهاته عندي..

- يا فندم....

كادت السَّماعة تتمزَّق من صراخ العقيد "تيمور":

- هاحاكمك يا عسكري يا "..."

وكانت كلمة "هاحاكمك"، حتَّى من غير زعيق، كافية كي يجذب "رمضان صدِّيق" كوردة الخط من النَّقيب "حسن"، ويقوم بتوصيلها للعقيد "تيمور" فورًا.

لقد سمع النَّقيب "حسن" صوت الصَّمت المكتوم يفاجئه بقطع تأوه ساخن لزوجته المشتاقة لوصاله.

ما حدث كان فوق احتمال النَّقيب "حسن"، فألقى السمَّاعة بعيدًا، قبل أن يفتح باب "مبيته" بمنتهى العنف، ويخرج بملابسه الدَّاخلية، ويهرول، قاطعًا المسافة التي تزيد على مئتي متر بين "مبيته" ومركز "التَّحويلة"، كأنَّه كتلة نار تتدحرج على الأرض، ثم يدفع باب المركز بقدمه العارية من أي نوع من أنواع الأحذية.

صوت ارتطام الباب بالحائط كان مدويًا، وزعيق النَّقيب "حسن" هادرًا:

- يا عسكري يا بن الـ "..." بتسحب الخط منِّي وانا باتكلِّم؟!

طبيعي أن يلتفت "رمضان" خلفه بمنتهى السُّرعة، التي يدفع إليها منتهى الرُّعب، فرأى ما انتزع قلبه، وأوصله إلى مشارف الغيبوبة.

النَّقيب "حسن"، الذي لم يره "رمضان" من قبل سوى مرتدٍ بزَّته العسكريَّة، شبه عارٍ، يتقدَّم ناحيته بسرعة شبح، وملامح غول، وغضب شيطان، ثم يمد يدين كخفَّي جَمَل، قبض بهما على ياقته، ثم انتزعه من على كرسيِّه، ودفع به إلى الحائط، ليرتطم به مثل دمية مطاطيَّة، لا تملك من أمر نفسها شيئًا.

– أنا مش بدوَّر مكاتب يا نينِّي عيون امَّك.. أنا أعرف آخد حقي بإيدي كويِّس أوي.

ولم ينصرف "النَّقيب" قبل أن يطحن "العرِّيف" مجنَّد، لكنَّه لم يجرؤ أبدًا على انتزاع كوردة توصيل خط "السِّنترال" من مكانها في خط "العقيد"، وبقيت تُوصل، بمنتهى السلاسة ووضوح الصَّوت، كلام "العقيد" للطرف الآخر على الخط في الحياة المدنية.

لكن العرِّيف مجنَّد "ياسر المبروك" ما كان ليقع في مثل هذا الخطأ الفادح، فإحساسه العالي بكرامته يجعله، في كل الأحوال، يُدرك أن للآخرين كرامة أيضًا، وأن كرامته ستصان طالما هو يصون كرامة الآخرين، بالإضافة لهذا كان "ياسر" يتمتَّع بصفة ثانية جعلته محبوبًا جدًّا.

خفَّة الدَّم المنضبطة.

كان يستطيع، بخفَّة دمه المنضبطة هذه، الإفلات من الأزمات

التـي تدحرجهـا ناحيته حماقـات الآخريـن، ولقد تكـرَّر معه نفس الموقف الشَّـائك الذي تعرَّض لـه العرِّيف مجنَّد "رمضان صدِّيق"، ومـع نفس العقيـد "تيمور"، الذي طلب الخط فـورًا، وكان الملازم أوَّل "عبد الحكيم خفاجة" هو، هذه المرَّة، مَن يشغل الخط.

قال "ياسر" بهدوء شديد، مخاطبًا العقيد "تيمور":

- تأمر سـعادتك يا فندم.. فورًا الخط يكون مع سـعادتك بعد ما يخلَّص سيادة الملازم أوَّل "عبد الحكيم" المكالمه بتاعته.

لكن صوت العقيد "تيمور" جاء ممزوجًا بنبرة غضب:

- يـا بني مـلازم أوَّل إيه ولا بتاع إيه؟! أنا العقيد "تيمور".. هات الخط بسرعه.

وكرَّر، ماطًّا صوته الأجش:

- أنا العقيد "تيمووووور".

حمَّل "ياسـر المبـروك" صوته قـدرًا كبيـرًا من الجدِّيـة والحزم العسكري، قبل أن يقول:

- سـعادتك يـا فندم أشـهر من نار علـى علم.. وكلِّنـا ف الفرقه بنتعلَّـم من حضرتك الـذوق والمفهوميَّه.. يا ريت سـعادتك تدلِّني على طريقه أسحب بيها الخط م الرَّاجل وهو بيكلَّم أهل بيته.

للحظات ساد فيها صمت ثقيل، وبدا أن العقيد "تيمور" قد فوجئ، لكن جاء صوته أخيرًا:

- إنت اسمك إيه؟

كانت لحظة حرجة بالنِّسبة لـ "ياسر"، فهذا السُّؤال عندما يُوجَّه من رُتبة في الجيش، أي رُتبة، وفي مثل هذا الظَّرف، إلى مجرَّد عرِّيف مجنَّد، فهذا لا يعني سوى أن مشكلة كبيرة تلوح في الأفق، قد تتسبَّب في تدويره لمكتب قائد الفرقة.

والتدوير لمكتب القائد شيء في حد ذاته مهين، فهو يعني أنَّه لا بد وأن يتخلَّى عن هندامه العسكري الرَّصين، فيُخرج أطراف أفروله من تحت حزام البنطال، وينزع عن رأسه الكاب "الميري"، ليمشي في حراسة أحد العساكر إلى مكتب القائد، ليتلقَّى هناك عقوبة ما، عقوبة عسكريَّة لن يستطيع التظلُّم منها، وغالبًا ما ستكون الحبس داخل سجن الفرقة.

رغم ذلك احتفظ "ياسر" بكل هدوئه، وقال:

- عرِّيف مجنَّد "ياسر مبروك خليل" يا فندم.

- بعد ما يخلَّص "عبد الحكيم" باشا "خفاجه" الخط وصَّلهولي بسرعه.. هِه.. بعد ما يخلَّص طوَّالي.. وإلَّا هاحاكمك.

قالهـا العقيـد "تيمـور" وأنهـى الاتِّصـال، وأنهى "ياسـر"، بهذا الأسلوب الرَّشيق، أزمة كادت تندلع.

لكن كل ما في جعبة "ياسـر مبروك" من رشـاقة أسـلوب، وخفَّة دم منضبطة، وحزم عسـكري، لـم يفلـح في كبح جماح العقيد "هاني علي الدِّين"، الرَّاغب بشهوانيَّة فائقة في بهدلة كرامة الآخرين.

وها هو بهدوء شديد، كأنَّه يُقدِّم أجمل التحيَّات، يقول لـ"ياسر" عبر السمَّاعة:

- هات الخط يا بن الـ"..."

صـارت كرامـة "ياسـر مبـروك"، التـي حافـظ عليها طويـلًا في المكانـة التي تليق بها من روحه، على المحك، وكأنَّه رآها تتدحرج نـحو السُّـقوط، وكان يؤمن أن الكرامة كإناء زجاجي، إذا سقط حتمًا سيتهشَّـم إلى مائة شـظية، ليصبح أي أمل فـي إصلاحه هو من قبيل المستحيل.

13

أفلـت رقبتـه تحـت السُّـور الكالـح لجامـع "الأزهـر" العتيـق، فـي منطقـة معزولـة عـن البشـر، لكنَّها ليسـت بمعزل عـن صخب ازدحامهم، فعشـرات من مكبِّرات الصَّوت تعمل في نشـر الضَّجيج بمنتهى الجد.

اختلاط الحلم بالواقع، الهلوسـة بالتعقُّل، يفرض على الإنسـان حالـة مـن المفاجأة ذات الصَّـدى الدَّائم، تعقد اللسـان فترة طويلة، من أجل ذلك ظل "رشـيد الطِّماوي" صامتًا منذ أن بدأ رجل القصر يسحبه، كما يسحب بقرة، وحتَّى أفلته.

سمع صوتًا عميقًا، عذبًا، لم يسمع مثيله من قبل، يقول:

- المخلوق ظلم خالقه.

كلام مسـتفز، لكنَّـه لا يعـرف إن كان يحلـم أم أنَّه يحيـا في هذه اللحظة واقعًا غريبًا.

"ازَّاي مخلوق لا حول له ولا قوَّة ممكن يظلم صاحب الحول والطَّول والقوَّة؟!".

- منحك العقل لتفهمه.. فأغلقت العقل لتظلمه.

كان هـواء يخبـط في الجدار العالي لجامـع "الأزهر" فيصنع في أساسه دوَّامة صغيرة، تُطيِّر أوراقًا مهملة، وترابًا سفيفًا.

- عندما تُمنح الجوهرة.. فتضعها على الأرض بين اللصوص.. لترفع كفَّيك شكرًا للمانح.. فيسرق اللصوص جوهرتك.. أنت إذن المخطئ.. لا المانح.

واسـتدرك صاحب العمامة الخضـراء، وقد نكت عينيه في عيني "رشيد":

- تمام الشُّكر أن تقبض بيدك على ما مُنحته.

ورغم أن كلام هذا الرَّجل ينفي مسؤولية الله عن حزنه، ويحمِّلها له هو شخصيًّا، إلَّا أن ثمَّة شعورًا بالرَّاحة بدأ يتنامى في داخله، كل ما هو معقول مريح، ولو أنَّه بقي محتضنًا "زينب" ما ضيَّعها الزِّحام.

- تعالَ.

يده في يدٍ كبيرة، باردة بَرَد السَّلام، يمضي به الرَّجل الغريب نحو البـاب الكبير لمسـجد "الحسـين"، المئذنة الرُّمح في كبد السَّـماء، والبشر نمل، وصاجات تطرقع.

- كانـت تجلس هنا.. عيناك أصابت عينيهـا ولم ترَها.. ما ذنب الله وأنت الذي سلَّمت نفسك لعماء الحزن.. فلم تُبصر؟!

"لم أبصر!".

قال اللسان العربي الفصيح:

- تخطئ يا بن "آدم" عندما تبحث عن الهيئه التي تعرفها.. ما تبحث عنه قد يتشكَّل في هيئات أخرى.. ابحث عن الجوهر.

استدرك:

- تعالَ.

عاد به إلى أمام السُّرادق الذي كان يتطوَّح فيه منذ قليل، ووقف مشيرًا إلى مكان في الزِّحام، وقال:

- منذ دقائق كانت تقف هنا.. مَن يتربَّص بالهدف يا "رشيد" لا يُطوِّح تركيزه.

"كانت هنا!؟".

انشق قلبه بألم عظيم، ألم فوق الاحتمال، وسمع صوته الصَّدئ، يخربش بين شفتيه:

- ما حدِّش بياخد غير نصيبه.

- تعالَ.

دخل به السُّرادق، كانت الأجساد ما زالت تتطوَّح وقد غابت عنها العقول، العيون مسبلة، الأفواه ترش اللعاب، أوقفه في مكانه

الذي كان يتطوَّح فيه، كانت عينا الرَّجل حمراوين بالغضب، وسمع "رشيد" صوته المزمجر صافيًا رغم الضجيج:

- بقدر عقلك يكون نصيبك.

14

رأى "حميـد المِجَري" نفسـه وهو يحاول الاقتـراب من الفرس التي تمتطيها الحضرة المحمَّديَّة، أنفاسـه منبهرة، لا يصدِّق أنَّه يقف وجهًا لوجه أمام رسول الله "محمَّد".

هامة الفرس شـامخة، وقلقة، لا تسـتقر حوافرها، وإنَّما تنغرس فـي رمال الأكمة، ثـم لمَّا ترفعها يثور غبار خفيف، ونور الشَّـمس الصَّغيـرة، التـي في جبين رسـول الله "محمـد"، يملأ الرُّؤيـا، بينما صوت، بلسـان عربي فصيح، ينساب خافتًا من بعيد، من بعيد جدًّا، كأنَّه يأتي من عالم آخر:

- ماذا ترى؟

- شايف حصان راكبه نبينا "محمد"!

رفـع الرَّجل يده عـن عيني "المِجَري"، وحـرَّره من ضغط ركبته علـى صدره، لكن "المِجَـري" رغم ذلك ظل منسـدحًا على ظهره، عيناه مفتوحتان، تخرقان الفراغ بذهول يليق بهول ما تريانه، وساقاه تبديان الرَّغبة في الحركة، لكن ثمَّة ما يقيِّدهما.

كان رســول الله يدعوه للاقتــراب، وهو يحاول الدُّنــو، لكنَّهما، قدماه، كأنَّما انغرستا في الأرض مثل جذور شجرة "سدر".

وبينما الرَّســول يرخي لجام الفرس القلقة، مدَّ يده الشَّريفة، يريد مصافحة "المِجَري"، لكن "المِجَري" رأى من أمر نفسه عجبًا.

رأى يده لا تســتطيع الحركة، لا تمتد نحو اليد الشَّــريفة، فما كان من رسول الله إلا أن نخس الفرس بقدميه في جنبيها لتنطلق، ورآها تصهل، وتطير في الفلاة، ورأى نفسه يزعق منتحبًا:

- يا حبيبي يا نبي.. أنا نصَّاب.. وكمان بتاع نسوان.

لكن تردَّد في فضاء الفلاة صوت الهيبة الفتَّان:

- الزم أخي.. الزم أخي.

النُّــور يخفت، والأكمة تختفي رويدًا رويـدًا، قبل أن يحل ظلام ســريع، وصوت الحضــرة المحمَّديَّة يتــردَّد في قلبــه: "الزم أخي.. الزم أخي".

وفتح "المِجَري" عينيه بوهن، مثل مريض يفيق من بنج الجراحة، فطالعــه وجــه الرَّجل ينظر إليه مبتســمًا، لكــن، وكأن حيَّة "الكوبرا" لدغتــه، قفــز "المِجَــري" مــن السَّــرير إلــى الأرض، فضربــت قدمه صينيَّة الشَّــاي المزركشة برسومات "الأرابيسك"، لينقلب الكوبان،

ويتناثر الشَّـاي، الذي لم يكن "المِجَري" قد شربه بعد؛ على سجَّادة الصَّلاة.

وقـف "المِجَـري" بين يـدي غريـب الهيئة، الجالـس على حافَّة السَّرير، لـم يحر كلامًا، وكان الرَّجل ينظر إلى وجهه نظرة محبَّة.

- النَّبي.. صلَّى الله عليه وسلَّم.. قاللي الزم أخي.. يعني إيه؟!

قال الرَّجل:

- يأمرك بأن تبقى معي.

- بـس انـا يعنـي أعـرف إن النَّبـي.. صلَّـى اللـه عليـه وسـلَّم.. ما عندوش اخوات.

قالهـا "المجـري" وهو يرمـق، بطرف عينـه، وجـه الرَّجل الذي يحدجه بنظرة ثابتة، قال:

- يا "حميد".. قال لك "محمَّد": الزم أخي..

اصطنـع "المِجَـري" التَّشـاغل بتنظيف سـجَّادة الصّـلاة من أثر انسكاب الشَّاي عليها، ثم سأل:

- طيِّب يا سيدنا.. انت نبي اسمك إيه؟

أجاب الرَّجل ببساطة:

- أنا "صُنع الله".

بسـمة خفيفـة، مطهَّمـة بالسُّـخرية، طفـت على جزء من شـفتي "المِجَري"، خبأها في انكفاءة وجهه نحو الصينيَّة المزركشة، ولولا ما رآه من قدرات الرَّجل لأطلق العنان للقهقهة، قال لنفسه:

"صُنـع اللـه !؟ فـي نبي ف الدُّنيا يبقى اسـمه صُنع الله ؟! نبي مين دا اللي ما سمع بيه نصارى ولا يهود ولا مسلمين !؟".

اخترق صوت "صُنع الله" طبلتي أذني "المِجَري":

- منهم مَن قصصنا عليك ومنهم مَن لم نقصص.

كان "المِجَـري" قد انتهى مـن تنظيف السـجَّادة، فاعتدل واقفًا، وقال:

- يعني إيه يا مولانا؟!

- هـذا مـا قاله "محمَّد" في القرآن.. يخبـرك أن الله عزَّ وجلَّ قد حكى له حكايات بعض الأنبياء.. ولـم يحكِ له عن الآخرين.

قال "المِجَري" وقد شعر أن عقله أُنهك تمامًا:

- وانت يا مولانا من الأنبيا اللي ربُّنا ما حكاش لينا قصصهم؟

ابتسم، "صُنع الله" وقال بتأنٍّ:

- لا.. حكاهـا عـز وجـل.. لكنَّـه لم يذكر اسـمي.. أنـا من علَّم الأنبياء.. وأمري عند ربي عزيز.

بـدا أن "المِجَـري" ليـس على ما يُـرام، يقف مثل إنسـان عليل، الصِّينيَّة المزركشـة تهتز بين أصابع يديه المرتعشتين، فـ "المِجَري" أدرك، ولأول مرَّة، أن ما يراه، ويسـمعه، ويحياه، في هذا الوقت هو وقائع أغرب من الخيال، وأعجب من أي تصوُّر.

"دا معقـول ؟! نبـي بلحمه ودمُّه قاعد قدَّامي على السِّـرير ؟! نبي في الزَّمن دا؟!".

شـعر في هذه اللحظة بأنَّه يشتاق لشيشـته، وأنَّه يتلهَّف للخروج من هذا العالم الذي يحيط به، ويخنقه خنقة مائة "بوكس" شرطة.

"ونبي إيه بأه اللي مش بيموت أبدًا!؟".

تحـرَّك ببـطء ناحية بـاب الحجـرة، وبينما إحدى قدميـه لم تزل داخلهـا، توقَّـف، وأمعـن النَّظر في زركشـات الصِّينيَّة، كان سـؤال ساذج قد بدأ يلعب في رأسه:

"وهُمَّا الأنبيا بيشربوا شاي "كريمه" السِّيما التُّركي ازَّاي؟!".

15

في موقف "أحمد حلمي" بـ"القاهرة"، و"أبو أميرة" يحاول جاهدًا غلق باب السيَّارة، قبل أن يبدأ رحلة السَّفر، كان الرَّاكب الذي يجلس مجاورًا للمرأة التي تحمل الطِّفل، يراقب ما يحدث بتركيز شديد، الباب الذي لا يريد أن ينغلق، رغم أنَّه لا شيء هناك يمنع انغلاقه.

"الباب عِنْدِيه حَدِيت عاوز يقوله".

تقلَّصت وجنتا "خميس"، فصارت ملامح وجهه مثل ثعلب ينتبه فجأة لخطر ما، والحقيقة أن وجه "خميس"، حتَّى من قبل أن تتقلَّص وجنتاه، يشبه وجه الثَّعلب فعلًا، جبهة مسطَّحة، وعينان حذرتان ضيِّقتان، وأنف طويل مرتفع، ثم في الأسفل، بعيدًا عن الأنف، يوجد فم واسع، التصقت على حافتيه شفتان رهيفتان، أعلاهما نبت شارب دقيق، خفيف، أخذ شكل الخط المستعرض.

وعندما وصل الأمر بـ" أبو أميرة" إلى دفع وجذب الباب بشكل هيستيري، ورَجِّ السيَّارة بعنف لا يقصد حل المشكلة بقدر ما هو

فش قهر، فهم "خميس" الرِّسالة التي يريد أن يقولها باب السيَّارة.

هذه السيَّارة ستتعرض لحادث، ولن يكون حادثًا عاديًّا، وإنَّما بشعًا، لدرجة أن أرواح الركَّاب لن تنسل انسلالًا، عند خروجها من أجسادهم، وإنَّما ستفر هلعًا.

هذا ما يريد أن يقوله الباب المسمَّر، على حد فهم "خميس"، الذي كان كافيًا لدفعه إلى القفز خارج السيَّارة هربًا بنفسه من هذا المصير المرعب، لكنَّه لم يفعل، بل، وبهدوء شديد، أراح ظهره إلى مسند الكرسي، ومد ذراعيه إلى عمامته غير المهندمة وضغطها على رأسه، ثم أعاد ذراعيه إلى جانبيه، وشبَّك أصابع يديه في حجره، وبدا أنَّه سلَّم روحه للموت في طواعية تامَّة، وبكامل الرِّضا.

وعندما انغلق باب السيَّارة أخيرًا، وجلس "أبو أميرة" إلى كرسي القيادة، وحاول تشغيل المحرِّك فلم يشتغل، أيقن "خميس" أن ما فهمه من تربسة الباب في محله، وها هو المحرِّك يقول نفس الكلام، فابتسم ابتسامة صفراء، محافظًا على نفس الهدوء المنضبط.

16

السَّـاعة الثَّامنـة صباحًـا، تحويلـة قيـادة الفرقـة العاشـرة مشـاة ميكانيكـي هادئـة تمامًا في مثل هذا التَّوقيـت، الصَّحراء تتلوَّن بلون الذَّهب السَّـاقط من نور الشَّـمس الصَّباحي، وثمَّة عساكر ببذلاتهم "الميري" المموَّهة يمشون في المسافات المترامية بين عنابر الفرقة، والعرِّيف مجنَّد "ياسـر المبروك" يجلس مشـدوهًا أمام "التَّحويلة"، والسمَّاعة على أذنه.

لـم يسـمع، العقيـد "هانـي" ردًّا، فقال بنفـس الهـدوء المهيمن بجبروت الرُّتبة:

- إيـه؟! موش عاجبك يا بن الـ "..."؟ طيب خلِّيها هات الخط يا بن الـ "..."

رأى "ياسـر" كرامته تتدحرج رويدًا نحو السُّـقوط، فشعر ببوادر اختناق، وأخذ الصَّوت البارد للعقيد "هاني" يدوِّي في رأسـه كرجع صـدى في قصف رعـد، بللـورات عرق بزغـت فجأة علـى جبينه، وصوت طبل يدق تحت ضلوعه، وسـمع صوتًا بعيدًا، كعواء ذئب،

ينبثق من السَّماعة التي التصقت بأذنه:

- إيه؟ موش عاجباك دي كمان.. طيب إيه رأيك فِ هات الخط يا "..." امَّك.

مستحيل، مستحيل أن تنطفئ الشَّمس فجأة، لكن "ياسر" رأى الدُّنيا وقد أظلمت فعلًا في السَّاعة الثَّامنة صباحًا، وشم رائحة احتراق قلبه، وسمع صوت تحطُّم زجاج، وشعر بأجنحة روحه وهي ترفرف بقوَّة، تريد أن تخرج من فمه وتطير، ثم رأى ما طيَّر عقله، ورماه في فيافي الجنون.

رأى أمَّه عارية تمامًا، تحت نخلة سامقة، تتمرَّغ في طين حقل قمح، بينما تصرخ صرخات هيستيريَّة، وكلب أسود ينشب مخالبه وأنيابه فيها، ويُقطِّعها.

ضرب الدَّم الحار عيني "ياسر"، وسمع صوت نفسه وهو يتخبَّط في ظلام مكتوم، يصرخ بصوت مبحوح:

- سيادتك اللي ابن "..."، وسيادتك اللي ابن "..."، و"..." ام اللي جابت امَّك..

17

شعر "أبو أميرة" برعشة تهز ذراعيه، رعشة قويَّة، درجة أنَّه أحسَّ للحظة بأنَّه يفقد السَّيطرة على عجلة القيادة.

ما حدث كان مرعبًا فعلًا.

كانت الشَّاحنة على وشك أن تدهسهم، ليموتوا ميتة بشعة، كل هذه الأجساد البشريَّة المركَّبة بنظام ربَّاني بديع كانت ستتمزَّق إلى نتف لحم، والسيَّارة "الميكروباص" كانت حتمًا ستتطبَّق، من قوَّة الاصطدام، لتصبح مثل علبة سجائر فارغة، عصرتها أصابع قرفانة، وسيتحوَّل صاجها، وحديدها، وزجاجها المتهشِّم، إلى أدوات تمزيق قطَّاعة، تمزِّق الأرواح، ولم يكن هناك شك في أن الدِّماء الفائرة كانت ستخر مثل ماء السِّيول من الشُّروخ الكبيرة في أرضيَّة السيَّارة.

كان الموت سيضرب بأجنحة جبَّارة، لو لا أن "أبو أميرة"، وفي آخر لحظة، أفاق على التلويحات المتشنِّجة لذراع هذا الرَّجل، غريب الهيئة، الذي كان جالسًا على مصد الشَّاحنة، تطيِّر الرِّيح

لحيتـه، بينما يلوِّح بذراعه مشـيرًا نحو الجهة التـي فيها المهرب من الموت.

ولقد أفلح "أبو أميرة" في الهرب مع ركَّابه من الموت، واسـتمر لدقائق، بعد مرور هذه الحادثة بسـلام، يسـيطر علـى أعصابه، لكن الشَّـيخ الأزهري والقسِّـيس أربكاه تمامًا، عندما أكَّدا على أنَّهما لم يريا ما رآه، وأصرَّا على أن ما يقول إنَّه رآه هو مستحيل.

ما رآه بالفعل هو أقرب إلى المستحيل، وحاول أن يتمالك نفسه، لكن ارتعاشة ذراعيه كانت تشتد.

فجأة زعق "أبو أميرة" وهو يضرب بقبضة يده اليمنى قلب عجلة القيادة:

- عليَّا الطَّلاق بالتَّلاته كان فيه واحد بعمَّه خضرا.. ودقنه طولها طول ابويا وامِّي.. قاعد على اكصدام التِّريلّه!

عادة، هناك وجوم يسـيطر على المسـافرين، أي مسـافرين، وفي أي وسيلة سفر، يهيمن عليهم حدَّ أن الكثير منهم يضطر إلى الهرب منـه بالنَّوم، بينما يبقى البعض يحـاول التغلُّب عليه بقراءة الصُّحف أو الكتـب، وبعضهم يسـرح ببصره في الصُّـور الطبيعيَّة التي تجري خلـف النَّوافـذ ولا يراها، بقدر ما يرى صـورًا أخرى متحركة خلف ذاكرته.

كانت كل أصناف الوجوم قد أصابت ركَّاب السيَّارة "الميكروباص"، رقم "345678 أجرة أسيوط"، قبل أن يسمعوا "أبو أميرة" يتكلَّم عن رجل بعمامة خضراء، ولحية طولها طول أبيه وأمه، فأُضيف إلى الوجوم رعب له رائحة الدَّهشة.

وأخذ "أبو أميرة" يسأل نفسه بإلحاح:

- أَنِي شُفت ابو عمَّه خضرا دا فين قبلِ كْدِه؟!

18

"البدايات" لا تُنسى، "الرُّؤوس" دائمًا بارزة، و"أوَّل مرَّة" هي البوَّابة التي تعبر منها "المرَّات" المتتالية.

تتذكَّر "سوسن" أنَّها كانت لم تزل طفلة بعد، في العاشرة من عمرها، أو الحادية عشرة، لا تتذكَّر كم كان عمرها بالضَّبط، فأبناء الشَّوارع لا يهمهم هذا الأمر بقدر ما يهمهم الحصول على الطَّعام، والاطمئنان إلى عتبة مسجد، أو زاوية حارة، أو أسفل كوبري، أو تحت شجرة في حديقة مهملة، كمكان للنوم ليلًا.

لكنَّها متأكِّدة من أنَّها كانت لم تزل طفلة، والليلة من ليالي "يناير"، والصَّقيع محتدم، وهي متكوِّرة حول نفسها، في ركن داخل الممر المؤدِّي إلى ميضأة مسجد "السِّلحدار" بشارع "المعز"، ترتعد كأن كهرباء تصعقها، وبعد أن بقيت أسنانها تصطك طويلًا، توقَّفت عن الاصطكاك تمامًا، وتضاغطت ببعضها، وصار مستحيلًا عليها تحريك فكِّها.

شعرت أنَّها تموت.

عَكَس الظِّل المتحرِّك في نور خفيف، ينداح من الشَّارع، صورة قطَّة تتحرَّك ببطء متَّجهة إليها، ثم رأت القطَّة تمر بجوار رأسها الذي انغرس بين كتفيها المرتعدين، نظرت القطَّة ناحيتها، فسطعت عيناها ببريق أصفر، قبل أن تُدير وجهها، وتواصل حركتها باتِّجاه الميضأة.

تمنَّت لو أن هذه القطَّة تأتي وتنام على كتفها، أو خلف ظهرها، أو بين رجليها، أو حتى فوق رأسها.

رأت ظلًّا آخر يعكس صورة إنسان، واحد قصير، نحيف، كان الظِّل منكمشًا على نفسه وهو يتحرَّك في اتِّجاهها، وأخيرًا ظهر صاحب الظِّل، لم تستطع تبيُّن ملامح وجهه، لكن حجم جسده ينبئ عن أنَّه طفل.

كأنَّه فوجئ بوجودها، فلقد توقَّف فجأة، كان يرتعد هو الآخر، ثم أخذ يفرك يديه بقوَّة بين ساقيه، وخرج من بين شفتيه صوت مرتعش:

- أنا سقعان أوي.

إنَّه طفل، شوارعي مثلها، يقتله البرد مثلها، وبالكاد أخرجت يدًا من بين فخذيها، وأشارت إليه أن يقترب.

نام في طول ظهرها، وتكوَّر بجسمه حول جسمها، واحتضنها بقوَّة، بعد أن دس يديه بين لحم صدرها وملابسها، وكان ثدياها طالعين في المبتدا، ثمرتا يوسفي صغيرتان، صعقتها برودة كفَّيه أولًا، لكن الدِّفء الذي بدأ يغمر كل جسدها جعلها تستكين، وإن كانت ارتعادات جسده ما زالت عنيفة.

دسَّ وجهه في عنقها، فشعرت بروعة زفيره وهو يعين دماءها على السِّيولة مرَّة أخرى، بعد أن كادت تتجمَّد، واستكانت لضغط حوضه على ردفيها، وحتَّى هذه اللحظة لم يكن في خاطرها غير أن تدفأ تمامًا.

كفَّاه سخنتا حول ثدييها الصَّغيرين، والدِّماء عادت تجري حارَّة في عروقها، وكان هناك شيء آخر يجري مع دمائها لم تفهمه، شيء ليس هو الدِّفء، وإنَّما لَسْع يُرعِش ما بين ساقيها، أسفل سرَّتها، تشعر معه أن حوضها فارغ فراغًا مؤلمًا، ويتمنَّى الامتلاء.

إنَّه يسحب كتفها لتستلقي على ظهرها بعد أن جرَّ جسده بعيدًا، لفح البرد ظهرها مرَّة أخرى قبل أن تنسدح عليه، وخافت أن يتركها لموت الصَّقيع، لكنَّها أحسَّت به وهو يتسحَّب بجسده ويعتليها.

صارت أنفاسه، رغم البرد، تلهب رقبتها، واندسَّت يداه عائدة إلى ثدييها، لم تستقرَّا عليهما فقط هذه المرَّة، وإنَّما أخذتا تعصرانهما، وفراغ حوضها يتوهَّج، وأوَّل مرَّة تعرف أن هناك ألمًا لذيذًا.

كان أسـفل جسـدها عاريًا عندما عادت القطَّة من عند الميضأة، والتي ومض بريق عينيها في عيني الولد الذي برك عليها يهز جسمه، ورغـم العـري لم تكن تحـس البـرد، كان الفراغ آخذًا فـي الامتلاء بالدِّفء، وبشيء يعمله الولد لم تفهمه.

"فهِمْتُه بعدين".

19

لـم ينبـس العقيـد "هانـي علي الدِّيـن" ببنت شـفة، وإنَّمـا أغلق الخـط، فانطفأت لمبتـه المضيئة على "التَّحويلـة"، وجلس العرِّيف مجنَّد "ياسر المبروك" على كرسيِّه يرتعش.

لقـد انتهت المعركـة لصالحه، وحافـظ على كرامتـه، لكن ثمن الكرامة غالٍ.

وَمَضَت لمبة العقيد "هاني علي الدِّين" مرَّة أخرى.

مدَّ "ياسر" يده ببطء وأوصل الخط رافعًا السمَّاعة إلى أذنه، وقال بصوت مُنهك:

- أفندم.

جاء صوت العقيد باردًا، وعسكريًّا، ومنضبطًا تمامًا:

- اسمك ودرجتك.

تأكَّد "ياسـر" أن الأمر لن يمر ببسـاطة، وأن العقيد "هاني"، بهذا السُّـؤال، قد بدأ في اتِّخاذ الإجراءات العسـكريَّة التي ستنتهي حتمًا بمصيبة.

للحظة برق في ذهنه خاطر، وهمس له:

- حاول تِخلص مِ النِّصيبه دي.

رأى الخاطر تردُّده، فواصل الهمس:

- دوس على روحك شويِّتين واتأسَّفلُه.

لكن الإناء الزُّجاجي البرَّاق التمع في روحه، يرقص على الحافَّة وقد امتلأ بجثة أمِّه التي نهشها الكلب.

الاعتذار لمجرَّد الخوف شيء مهين للكرامة.

كرَّر العقيد "هاني" السُّؤال بصوت رنَّ فيه نفاد الصَّبر:

- اسمك ودرجتك.

"بَـدام حَارَبت عشـان كرامتك تكـون عزيزه ومحفوظـه.. يُقْبا استـحمل اللـي حايحصلَّك.. حتَّى لـو كان الموت بذات نَفْسِـيه.. كدا تُقْبا صاحب كرامه بجد".

انطلق الصَّوت قويًّا من حنجرته:

- عرِّيف مجنَّد "ياسر مبروك خليل".

صمت العقيد لثوانٍ، كان واضحًا أنَّه يدوِّن الاسم، ثم قال بلهجة آمرة:

- وصَّلني بقائد الفرقه.

- تمام يا فندم.

لم يعد هناك أي مجال للشَّك في أن العقيد يُصعِّد الأمر.

سحب "ياسر" كوردة التَّوصيل من خط العقيد، وقبل أن يدخل بها على خط قائد الفرقة تردَّد قليلًا، بدا الخاطر في عينيه المرتبكتين وهو يطالبه بالتَّراجع والاعتذار، فالأمر إذا وصل إلى قائد الفرقة سيدحرجه بأقصى سرعة إلى الهاوية، المحاكمة العسكريَّة، ومن ثَم الحبس في سجن الفرقة ذي السُّمعة السَّيئة.

بَحّ صوت الخاطر وهو يهتف في داخله:

- اتأسَّفلُه يا اخي واخلص من كل وجع القلب دَهَه.

صوت خاطره المبحوح يئن:

- إذا وَصلِت الحكايه لقائد الفرقه حايُقْبَا فيها محاكمه عسكريِّه.. عارف ايه معنات محاكمه عسكريِّه؟ يعني حَاتِفْقِد دُفعه.. دُفعه بحالها.. وانت اللي قاعد تِعِد أيَّام الجيش ساعات ودقايق.

جسد "ياسر" لم يعد يرتعش، وإنَّما يرتج، وصوت خاطره يصرخ:

- هاتترمي ف سجن الفرقه.

ثم قال خاطره شيئًا لم يكن قد ورد على باله حتَّى هذه اللحظة:

- لو اتحبست مش هاتقدر تكلِّم "نوال" تاني.

"أحسن لك تتأسَّف".

- طب وكرامتي؟!

"والسِّجن؟ ونوال؟!".

- وِاذا اتأسَّفتله وما قبلشي؟

دوشـة تضج في رأس "ياسـر"، بينما تقبـض أصابعه على طرف كوردة التَّوصيل، الطَّرف ارتعش أمام مكان الخط الدَّاخلي الخاص بمكتب قائد الفرقة، لكنَّه لا يتحرَّك لإجراء عملية التَّوصيل.

اللمبـة الخاصَّـة بالعقيـد "هانـي علـي الدِّيـن" بـدأت تومـض ومضات خاطفة، سـريعة، بمـا يعني أنَّه قد اسـتبطأ توصيله بالقائد، ولـم يكن "ياسـر"، رغم كل عواء خاطـره، مسـتعدًّا لأن يرى الإناء الزُّجاجـي وهو يهوي، ويتهشَّـم إلـى فتافيت، وتتبعثر جثـة أمِّه التي مزَّقها الكلب.

أنهى الأمر، ودفع "الكوردة" في خط مكتب السَّيد قائد الفرقة.

20

القمر مدوَّر، ويشع النُّور الذَّهبي، ضخم، يتصاعد بتثاقل، يطلع من الشَّرق تحمله هامات النَّخيل، وبيوت نجع "الصَّوالح"، التَّابع لمركز "جهينة"، تقبع في منتهى الهزيع الأوَّل من الليل، تحوطها حقول واسعة مزروعة بالقمح.

رياح غريبة، غير معتادة، تنشط في مثل هذا الوقت من الليل، ولم يكن نور القمر قد اشتد بعد، فبدت حقول القمح كسطح محيط منبسط، تكسِّره موجات صغيرة، تسبح في العتمة.

ثمَّة بيت انعزل وحيدًا إلى الشَّمال، تنعكس على جدرانه المطليَّة بالجير الأبيض أنوار القمر الخافتة، فيبدو كسفينة تبحر في المحيط المعتم.

السُّكون يرخي سدوله على الكون، لا أصوات غير صرير جراد الزُّروع، وبعض نباح لكلاب بعيدة، ولم يكن بمقدور صوت المرأة التي تتعذَّب أن يكون مسموعًا، إنَّها ملقاة في حجرة، في أقصى ركن من أركان هذا البيت المنعزل، تشبه القبر، ضيِّقة للغاية، وجدرانها مصمتة بلا نوافذ، ليس من منفذ لها إلَّا بابها.

المـرأة ملقاة عارية تمامًا، وقد شُـدَّ وثاق يديها إلى قدميها بحبل كتّاني، من تلك النَّوعيَّة التي تُستعمل لنشر الغسيل.

وجهها مدوَّر، ورغم احمرار عينيها إلَّا أن اتَّساعهما يشي بأنَّهما، في وقت الصَّفا، تكونان ساحرتين، وبيضاء البشرة، جسدها رشيق مثل "سيسبانة"، لكن بياض بشرتها تلطَّخ في أماكن عديدة من جسدها البض ببقع داكنة، حمراء، وزرقاء، مختلفة الاتِّساع، إثر ما يمكن توصيفه بصفعات أكف غليظة، وضرب بعصي ثقيلة، وعض بأسنان مستذئبة.

إنَّها ملقاة على جانبها الأيمن، ومن حين إلى آخر تحاول رفع رأسها عن الأرض، إلَّا أنَّه كان يميل ليسقط سريعًا، كانت تئن وقد فقدت القدرة على الصُّراخ من شدَّة التَّعذيب، وامرأة عجوز، شارفت على السَّبعين من عمرها، تخمش بأصابعها العجفاء الثَّدي الأيسر للمرأة، وتشدّه إلى أعلى، لتكشف عن وحمة داكنة اللون، تأخذ شكل حبَّة "فراولة" تحت تكويرة الثَّدي.

خرج صوت العجوز من فمها الأهتم كفحيح أفعى:

- رَقِّب.. آدي الأمارة اللي لمَّا تجيبهالي حاعرف انك خلَّصتنا من عارها.. عارفه انا قلبك "خِرِعْ".. يمكن يحن.

لهذه العجوز وجه ثعلبي الملامح، أحاط به شعر أبيض مهوَّش كالأحراش، تلطَّخ بعضه باحمرار باهت لحنَّاء قديمة، فبدت بشعة

للغاية، وكان "خميس" يلهث من فرط ما بذل من مجهود في تعذيب هذه المرأة الملقاة على الأرض.

لم يكن بمقدوره أن يغضب، في هذه اللحظة، من عدم ثقة أمِّه به، والتي عبَّرت عنها بكل هذه السُّخرية اللاذعة، الظرف كسره تمامًا، فأومأ لها بالموافقة، قبل أن يندفع إلى ركل المرأة الملقاة بقدمه في بطنها، وصدرها، ركلات عديدة قوية، وهو يصرخ:

- قوليلي مين هُوَّ يا سافله يا واطيه؟ مين؟ مين؟

تكوَّرت المرأة حول نفسها، في محاولة لا إراديَّة منها لمواجهة الألم، أطلقها جسد يحاول الفرار من الموت، وبينما القمر بالخارج يعلو، وضياؤه يشتد ويسطع، كانت العتمة تطبق بأطنابها على روح هذه المرأة المعذَّبة.

دفعت العجوز ابنها بعيدًا وهي تفح:

- كفايه يا "خميس" لَتْموت هْنِهْ ومانعرفوش نخلصو من جِتِّتها.

ورغم أن "خميس" ضرب المرأة بقلب ميِّت، إلا أنَّه بكى، ونظر بِغِل للجسد البض الملقى عاريًا، وزعق:

- والله العظيم يا بت الكلب لاقطع راسك واشرب من دمِّك.

كانت، هذه المرأة الملقاة على الأرض، ترى قمرًا يصَّاعد في السَّماء، وبينما يرمي النُّور، ينثره في الأجواء، نظر إليها وابتسم، فابتسمت.

21

استلقى "صنع الله" في سريره، تمدَّد مسترخيًا و قد عقد أصابع كفَّيه أسفل رأسه، و عمامته الضَّخمة انحدرت إلى الأمام فغطَّت ثلثي وجهه.

الوقت ما بين منتصف الليل وطلوع الفجر، ليست هناك أصوات صاخبة، فقط يعلو، من حين لآخر، صوت دَرْبَكة قطط تطارد بعضها وقد علا مواؤها، دربكة لم تمنع صوت لهاث "حميد المِجَري" من أن ينسل واضحًا عبر شق واسع، عمله الزَّمن، في الجدار الفاصل ما بين حجرة "صنع الله" وحجرة "حميد المِجَري".

لهاث "المِجَري" يمتزج بأنين أنثوي ساحر، ويتصاعد أحيانًا ليصل إلى مستوى حشرجة ملتهبة، يتحوَّل معها هذا الأنين السَّاحر إلى آهات تائهة، ليتَّضح أن النَّار متأجِّجة، وأن جسَدا "المِجَري" والبنت، التي معه، يتلوَّيان فيها كعودين من زرع غضٍّ سقطا في لهب.

وفي لفح استعار النَّار، وصل إلى سمع الرَّجل صوت البنت مليئًا بالمياسة والغنج، تقول:

- احضنّي يا حبيبي كمان.

ثم صوت نهم لقبلة متوحّشة، قبلة طالت لتصهر الشّفاه الجائعة، وتدفع البنت إلى أن تلف ذراعيها حول ظهر "المِجَري"، بينما خصرها وفخذاها يعلوان ويهبطان كموج بحر ضربته الرِّيح.

لم يعد السَّرير يطقطق فقط، وإنَّما يصر وينعر، ومضى وقت، بدا في الليل طويلًا، قبل أن تعلو آهات "المِجَري"، وكأن سكّينًا تمزّقه، وشخرت "سوسن" شخرة طويلة قبل أن يحل السُّكون.

اعتدل "صُنع الله" في فراشه، ثم مدَّ يده إلى عود ثقاب، وأشعل اللهب في "عويل" لمبة جاز عتيقة.

اتَّجه إلى وابور الجاز في ركن الغرفة المواجه لبابها، أشعله، ووضع في ناره "كنكة" تلوَّى معدنها إثر دهس الزَّمن، وتغطَّى بالهباب، حتَّى إن تنظيفها صار مستحيلًا، وأخذ يعمل شايًا، بينما الضَّحكات المايسة تصدح مرَّة، وتخفت مرَّة.

ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يخرج "المِجَري" من حجرته ليطرق على باب حجرة "صنع الله"، وقبل أن يفعل رفع وجهه ونظر إلى السَّماء المعتمة، فرأى النُّجوم الكثيفة تبرق، ثم تجاوز النُّجوم، ليخترق ببصره المسافات إلى ما هو أبعد كثيرًا من النُّجوم، كان ينظر إلى أعلى العُلا، إلى حيث يكون الله، فدمعت عيناه، وطرق الباب.

استقبله "صنع الله" بيدين تقبضان على كوبين من الصَّفيح، مملوئين شايًا، قدَّم الذي في يمينه لـ"المِجَري"، الذي أخذه، ثم جلس على الأرض يبكي، بينما جلس، هو، على حافَّة السَّرير يرشف شايه ببطء شديد.

رفع "المِجَري" كوبه إلى شفتيه، وقبل أن يرشف منه شيئًا قال:

- أنا عايز اغتسل يا سيِّدنا.

ثم فجأة، أخذ ينتحب وهو يغمغم:

- عايز احكيلك ع اللي حصل بيني وبين رسول الله.. عايز اغتسل يا مولانا.

الماء، في حجرة "المِجَري"، معبأ في ثلاثة جراكن كبيرة، يستعمله في الطَّعام، و الشَّراب، و غسل ما يلزمه من ثياب، لكن عندما تأتي "سوسن" وينام معها، ويحتاج إلى الاغتسال، لا يغتسل أبدًا من هذا الماء، لاعتقاده اعتقادًا لا فكاك منه أن كل شيء في الغرفة يصير نجسًا بقدومها، حتَّى الماء نفسه، فكيف يتطهَّر بما هو نجس؟!

صار يترك "الجَّراكن" المعبَّأة في حجرته، ويأتي بالماء من الصُّنبور المشترك لكل سكَّان البيت.

بعد فترة، رَبَا هاجسه، حتَّى اعتقد أن كل الماء، في هذا البيت،

طالما تدخله "سوســن"، غير طاهر، ما اضطره إلى أن يغتسل خُلسة في دورات مياه المساجد.

ومنذ أن جاء هذا الرَّجل، وسكن في الحجرة المجاورة له، لم يرَ منه غير آيات الصَّلاح، بل استشـعر فيه ما هو أكثر من الصَّلاح، لقد استشعر فيه الولاية!

"الميَّه عند أولياء الله الصَّالحين لازم تكون طاهره".

22

مـا عاد "أبـو أميرة" يقود السـيَّارة بصفـاء ذهن، فقد صار شـغله الشَّـاغل هـو البحث عـن إجابة لهذا السُّـؤال الذي أخـذ يملأ عقله بالضَّجيج.

"أنا شفت الرَّاجل ابو عِمَّه خضرا دا فين قبلِ كْدِه؟!".

لـم يعـرف "أبو أميـرة" أنَّـه، عندما ذكـر مواصفات هـذا الرَّجل الجالـس على المصد الأمامي للشَّـاحنة، أثـار بذلك حفيظة كل مَن سمعه.

تنهدت ضلوع الشَّيخ داخل الصدر، وهمس لنفسه:

- كل اللـي حصلـي كان بسـبب "هَيْـتَ لَك".. غضـب من ربِّنا عليّ.. ومعاه حق.. شِيخ وافكِّر كِده في كلام ربنا؟!

ولن ينسـى القسِّـيس هذه المواصفات طالما هو حَي، فهي نفس مواصفات الشَّـيطان الذي التقاه في بقعة سـحيقة من الصَّحراء، إلى الغرب من وادي "النَّطرون"، عندما كان متَّجهًا في رحلة طويلة إلى الخلوة مع "يسوع".

انتفض القسِّيس إثر رعدة اجتاحته، فما رآه وقتها كان رهيبًا.

قال لنفسه، وقد طلى الاصفرار وجهه الممتقع:

- إن كان هُوَّ.. فدا الشِّيطان ايَّاه.. وحياة محبِّتك يا ربنا ما تحُطِّني ويَّاه فِ تجربه تانيه.

أغمض القسِّيس عينيه، وحاول جاهدًا رسم علامة الصَّليب على صدره من غير أن يلحظه أحد، وأخذ يلهج بحرارة؛ لأن شفتيه كانتا تتحرَّكان بسرعة، وفي الوقت الذي بدا فيه أن القسِّيس قد غرق في صلاة حارَّة، كان "أبو أميرة" يسأل نفسه:

- مين اللي زَعَّق وقال: انتبه؟!

يحاول "أبو أميرة" فهم ما جرى، فاستعاد بذاكرته الثَّواني القليلة التي أحاطت بهذا الحدث.

إنَّه، وبينما السيَّارة تنحرف إلى الاتِّجاه المعاكس، سمع شخصًا يزعق بلهجة بدوية: "انتبه". وكان صوتًا مدوِّيًا، قرقع في أذنيه كصخور تندك من أعلى جبل.

صوَّب ناظريه نحو المرآة الأماميَّة بشكل لا إرادي، لم يكن يقصد اختلاس نظرة لـ"سوسن" هذه المرَّة، وإنَّما يبحث عن وجه مميَّز يمكن لصاحبه أن يهتف بجلافة: "انتبه".

انطبعت فورًا وجوه الركَّاب على سطح عينيه، لكن وجهًا وحيدًا هو الذي تمكَّن من الانزلاق إلى تلافيف عقله كوجه يصلح، بملامحه الجافة، أن يكون لرجل بدوي يقذف بهذه الكلمة من فمه فتنطلق مثل صخرة.

الرَّجل الذي يجلس بجوار "سوسن"، على يمينها.

لكن الطَّرف الأيمن لملتقى شفتي "أبو أميرة" التوى ببسمة صغيرة، وقرفانة، فهذا الرَّجل لا يمكن، بأي حال من الأحوال، أن يكون هو صاحب هذا الصَّوت البدوي الصَّحراوي، فليس معنى لفِّه عمامة على رأسه اصفرَّ بياضها، وارتدائه جلبابًا خشنًا، ضاع لونه الحقيقي من طول استعماله، أنَّه بالضَّرورة رجل بدوي، وأنَّه هو الذي زعق: "انتبه".

خطف "أبو أميرة" نظرة أخرى إلى المرآة، ملتقطًا صورة كاملة لوجه هذا الرَّجل بالتَّحديد، قبل أن يُعيد عينيه إلى الطَّريق محتارتين أبلغ حيرة.

إنَّه رجل عجوز، عجوز جدًّا، تكاد أخاديد وجهه تتفلَّق، إنَّه من غير شك عَبَر بروحه ثمانين عامًا من سنين الزَّمن، وحنجرته بَليت، ولم تعد صالحة لإنتاج مثل هذا الصَّوت الهادر الذي زعق: "انتبه".

ثم إن هناك شيئًا آخر، يؤكِّد على أنَّ هذا العجوز ليس هو صاحب هذا الصَّوت.

لقد جاء الصَّوت من قريب، أحسَّ به "أبو أميرة" يتدفَّق من خلفه مباشرة، بينما هذا الرَّجل يجلس في الأريكة قبل الأخيرة.

"حاجه تحيِّر والله!".

23

"زياد" شاب جامعي بائس، وأديب يكتب القصص، جلس في شـقّته القديمة بـ "السَّـيدة زينب"، وأراد أن يكتب، فلمَّا اسـتعصت عليه الكلمات تأوَّه:

- آااه يا "قاهره"، يا مدينة ساحره.

جاش الاغتـراب في صدره، وتذكَّر "راية" التـي تُواصل هجره، فدندن لـ "محمَّد منير":

- "يا بنت يا امُّ المريله كُحلي".

الكلمـات ونـس حينمـا تتدفَّق على الـورق، وعندما تسـتعصي على التدفُّق، يشـعر بأنَّه وحيد، ومحاصر، في كرة أرضيَّة من خواء، فيدندن لـ"محمَّد منير":

- "مالي خايف.. خايف.. خايف.. وحاسس بالخطر".

صعبت حاله على الكلمات أخيرًا، فجاءت، وتدفَّقت:

"أنا خائف لأن الغيوم سـوداء، ولأن مطرًا ثقيلًا سيدردف الآن على رأسي، كم من البرد سيخترق عظامي؟

شتاء يناير في القاهرة عديم الرَّحمة، وأنا أرتدي قميصًا خفيفًا بنصف كُم، نعم، جسدي متين وفارع، لكن ليس لهذه الأسباب أرتدي قميصًا بنصف كُم على اللحم في عزِّ الشِّتاء، إنَّما، وببساطة شديدة، بسبب الفقر، ويجب على هذه الحقيقة أن تبقى طي الكتمان، وأن تظهر للنَّاس حقيقة أخرى مزوَّرة، وإلَّا صرت محل عطف، والعطف يُبذل لأهل الضَّعف، والضُّعفاء يتَّبعهم السَّاخرون.

لإن يبدو سبب ارتدائي لهذا القميص الخفيف ذي النِّصف كُم، هو قوَّة جسدي، وأنَّها سبب عدم شعوري بالبرد، ذلك أفضل جدًّا".

دمعتان تنسرِبان من مقلتيه، فيدندن لـ "محمَّد منير":

- "أنااا.. ويَّا شمس المغيب.. باغيب.. وانتي بتشرقي".

"قلبي، ثقيلًا، ينبض في صدري، والقاهرة ساحرة قاسية، وميدان طلعت حرب منحوتة غرامي، وحقيبتي أعلِّقها على كتفي ثقيلة، أثقل من قلبي، وقلبي مملوء بحب راية، وروحي مملوءة ببؤس الهجر، وحقيبتي مملوءة بكتب الشِّعر، والرِّوايات، وأوراقي المنقوشة بقصص قصيرة حزينة جدًّا، وفاترينات المحلَّات مملوءة بقمصان أكمامها طويلة، وآخر شياكة، وقميصي لونه أزرق كحلي، بخطوط بيضاء دقيقة طوليَّة، كرهت هذا القميص، أنا أرتديه منذ تسعة أشهر، كرهني".

- "كام عـام.. ومواسـم عـدُّو.. وشـجر اللمـون.. دبـلان على أرضو".

"أدخل قاعة المحاضرات فيتوه عقلي، الدُّكتور يلقي محاضرته ووعيـي غائـب عنه تمامًـا، راية تجلس أمامي، فأسـرح في شـعرها القصير الذي لا يداري أسـفل عنقها، وأسرح في عنقها، وأسرح في أعلى ظهرها، المحبوس في البادي الضيِّق.

أريـد أن أقتـل راية؛ لأنَّهـا لا تريد أن تشـعر بعذابي، أنـا أتعذَّب يا رايـة، كل مـا في القاهـرة يعذِّبنـي، موقف أحمد حلمـي يعذِّبني، محطَّة القطارات تعذِّبني، ميدان رمسيس يعذِّبني، التَّحرير، الأزهر، القلعة، شارع المعز، القاهرة كلُّها تعذِّبني، لكن ميدان طلعت حرب منحوتة غرامي، أحب عذابه، سأكرهك يا راية، وسأكره القاهرة".

"جسـدي القوي، وعضلاتي المفتولـة، مبرِّران قويَّان لارتدائي قميصًـا بنصـف كُم فـي زمهرير الشِّـتاء، لكـن كيف يمكـن أن أبرر ارتدائي نفس هذا القميص لأكثر من تسعة أشهر متواصلة؟!".

"أنـا قصَّة حزينة، ربمـا أنا قصَّة أكثر حزنًا من كل قصصي التي كتبتهـا، ليتنـي أكون قصَّـة قصيرة، فالحياة سـوداء، حياتي سـوداء، كل شيء أسود".

- "بتكدِب الحقايق.. فِ العالم البعيد.. وانتي بتُصْدُقي".

"هل هذا، الذي يُبلِّل وجهي الآن، مطر أم دموع؟".

"وجهي الشيء الوحيد في حياتي الذي ليس لونه أسود، ورغم ذلك نغَّص عليَّ حياتي، إنَّه أبيض، أبيض جدًّا، أبيض زائد عن الحد، فائق بياض البشرة، أبيض مشوَّه".

و"عجبي".

24

اندس "حميد المِجَري" خلف السِّتارة التي في ركن الحجرة، خلع ثيابه ودخل في الطَّست الألمونيوم الواسع، وأخذ يصب الماء على جسده، بينما "صُنع الله" قد وقف مائلًا بوجهه نحو السَّماء، يتمتم بشفتيه كأنَّه يصلِّي، وقرآن الفجر بدأ يُشرق من مآذن المساجد.

وعندما انتهى من اغتساله، كان "صُنع الله" قد انتهى من صلاته.

خرج "المِجَري" من خلف السِّتارة، وجلس مقعيًّا بركبتيه على المصلاة، في مواجهة الرَّجل، ورَكَز عينيه في الأرض قبل أن يقول:

- أقولَّك يا سيِّدناع اللي حصل بيني وبين رسول الله في المنام امبارح؟

ثبَّت "صُنع الله" ناظريه في وجه "المِجَري"، كان وجهًا مدوَّرًا، ممتلئًا، يكاد الدَّم ينضح منه، تشع منه سيماء العز، لا يظن مَن يراه،

مجرد ظن، أن مثل هذا الرَّجل الوسيم يمكن أن يكون واحدًا من سكان "إسطبل عنتر".

صمت "صُنع الله" صمتًا طويلًا، استثقله "المِجَري"، فهمس بصوت خفيض، يعيد ما قاله:

- أقولَّك يا سيِّدناع اللي حصل بيني وبين رسول الله في المنام؟

خرج الصَّوت من فم "صُنع الله" يقول بلسان عربي فصيح:

- بل أخبرني عمَّا جرى بينك و بين الشَّيطان في اليقظة.

دائمًا ما يُؤخذ "المجري" من مهابة هذا الصَّوت الرَّخيم، المشروخ ببحة تُرَوْنِقه بالسُّلطان، وتمنحه سطوة الحكمة.

قال، وهو ما زال يصوِّب بصره إلى نقطة من سجَّادة الصَّلاة، بينه وبين الرَّجل:

- اللي بيني وبين الشِّيطان أكبر من انِّي أقدر احكيه دلوقتي.

ثم طفرت عيناه بدموع حارَّة، ونشج، وقال:

- أقولَّك يا سيِّدناع اللي حصل بيني وبين رسول الله في المنام؟

وبينما يومئ برأسه موافقًا، مدَّ يده إلى وجه "المِجَري" ومسح عنه الدُّموع، فشهق الأخير شهقة محمومٍ أُلقي عليه الثَّلج، قبل أن

يمسك بِيَد "صُنع الله" ويمسح بها على رأسه، ويهمس:

- راسي بتغلي يا سيِّدنا.

ثم نزل بها إلى صدره:

- وقلبي فيه نار بتشويه.

وانكب يقبِّل اليد الطَّريَّة:

- إيدك يا مولانا برد وسلام.

وهوي إلى الأمام، مُلقيًا برأسه في حِجر الرَّجل، وأخذ يبكي، وجسده يرتج بعنف، وصوت، كصوت صرير باب حديدي صدئ ينفتح ببطء، يخرج ممطوطًا من فمه وأنفه:

- ربِّنا بيعذِّبنا ليه يا مولانا؟

وضع "صُنع الله" كفَّه اليمنى على رأس "المِجَري"، بينما فرد كفَّه اليسرى على ظهره، فشعر بسكون يعتريه دفعه إلى ترك رأسه ملقى في حِجر الرَّجل، وأن يستدرك:

- طَيِّب كان خلقني محترم.. وشبعان.. وانا عمري ما كنت هابقى نصَّاب ولا بتاع نسوان.

ارتعد جسد "صُنع الله" قبل أن يقبض بأصابع يديه على أذني "المِجَري"، ويرفع رأسه من حجره بعنف، فيعيده إلى جلسته مقعيًّا على ركبتيه.

فـزع "المِجَري" من الألـم الذي شـرخ أذنيه، لكــن الألـم الأفظع ضرب قلبه، عندما باغته خاطر بأن سيِّده، ومولاه، لن يرفع رأسه من حجره بهذه القسوة إلَّا لأنَّه قد غضب من كلامه، وربما يتطوَّر غضبه إلى حرمانه من ملازمته.

رفع وجهه إلى وجه "صُنع الله" وخطف نظرة سريعة، وعلى غير مـا توقَّـع أن يرى، كان وجه الرَّجل مبتسـمًا ابتسـامة رائقة، وقبل أن يندهش لهذا الأمر سمع صوته الدَّافئ، المهيب، ينسل إلى روحه:

- يا مخلوق ظلمت خالقك.

وقبـل أن ينطـق "المِجَري" بأيِّ كلمة، شـعر بيـدي الرَّجل على صدغيه ترفعان وجهه، ولسانه العربي الفصيح يقول:

- انظر إليَّ.

نظر في وجه "صُنع الله" الملائكي، فأحسَّ بأنَّه قد بدأ يحلِّق في أجواء بساتين ليس لها نظير على الأرض.

قال وهو يحدِّق في عيني "المِجَري":

- الله لا يخلق للشر، وإنَّما أنت الشِّرير.

واصـل "صُنـع اللـه" الـكلام، بينمـا يزيد مـن ضغط كفَّيـه على صدغي "المِجَري":

- هـل يدفـع الله النَّاس إلى أن يغتصـب بعضهم حقوق بعضهم الآخر؟!

كان الضَّغط على صدغي "المَجري" شديدًا للدرجة التي انفلقت معها شفتاه، فصارتا مثل شفتي سمكة، لكنَّه استطاع أن يلفظ بكلمة مخنوقة:

- اللي مكتوب عَ الجبين لازم تشوفه العين.

قال الرَّجل وهو يضغط أكثر:

- ليس مكتوبًا على الجبين غير ما تخطُّه أنت..

احمرّ وجه "المِجَري" من شدَّة ضغط الدَّم المحبوس فيه، وشعر بـأن جمجمته على وشـك التَّحطُّم، لكنَّه تمكَّن مـن أن يلفظ بكلمة مندهشة:

- والمقادير؟!

كان الضَّغـط علـى صدغي "المِجـري" قد بلغ مـداه، عندما قال "صُنع الله":

- ذريعة ابتدعها الإنسان كي يُعلِّق عليها أسباب خيباته.. وسوط مقدَّس في يد سـلطان غاشـم يسـوق به قطعان الخائبيـن إلى توهُّم الرِّضا.

قال "المِجَري" بصوت مختنق، خرج ممزَّقًا من تحت ضروسه:

- مش فاهم حاجه من كلامك يا مولانا!

- النَّصابون أذكى النَّاس.. ستفهم يا "حميد".

رفع "صُنع الله" كفَّيه عن صدغي "المِجَري"، وأشار بسبَّابة يده اليمنى إلى السَّماء، وهو يقول:

- مَن الذي منحك "سوسن"؟

وإن كان "المِجَري" قد تنفَّس الصُّعداء أخيرًا، وأخذ شهيقًا كأنَّه عاد للتو من لحظة الغرق الأخيرة، متحسِّسًا صدغيه وكل رأسه، إلَّا أنَّه بوغت بانسلال اسم "سوسن" من بين شفتي هذا الرَّجل الطَّاهر، ثم اندهش لكونه اكتشف علاقتهما، وقد نسي، على ما يبدو، أن الرَّجل كان قد صرَّح له بأنَّه نبي، وأن إحدى كراماته قد جرت، منذ أيَّام قليلة، أمام عينيه، عندما كشف له عن سر شاي السِّت "كريمة السِّيما التُّركي"، فسأل وقد اعتراه الخجل:

- عرفت ازَّاي حكاية "سوسن" يا مولانا؟!

أشار "صُنع الله" إلى الشَّق الذي في الجدار الفاصل بين حجرتيهما، بينما ارتسمت على شفتيه بسمة ساخرة، وقال:

- الجدران لها آذان يا "حميد".

صمت "المِجَري" للحظة فسمع نداء الله في الفجر، والذي انبعث من مآذن المساجد، أكثر إشراقًا.

أعاد "صُنع الله" سؤاله:

- مَن الذي منحك "سوسن"؟

ضربت الحيرة قلب "المِجَري"، خشي أن يقول: "الله". فالله لا يعمل الشَّر، كما قال الرَّجل الصَّالح منذ قليل، وبالتَّأكيد كلامه صحيح، الله لا يعمل الشَّر، فقال:

- الشِّيطان يا مولانا.

نظر "صنع الله" إلى شيش النَّافذة الخشبيَّة المغلقة، هذه النَّافذة التي لم يفتحها أبدًا منذ سكن هذه الغرفة، وقال بصوت راسخ، خرج عميقًا:

- ليست هناك شياطين يا "حميد".

أشاح "المِجَري" بوجهه إلى حيث ينظر الرَّجل، وقال بصوت مضعضع:

- إزاي ما فيش شياطين؟! إنت من شويه قولتلي احكيليع اللي حصل بينك وبين الشيطان!

- ليس الشَّيطان غير أسطورة سوداء صنعتها نفسك الشِّريرة كي تدَّعي الطُّهر.. وأنَّها ليست صانعة الآثام وغازلة المستنكرات.

كلام "صُنـع اللـه" يـروح ويجيء في عقـل "المِجَـري"، يصعد ويهبط، كلام كبير وعالٍ، لكنَّه بالكاد يفهم منه شيئًا، وأراد أن يُعطي كلامًا مثلما أخذ، فقال:

- م الآخـر يعنـي يا مولانـا "سوسـن" دي مسـتنكره.. والواحد هايتعذِّب ف الآخره بسببها.

وكأن الرَّجل ضربه بقنبلة عندما قال بصوته الرَّاسخ:

- كما أنَّه لا شياطين هناك.. فإنَّه لا آخرة هناك.

وأدار "صُنـع اللـه" وجهه إلى وجه "المِجَري"، لـم يكن مبتسـمًا هذه المرَّة،، كان مقطِّبًا، وغرس نَظَرَه في عينيه، واستدرك:

- اليـوم الآخـر أداة الظُّلم التـي حوَّلها المقهـورون إلى أمل في العدل.

ما يُقال مُربك، بل مُرعب، لا شـياطين! لا آخرة! ظلم في عدل، عدل في ظلم.

ارتبك "المِجَري" تمامًا، وعندما أراد أن يسـحب عينيه من نظرة الرَّجل لم يستطع.

كانـت عينـا "صُنـع اللـه" كجمرتـي نـار فـي قعبتين مـن صخر متفحِّم.

حاول "المِجَري" أن يُحرِّك وجهه إلى بعيد فلم يستطع، أراد أن ينهض فلم يستطع أيضًا، وشعر بوثاق من شلل يكتِّف جسده فبدأ يرتعش، ثم أخذ في الارتعاد بقوَّة، وعندما حاول الكلام خرج زبد من جانبي فمه مصحوبًا بتهتهات غير مفهومة.

"الرَّاجل دا نبي ازاي؟!".

25

انتهى الاتِّصال بين العقيد "هاني علي الدِّين" والعميد قائد الفرقة.

ثوانٍ، وومضت لمبة العميد الحمراء، فرآها العرِّيف مجنَّد "ياسر المبروك" عين جن، فنكت فيها "الكوردة"، وقال في السَّماعة:

- أؤمر سيادتك يا فندم.

أصوات الذين تتعلَّق بهم مصائر النَّاس ليست آدميَّة، إمَّا ملائكيَّة، تزف البشائر والنَّتائج السَّعيدة، أو شيطانيَّة، تقذف بالمآسي والنِّهايات القميئة.

كان صوت قائد الفرقة عدائيًّا وهو يسأل بانقباض:

- إنت العرِّيف مجنَّد "ياسر مبروك خليل"؟

- نعم سيادتك.

- قائد كتيبتك يدَوَّرَك مكتب عندي حالًا.

الشَّمس صحوة، والرِّمال ناصعة، ساعة الضُّحى نشطة، والكون حَي، أمَّا قلب "ياسر" فكان مكفَّنًا في سواد القلق، لم يسبق له أن

أُديـر إلـى مكتـب أي قائـد، وها هـو يُدار لمكتـب قائـد الفرقة مرَّة واحـدة، مذنبًا، مجـرَّدًا من غطاء الـرَّأس، مأمورًا بإخـراج الأفرول خارج الحزام، وطرفي البنطلون خارج البيادة.

المقدِّم "إحسـان" قائد كتيبتـه يتقدَّمه، يقطعان المسـافة الطَّويلة بيـن مركـز "التَّحويلـة" ومكتـب القيادة، ومـع كل خطوة يتكشَّـف الواقع أكثر لـ"ياسر"، إنَّه مرعب، وإذا كان ما فعله قد فعله من أجل صيانـة كرامته، فالواقع يقول إن كرامته أمسـت في مهب الرِّيح أكثر من ذي قبل.

"طـب تعمـل ايـه لو شـتمك القائـد جُـوَّا المكتب؟ هاتشـتمه برضك؟!".

كنسـمة باردة، عابرة فـي قيظ الحر، طوَّف صـوت "نوال" حول ذهنـه، صـوت حالم، يسـمعه فتتحول الصَّحـاري المحيطـة به إلى بسـاتين هامسـة، ويشـم رائحة الورد، وتتراقص أمـام ناظريه أعواد الرَّياحين، ولهجتها القاهريَّة تجن قلبه، يسـمعها فيتمنَّى لو يسـتطيع القفـز إلى داخل الأسـلاك التليفونيَّة، يمرق عبرها بسـرعة الصَّوت إلى صدغها الذي يحمل السمَّاعة، ويخطف قبلة.

أفـاق على صوت المقدِّم "إحسـان" وقد اقترب منه، كانت نبرته ودودًا:

- تبقى جاوب على أد السُّؤال يا "ياسر".. ما تتكلِّمش كتير.

وصلا إلى باب مكتب قائد الفرقة، أمره المقدِّم "إحسان" بالوقوف انتباه قبل أن يعدل من هندامه، ثم طرق طرقة خفيفة، وأدار الأكرة.

انفتح الباب، وبالصَّوت العسكري هتف المقدِّم:

- معتدل مارش.

خطا "ياسر المبروك" إلى الدَّاخل بالخطوة العسكريَّة المنضبطة، المكتب واسع للغاية، عميق للغاية، ظل يمشي بعينين غائمتين، قلبه يرتجف، وظن أن المكتب لا نهاية له.

جاء صوت المقدِّم "إحسان"، أخيرًا، يأمره:

- قف.

خبط "ياسر" قدمه اليمنى ولصقها باليسرى، واقفًا مثل الألف، ثم قدَّم التَّحية العسكريَّة للقائد الذي يجلس وراء المكتب الفخم.

هتف المقدِّم "إحسان" مستنكرًا:

- المِدَّور ما بيدِّيش تحيَّه يا عسكري.

قال "ياسر":

- تمام يا فندم.

كان العقيد "هاني علي الدِّين" يجلس على كرسي "فوتيه" فخم أمام المكتب، ينظر بخبث للعرِّيف الذي ردَّ إليه إهانته المجزَّأة كتلة

واحدة، كانت نظرته تقول:

- استلقَّى وعدك.. عامل دكر يا روح امَّك؟

الخريطـة الكبيـرة، التي غطَّت كل الحائط خلف كرسـي القائد، ذكَّرت "ياسر" بمكتب "موسيلِّيني" في فيلم "عمر المختار".

رفع القائد عينيه من ورقة بيضاء، كبيرة، بين يديه، وفح:

- كان سـيادة العقيد طلب منَّك قبل كدا خط "السِّنترال".. فانت قولتله بطريقه غير مهذَّبه "استنَّا دورك ف الليسته".. حصل؟

اندهش "ياسـر" لهـذا الاتِّهام، فلقد كان يتوقَّع كل شـيء غير أن عقيدًا، وقائد فرع في فرقة، يكذب على مجرد عرِّيف مجنَّد.

همَّ "ياسر" بإنكار التُّهمة:

- ماحصـ.....

قاطعه القائد بصوت حاسم، باتر:

- عزل.. هات الشَّرايط من على كتفه يا سيادة المقدِّم.

درجات المجنَّدين ليسـت سـوى وهم، لا تسـمن ولا تغني من جـوع، لا تمنـح حصانـة، ولا تدفـع ظلمًا، ويتـم اسـتلابها بمنتهى البساطة.

بافتراء كاذب نزل "ياسر" من درجة "عرِّيف" إلى درجة "جندي"، وشـعر بيد المقدِّم "إحسـان" وهي تخلع الشَّـريطين من على كتفه،

وللحظة شعر بأن ما يجري حوله يدفع إلى الفخار، لا العكس، فها هو مُدار إلى مكتب أعلى رتبة في الفرقة، ومَن ينزع الشَّريطين عن كتفه ضابط برتبة "مقدِّم"، غيره يُدار إلى مكاتب الشَّاويشيَّة، والصُّولات، والرُّتب الدُّنيا، وقد ينزع الشَّريطين عن كتفه مجرَّد ملازم صغير، وهدأت نفسه، نوعًا، لهذا التَّحليل السَّريع في الوقت العصيب.

فحَّ صوت القائد، مرَّة أخرى، وهو ينظر في الورقة التي بين يديه:

- سيادة العقيد بيقول انَّك شتمته بـ.... شتايم وسخه.

- يا فندم ...

أشاح بوجهه عن "ياسر"، ونظر إلى المقدِّم "إحسان"، وفح:

- العسكري دا يتحوِّل لمحاكمة عسكريَّة فوريَّة.. ولحين محاكمته يترمي ف سجن الفرقه.

كان قد سمع، على مدى عمره، أنباءً كثيرة غاية في السُّوء، لكن لم يكن لها عليه هذا الوقع أبدًا، لقد انسحبت الأرض من تحت قدميه فجأة، وانخطف العالم من حوله، ومالت وقفته، وصوت المقدِّم "إحسان" يتماوج:

- للخلف دُر.

26

قرَّرت "سوسن" أن تتأكَّد ممَّا جال في خاطرها وأقلقها، فنقرت بأنامل يدها اليسرى كتف المرأة التي تجلس أمامها، وقالت بمرح مصطنع:

- ممكن لو سمحتي تدِّيني الولد الخلبوص دا ألعب بيه شويَّه؟

قالت المرأة بصوت مكسور:

- وماله.. حتَّى تريِّحيني شويِّه من شيلته.. وَجَعْلي رجليِّه.

وبينما تستدير بجذعها، وترفع الولد ناحية "سوسن"، انكشف جزء من وجهها لـ"زياد"، الذي كان ينظر لما يحدث على سبيل تزجية الوقت، فرفع حاجبيه مندهشًا جدًّا.

قالت "سوسن" وهي تأخذ الطِّفل:

- هُوَّ اسمه إيه الأروبة دا؟

- "مصطفى".

- وااو.. "صاصا" يعني.

نظر الطِّفل إليها نظرة مستغرِبة، قبل أن يمدَّ كفَّيه الصَّغيرين ويقبض بهما على خدَّيها، فنهرته بدلال:

- ولد!

وانكبَّت عليه تقبِّله، وشمَّت رائحة "دِيدي" تتفجَّر من خلاياه، فنظرت إلى المرآة الأماميَّة، ورأت جانبًا من وجه "أبو أميرة"، الذي كان لاهيًا عنها تمامًا منذ فترة.

لكن يقينًا رذلًا تشبَّث بقلبها.

"الولد دا إبني".

زادت سرعة السيَّارة، ولم تعد متَّزنة، إنَّها تنطلق مثل سهم بلا مكابح، لا يحفل بانحناءات الطَّريق، ولا بزحام العربات التي تجري عليه، تندفع بجنون، ورغم ذلك بقي "أبو أميرة" يضغط على دوَّاسة البنزين أكثر وأكثر، كانت قدمه قد ثقلت عليها من غير وعي منه، فقد كان يجتر ما رأى، وكلَّما أمعن في الاجترار ازداد ذهوله.

لقد استقر على استحالة أن يكون هذا العجوز، الجالس بجوار "سوسن"، هو صاحب الصَّوت الجهوري الذي زعق بكلمة: "انتبه"، وأن هذا الصَّوت البدوي الغريب قد أتى من خلفه مباشرة، فخطف نظرة أخرى للمرآة رأى على إثرها قمَّة عمامة خضراء، ترتكن على ذراعين تشبَّثت كفَّاهما بمسند الأريكة التي يجلس هو على طرف منها.

إنَّها العمامة التي رآها ملفوفة حول رأس هذا الجالس على بروز مصد الشَّاحنة، نفس اللفَّة، ونفس البريق الحريري، لا إراديًّا أمعن النَّظر في المرآة، فرأى ما انتزع عقله من عقاله، وألقى به في أعماق التَّوهان.

لقد رفع "صُنع الله" رأسه من بين ذراعيه، رفعه ببطء، مغمضًا عينيه، كاشفًا لـ "أبو أميرة"، عن وجهه بالكامل، فرآه، وشتَّ عقله.

أخذت السيَّارة تنهب الطَّريق بأقصى ما لديها من سرعة، وعينا "أبو أميرة" مفتوحتان على آخرهما، لكنَّهما لا تريان شيئًا، وصار الشَّيء الذي وضعه الله في الإنسان ليمكِّنه من التَّصرُّف أوقات الذُّهول هو الذي يقود السيَّارة، حتَّى استفاق "أبو أميرة" بصراخ الشَّيخ الأزهري:

- هدِّي السُّرعة يا بوي.. هاتودِّينا فِ نْصِيبِه.

وكان القسِّيس قد ركبه الذُّعر مذ سمع مواصفات الشَّيطان ذي العمامة الخضراء، فصاح:

- نزِّلني لو سمحت.. نزِّلني هِنا.

كانت استفاقة "أبو أميرة" مفاجئة، حتَّى له نفسه، فرأى كيف أن السيَّارة قد خرجت عن السَّيطرة، وانفلتت منه تجري برعونة، وأنَّها بصدد كارثة إن لم يتصرَّف بمنتهى السُّرعة.

كان مرتبكًا، فرفع قدمه عن دوَّاسة البنزين بطريقة غشيمة، لتهبط سرعة السيَّارة بشكل يشبه الفرملة، بينما علا نعير المحرِّك.

صرخت "سوسن":

- في إيه؟!

وانسل صوت واهن من الفم الأهتم للرَّجل العجوز الذي يجلس بجوارها:

- يا ستَّار استر.

زعق القسِّيس مرَّة ثانية:

- نزِّلني.

كان "أبو أميرة" يرتعش، فخرج صوته مرتعشًا:

- تنزل فين بس يا بونا؟! خلِّيك راكب احسن.

هتف القسِّيس بمنتهى الضِّيق:

- بقولك نزِّلني هنا.. انت شكلك هاتموِّتنا.

انطلقت قهقهة "أبو أميرة"، متشنِّجة، غير مرتاحة بالمرَّة، ثم قطعها ليقول:

- أنا اموِّتك؟! كِيف؟! واحنا معانا فِ العربيَّه ناس من أولياتِ اللاه الصَّالحون!

كانت سرعة السيَّارة قد انضبطت، فترك "أبو أميرة" عجلة القيادة، وبدأ يصفِّق بيديه، كان قد أسلم قلبه لوجد المريدين، فأحد العارفين الأقطاب يركب سيَّارته، بعد أن كشف عن كرامة مُعجزة، لا يمكن لإنسان عادي، مهما بلغت قوَّته، أن يأتي بمثلها، أن ينتقل من الجلوس على حافَّة بروز اكصدام شاحنة تجري في اتِّجاه معاكس، إلى داخل "ميكروباص" يجري في الاتِّجاه المضاد.

ثم تذكَّر "أبو أميرة" أن هذا الولي الصَّالح لا بد وأنَّه قد ركب من "أحمد حلمي"؛ لأنَّه لن يتحرَّك بالسيَّارة من غير أن تكون مكتملة بالركَّاب.

"رِكب من احمد حلمي.. وكان راكب فِ ذات الوقت على اكصدام التِّريلِّه! ولولاه كانت الأرواح دي غارت ف ستِّين داهيه".

وانسطل "أبو أميرة" من وقع هذه الكرامة المتشعِّبة، التي تؤكِّد على أن صاحبها ليس مجرَّد ولي وفقط، وإنَّما هو قطب كبير، من تلك الأقطاب الصُّوفية التي تقوم على حفظ دورة الحياة في الأكوان، فترك عجلة القيادة وأخذ يصفِّق، ويتغنَّى بطرب، وبأعلى صوته:

– مااااددد يا عارفين الله مادااااد.. شي لله يا عارفين بالله مااااااااادد.

السيَّارة سهم منطلق، بعجلة قيادة حرَّة من قبضة ابن "آدم"، تسير على هَدْي الأولياء الصَّالحين، وتحت عنايتهم، وصوت طفل ينسل من نوافذها إلى الفضاء فتطيِّره الرِّيح، يردد ما يتغنَّي به "أبو أميره":

ــ مااادد.. ماااادد.

كانت أيادي، "ياسر المبروك"، و"زياد"، تصفق تصفيقًا سريعًا، يتناغم مع تصفيق "أبو أميرة" فيصنع لحنًا يتضوَّع، واهتزَّت رؤوس كل مَن في السيَّارة، ما عدا القسِّيس، من فوران الطَّرب، وارتفعت الأصوات الملبية للوجد المداهِم:

- حَيْ.. حَيْ.. حَيْ.

واقتنصت "سوسن" فرصة الانشغال، وأخذت تفتِّش في جلد الطِّفل عن حبَّة تين قاتمة، نبتت تحت إبطه الأيمن.

27

لا يمكن لرجل حر مثل "خميس" أن ينسى هذا المشهد، ما دام في صدره قلب ينبض، سواء كان المشهد حقيقيًّا أو متخيَّلًا .

الزَّوجة عارية، ورجل آخر يهرسها على سريره، وهي تتأوَّه متلذِّذة بالعشق الحرام.

ينفض "خميس" رقبته، نفضة يكاد معها رأسه يطير من فوق عنقه، ويمص الدُّخان من سيجارته بعنف، القمر يمخر عباب سماء مسودَّة، وبوَّابة البيت المنعزل وسط الحقول خلف ظهره، عيناه جاحظتان، طُليتا بالنِّيران الحمراء، تنظران في ظلمات الأفق، والأفق تحوَّل إلى شاشة عرض ضخمة، كالتي في سينما "الثَّقافة" في "سوهاج"، تعرض أمامه مشهد الخيانة، تستعيده بطيئًا، لقطة لقطة.

يرى نفسه متجهًا إلى باب حجرته، بينما أمّه تتلصَّص خلفه، وقد تعلَّقت بجلبابه، يشعر بثقل الخُطى، وبثقل "الطَّبنجة" في يده اليسرى، وبثقل قلبه وهو يقرع كالطُّبول.

يمـد يده الخاليـة من السِّــلاح، ويدير أكـرة باب غرفـة نومه من الخـارج بهدوء ميِّت، قبل أن يدفعه كعاصفـة هوجاء، فلا ينفتح، ما يضطـرُّه إلـى أن يهجم عليـه بكتفه، يعلو صوت تحطُّـم "الكالون"، قبل أن ينفتح الباب على وسـعه، محدثًا جلبة عند ارتطامه بالجدار، وفـي اللحظة التي صـار "خميس" داخل غرفته بكامل جسـده، كان هناك شـبح يقفـز إلى الخارج عبـر النَّافذة الواسـعة، المفتوحة على مصراعيها.

صوَّب "خميس" طبنجته نحو بقايا الشَّبح، وبينما صوت العيار النَّاري يقلب هسـيس الليل رأسًـا على عقـب، كان صراخ أمِّه يفجِّر ضجيجًا لا حد لشناعته:

- اقتله.. اقتله.

انطلـق العيـار النَّاري نحو الفـراغ، إذ لم يكن هنـاك أحد، فحتَّى بقايا الشَّـبح كانـت قد اختفت، وبقـي الدَّوي العظيم الـذي أحدثته طلقة "الطَّبنجة"، والذُّعر الرَّهيب الذي بدا في عيني المرأة الممدَّدة في فراشـها تحت ملاءة خفيفـة، لم تمكِّنها المباغتـة من أن تعتدل، ولو قليلًا.

ومثـل "لبؤة" جائعة، انقضَّــت العجوز على الحسـناء الممدَّدة، الغارقـة في كابوسـها، وأخـذت تلطمهـا بكفَّين خشـبيَّتين جفَّفهما الزَّمن، وتشد شعرها وهي تفح:

- جِبتيلنا العار ...

يتحرَّك "خميس" نحو زوجته كالسَّكران المدووش، وبينما أمّه تخمش بأظافرها الوجنتين التُّفَّاحتين خمش كلبة جائعة لفريسة ليِّنة، كان يزيح الملاءة عن جسد زوجته، وينظر إليه.

ليس ثمَّة إضاءة من أي مصدر مشع للنُّور يمكنها أن تجعل الرُّؤية مُستطاعة، غير هذه الشُّعاعات الفضِّية المندلقة من القمر إلى داخل الغرفة، عبر النَّافذة المفتوحة على مصراعيها.

ليست هناك مشكلة في الإضاءة بالنِّسبة لـ "خميس"؛ لأن "نوال" كانت لمبة نور ساطع، جمالها يَكُب روعة وضَّاحة، أجمل بنات النُّجوع السِّتة التي تتبع قرية "نزلة علي"، والتي يتبعها نجعهم "الصَّوالح"، ثم إنَّها ليست فقط أجمل البنات، وإنَّما سليلة أعرق القبائل العربية التي توطَّنت هذه القرى المنثورة على أرض غرب نيل "سوهاج"، إنَّها سليلة بيت شيخ العرب "عبد الله"، بنت عز، والعز ينحت أجساد أهله بالرَّونق الفخيم، صيَّرها بيضاء بياضًا يتوهَّج فيه الدَّم، هذا لون بشرتها، ولحمها بض، بنت العز تميل للسِّمنة، أنفها دقيق، فمها حبَّة فراولة، خدَّاها تفَّاح.

وبعد أن أزاح الملاءة عنها، انكشف له قميص نومها الخوَّان، هتَّاك الأسرار، قميص النَّوم الذي يحبُّه على جسمها، ويحبُّ جسمها أكثر لمَّا ترتديه.

الأم المسعورة تواصل اللطم والخمش، و"خميس" المكلوم يواصل البحث عن شيء في جسد زوجته، رفع ذيل القميص الذي أحبَّه طويلًا فتبدَّى تحته "كلوت" فاجر، ميَّاس، يخبِّئ قليلًا، ويفضح كثيرًا، حِيك من الأمام بقماش كالزُّجاج، شفَّاف، على هيئة قلب، إنَّه الـ"كلوت" الذي يحبُّه فيها، ويحبُّها أكثر وهي فيه.

عوى بأنين مُتخفِّض:

- الفاجره.. لَبَسِت لِيه...

شعر "خميس" بأنَّه ينهار، وأنَّه سيبكي، فحاول أن يمنع انهياره، لكنَّه لم يستطع، سقط على ركبتيه، ملقيًا بصدره على السَّرير، بحذاء ساقَي "نوال" العاريتين، ليهوي رأسه بينهما، ويرتمي وجهه على الـ"كلوت"، وشفتا فمه تداعتا على القلب المعمول من القماش الميَّاس، الذي يشف ويمنع في ذات الوقت.

بكى، "خميس"، ونعر:

- يا فاجره.. مش مالي عينك انا اياك؟

فجأة، يفتح فمه الثَّعلبي على تمام اتِّساعه، ثم يُطبقه بفكَّي ضبع، ليغرس أسنانه وأنيابه في لحم فرجها، وشهقت "نوال"، قبل أن تُطلق صرخة شرخت سقف البيت، وأخذت تفرفط، كأفعى تموت بضربة مفاجئة على رأسها، لكنَّه كان قد اشتبك بقواطعه مع اللحم الفائر، والدَّم يَبُك حارًّا.

ظل يضغط بأسنانه وأنيابه، ويزوم مثل ذئب، وحاولت الأم دفعه بعيدًا، كانت تضرب رأسه بكفَّيها، و"نوال" تصرخ مثل إنسان يُشق بمنشار خشَّابي إلى نصفين.

وعندما رفع "خميس" رأسه، كان الدَّم يغطِّي كل وجهه، ويقطر من ذقنه، ولحم فرج "نوال" بين أسنانه.

كل هذا رآه، لقطة لقطة، على شاشة الأفق المظلم، والقمر يسطع بهيًّا مكتملًا من الشَّرق، يتصاعد بلطف بين شواشي النَّخيل.

28

"يـا مِرآتي.. يـا مِرآتي.. لماذا يخلق اللـه وجوهًا قبيحة الطَّلْعة مثل هذا الوجه الملطوع على صفحتك الآن؟!".

مشَّـط "زياد" شـعره الرَّمادي الخفيف أمام مرآة حوض الحمَّام، قبل أن يضع عليه كاب "الكاسكيت"، وعندما همَّ بالخروج من باب الشـقَّة وقـف أمام مرآة أخـرى، ثُبِّتت في جدار أحـد أركان الصَّالة، ليلقي نظرة أخيرة على هندامه.

"يـا مرآتي.. يا مرآتي.. لمـاذا خلقني الله فقيرًا للدَّرجة التي لا تجعلني قادرًا على شراء مجرد قطعة قميص؟!".

خطف حقيبته وعلَّقها على كتفه، وخرج من الشقَّة، نزل السلالـم، ورمى نفسه في زحام الشَّوارع.

بشر، بشر، بشر، وجوه عابسة، جلود مرتعدة بالصَّقيع، أنوف تنز بالمخاط، عالم مملوء بالقبح، حتَّى وإن كانت هناك ابتسامات فإنَّها مبتورة، مشوَّهة.

السَّعادة!؟

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.

"لِـمَ خلقـتَ الإنســان في كبد!؟ كنـت تسـتطيع أن تخلقه في راحة بال!".

"مش هانســى أبدًا منظر ابويا وهُوَّ واقف على رصيف حداشـر فِ محطّـة مصـر.. مافيـش ف جيبـه غير جنيـه واحد.. صوته لسَّـه بيرن ف وداني لغاية دلوقتي.. وهُوَّ بيقوللي.. ربنا يستر وما شحتش ف القطر".

بالكاد يتمكَّن "زياد" من ركوب الأوتوبيس الذي سـيوصله إلى "التَّحرير"، ويندس في زحام الركَّاب.

"عالـم من التُّعسا المخدوعين".

"وبيحبُّوا ربِّنا!".

"تانـي تاني تاني.. راجعيـن للحيره تاني.. للنَّـار.. والعذاب.. من تاني".

يتحـرَّك بصعوبة إلـى مقدِّمة "الأوتوبيـس"، تمهيـدًا للنزول في "التَّحرير"، كان السَّائق يستمع لآيات من القرآن الكريم، تنبعث من "راديو" مثبَّت بجوار النَّافذة التي عن يمينه، وثمَّة مشاعر ارتسمت على وجهه استفزَّت "زياد"، ملامح الطُّمأنينة والرِّضا.

الشَّارع في غاية الازدحام، السيَّارات لا تتحرَّك، أصوات آلات التَّنبيه تصم الآذان، ودفء ناتج عن تلاحم الأجساد داخل "الأوتوبيس" يكاد يتحوَّل إلى حرارة لاسعة، والسَّائق مبتسمًا، هادئًا، يسمع القرآن من "الرَّاديو".

شعر "زياد" بأن نارًا ترعى في فمه، وأنَّها ستأكل لسانه، إن لم يسأل السَّائق هذا السُّؤال:

- إنت مبسوط أوي كدا ليه؟!

نظر السَّائق إلى النَّاحية اليمنى، التي انطلق منها السُّؤال، فرأى أكثر من عشرة رؤوس، بدت كلُّها متشابهة، فيما عدا رأسًا وحيدًا، يلمع وجهه ببياض فاقع، وتبرق قمَّته بشعر رمادي، ولم يساعده الزِّحام في أن يبذل محاولة ما لمعرفة أي لسان، من الألسنة التي تحتويها هذه الرُّؤوس، هو الذي سأله هذا السُّؤال العبيط، لكن هذا لم يمنعه من أن يجيب بنبرة معتزَّة بالإيمان:

- عشان أنا مُسلم.

جاءت هذه الإجابة على وجع "زياد" فابتسم ابتسامة ساخرة، وقال:

- ما احنا حواليك كلِّنا مسلمين.. ومش مبسوطين أوي كدا.. ولا حتَّى مبسوطين نص كدا.. دا احنا مش مبسوطين خالص.

ورغم أن السَّائق انهمك في لف عجلة القيادة لدورات كاملة متتالية، محاولًا الخروج بـ"الأوتوبيس" إلى جانب من الشَّارع بدأت السيَّارات تتحرك فيه، إلا أنَّه قال كلامًا لا يُقال إلَّا بعد تأمُّل طويل:

- بُص يا بشمهندس.. المسلمين نوعين.. نوع منهم دهب أصلي عيار اربعه وعشرين.. النُّوع التَّاني بأه ربِّنا ما يجعلنا منهم.. نوع زي الدَّهب العِيره.. يُبرُق ومالُوش تَمَن ف السُّوق.

ضحك "زياد" وقال:

- وانتَ بأه الدَّهب الأصلي واحنا العيره!

استمر السَّائق في ممارسة الحكمة، فضرب صفحًا عن الغمز واللمز في كلام هذا الأمهق، وقال:

- المسلم اللي بصحيح هُوَّ اللي يسلِّم أمره لله.. فيقوم يبقى مطَّمن كدا وراضي بحاله.

لقد وصل الحوار إلى النُّقطة الحسَّاسة التي تفور في روحه، النُّقطة المجروحة، مصدر وجعه، فنسي أنَّه يتكلَّم مع مجرد سائق "أوتوبيس"، أي رجل لا يمتلك مرجعيَّة مستنيرة، ولا حتَّى يعرف أصول ثقافة الحوار، فقال وهو يزم شفتيه:

- طب واذا كان ربِّنا هُوَّ سبب المشاكل؟!

فجأة، وبشكل غير متوقَّع بالنِّسبة لـ "زياد"، خرج من فم السَّائق صوت حاد، مسرسع، عال:

- إيه؟!

وبعنف مال "الأوتوبيس" إلى يمين الشَّارع، وبينما كانت العجلات الأربع تتوقَّف عن الحركة، كان السَّائق يزعق محمومًا:

- ربِّنا سبب المشاكل؟!

وضغط على زر فتح الباب وصرخ:

- ارموه برَّه "الأوتوبيس".

قال "زياد" بصوت مخضوض:

- مش من حقَّك تنزِّل...

قاطعه السَّائق وهو يهب واقفًا ليترك كرسيَّه ويتَّجه إليه هائجًا:

- حقَّك إيه يا بن الكافره؟!

لم يكن هناك من حل سوى أن يسارع "زياد" بالهرب، خاصة وأن ثمَّة لكزات بقبضات المحيطين به من الركَّاب استشعرها تخبط جنبيه وظهره، وبينما يشرع في القفز من درجات "الأوتوبيس"، إذا به يتلقى على قفاه صفعة مدوِّية.

كانت الصَّفعة مهينة جدًّا، فدار، وهو في الهواء، برأسه، لينظر إلى مَن فعلها، في نفس اللحظة التي بدأ الباب معها في الانغلاق،

فرأى بوضوح كل الوجوه تنظر ناحيته بغيظ، وشعر بقفاه وقد تفرَّق بين النَّاس، وسمع صوت السَّائق وهو يتسرَّب من الباب، قبل أن ينغلق تمامًا، كان حادًّا وهو يقول:

- تلاقيه علماني ابن كلب.. ما هم ملوا البلد.. أستغفر الله العظيم.. ولاد الزواني! أنا مش عارف ربنا مضايقهم فِ إيه.. أستغفر الله العظيم؟!

29

قافلة من خمسة جِمال، يسوسها ثلاثة رجال من البدو، تقطع صحراء "وادي النَّطرون" ببطءٍ متناهٍ، متَّبعة خطَّة محدَّدة، المسير ليلًا، والسُّكون نهارًا، فالشَّمس قاسية، والليل أَحَنّ، عتمة السَّماء صافية، والنُّجوم تتلألأ كجواهر حرَّة، وهسيس الصَّمت، ورغاء جمل يمشي الهوينى في صفِّ القافلة.

هناك مهمَّة معيَّنة تنجزها هذه القافلة بانضباط تام كل شهرين، إنَّها تحمل طعامًا، وعصائر، وأدوية، وبعض ما يلزم لحياة إنسانيَّة في حدود الكفاف، من الكنيسة في "القاهرة"، إلى مجموعة من الرُّهبان انقطعوا للرَّب في الأعماق السَّحيقة من الصحراء الغربيَّة البلقع.

هذه المرَّة لم تحمل القافلة طعامًا وأغراضًا إنسانيَّة وفقط، وإنَّما حملت راهبًا جديدًا، قرَّر أن يعطي كل حياته القادمة للرَّب، وأن يتفرَّغ لهذا العطاء، ولا يبلغ التَّفرُّغ تمامه إلَّا في فراغ الصَّحراء، حيث كل شيء خامل، ضعيف، باهت، لا يقوى على التصدِّي لحركة القلب في اتجاه الملكوت؛ لحيته لم تزل نابتة بعد، ووجهه

أبيض، يمتزج بتلك الصُّفرة التي تصبغ جلود الذين يواظبون على سهر الليالي، عيناه ضيِّقتان، حادَّتا النَّظرة، ترتع فيهما حيرة، وجسده نحيف ممصوص، كأنَّه مصاب بمرض "السُّكري".

يهتز فوق سنام الجمل هذه الهزَّة الرَّتيبة، ونسيم الصَّحاري رقيق، ونور النُّجوم خافت، بالكاد يكشف عن بساط رملي لا حدود لآفاقه، مثل سطح بحر راكد، وإذا كانت عيناه قد اعتادت هذا المشهد الذي لا يتغيَّر، إلَّا أن قلبه لم يعتده بعد، ولم يأنس به، واستغرب هذا من نفسه، فكم كان مشهد الصَّحاري ساحرًا عندما كان يتخيَّله وهو يقرأ عنه في الكتب، التي تكلَّمت عن مناقب الرُّهبان القدِّيسين، ممَّن انقطعوا لعبادة الرَّب فيها، وكم تمنَّى لو أنَّه فعل مثلما يفعلون.

وها هو في قلب هذا المشهد السَّاحر، يتنامى قلق روحه، يحن إلى زوجته.

يغمض عينيه بقوَّة، ويقبض عضلات جفنيه، ينفض رأسه بهزَّة قويَّة، يريد أن يقذف بـ "مِرثا" بعيدًا، مُخليًا مكانها لـ "يسوع"، فأي تفكير، بدءًا من هذه اللحظة، في امرأته سيكون خطيئة.

إنَّه يمضي في طريق الرَّب، ينطلق نحو الرُّوح القدس، "يسوع" يفتح له ذراعيه، فكيف يسمح لقلبه بالانشغال عن "يسوع" ولو بزوجته الحبيبة؟!

انتبه لصوت حادي القافلة، يشدو مشروخًا بخشونة حناجر البادية، كان عذبًا، رغم خشونته، يساير خشونة الصَّحراء:

"لمَّا البنات كلَّموني... راح العذول قال لابوهم... ليهم نُهود كاللموني... يا بخت مِن قلَّبوهم".

يشدو الرَّجل بحب المرأة، حتَّى لو كان يحدو جِمال القوافل!

"صوت حوَّاء أعلى من صوت الرَّب".

هتف، في سرِّه، مفزوعًا:

- اغفر لي يا "يسوع".

ليل الصَّحراء ساحر، والجِمال تمضي ببطء، تقطعه بصبر، وأرنب جبلي يمرق من حين إلى آخر بجوار القافلة، وأخيرًا ظهرت في عتمة الأفق كتلة صخريَّة، كسرت استواء رمال الصَّحراء، كانت في حجم بيت صغير، تقترب كأنَّها موجة عاتية ضالَّة على سطح بحر مستكين.

صاح أحد الرِّجال بصوته البدوي، وقد نشَّطه ظهور هذه الصَّخرة الضَّخمة:

- ها الخيمه قَرُبَت.. نِريح النُّوق.. وناكلو لقمه.. ونشربو شاي.

رغت الجمال الخمسة دفعة واحدة، و هي ترفع رقابها، و تهز رؤوسها، تعلن عن سعادتها الكبيرة بالاستراحة، بعد طول مسير، على الرِّمال المُجهِدة.

30

عندما أُذِّن لصلاة الفجر، وارتفع صوت الإنسان بشرخ ضعفه، خاشعًا للقوة العليا، كان جسدان صغيران يتسلَّلان خارجين من مدخل ميضأة مسجد "السلحدار" بشارع "المعز"، أحدهما أطول من الآخر، وأعرض.

لم يكن اللقاء الحميمي عابرًا، فلقد منحهما الحياة بعد أن شارفا على الموت جمودًا.

مشيا ناحية "الأزهر"، الكلاب عادة تعوي، مع أذان الفجر، عواءً معجونًا بشتاتها في الشَّوارع، ثم دقائق قليلة، وانساب إلى أذنيهما صليل كنائس بعيدة.

مشيا من غير كلام، يتسكَّعان أمام أبواب الحوانيت المغلقة، واقتربا من عربة "بليلة"، يتسامى منها دخان بهيج، يفوح بروائح القمح المغلي الممزوج باللبن، وله ملمس الدِّفء.

أمسك بيدها ومال بها إلى العربة، وطلب طبقين، وقبل أن يأخذهما أخرج قروشًا مد يده بها إلى صاحب العربة، الذي نظر إليه

مندهشًا، قبل أن يقول:

- كل صُبحيَّه بتاكل البليله كادو.. إيه اللي جرا الصبحيَّه دي؟!

ثم غمز بعينه:

- واللا عشان معاك برنسيسه يعني؟

ضرب الخجل وجه الولد فاحمر جدًّا، واستدرك صاحب العربة:

- الطَّلب عليَّا الصُّبحيَّه دي كمان.. لاجل عيون البرنسيسه.. ربنا يلم شملكو على أهاليكو..

جلسا متجاورَين على الرَّصيف، وأخذا يلتهمان الدِّفء والشَّبع بشراهة.

طبق البليلة هو أوَّل ما قدَّمه لها، كما أنَّه، منذ ساعة، كان قد قدَّم لها أحاسيس ومشاعر عرفتها لأوَّل مرَّة.

حتَّى هذه اللحظة لم تكن رأت وجهه جيِّدًا، لكنَّها لمست في نفسها ألفة يمنحها إياها، قال:

- انتي اسمك ايه؟

- "زينب".

- أنا اسمي "أشرف".

تمنَّت ألا يفارقها، وشعرت به لا يريد أن يفارقها، وعندما أشرق نـور الصَّباح، وخطفت أوَّل نظرة لوجهه، رأت خط شـارب خفيف جدًّا ينبت فوق شفتيه، واندهشت.

قال:

- ما تيجي نعيش مع بعض.

ابتسمت ولم تتكلَّم، فأكمل بصوت متحمِّس:

- نعمـل بيت سـوا.. تقعدي فيه.. وتبقي سـت بيـت محترمه.. وتبقي ملزومه منِّي.

كلام غريب جدًّا، لكنَّها أحسَّـته جميلًا جدًّا، والأنثى وإن كانت طفلـة تحـن لشـيئين، أن تكون فـي مسـؤولية حبيـب، وأن تصير أم عيال.

يقدِّم لها "أشرف"، ولأوَّل مرَّة، بعد فقدانها لأسرتها، الأمان.

"مع إنه لسَّه عيِّل.. لكن كان راجل".

31

قضـى "أبـو أميـرة" أول رحلـة سـفر إلـى "القاهـرة" بالسـيَّارة "الميكروبـاص" الجديـدة، وما إن عاد بها إلى "طهطا" حتَّى ركنها أمـام بيتـه، ونـزل منهـا، وقبـل أن يغلق بابها، أزاح مسـند الكرسـي إلـى الأمـام، وأخرج كيسًـا بـه تشـكيلة من حلويـات "المشـبِّك"، و"الهريسـة"، و"الفوليَّة"، و"السمسـميَّة"، و"الملبن"، اشـتراها من أحد محلَّات الحلوى الشَّـعبية في حرم السيِّدة "زينب"، على سبيل التبرُّك.

أغلـق البـاب، ودار حولهـا، يتأكَّـد مـن انغـلاق جميـع أبوابها ونوافذها، ثم اتَّجه إلى باب بيته.

سـيَّارة جديدة، أوَّل مرَّة تقف أمام بيته، ويمكن للمرء أن يستنبط منها الفأل، فكثيرًا ما سـمع أن رسـول الله قال إن الفأل في شـيئين: "المرأة، والدَّابة". يُمكن، فور بدء المعيشة مع أيِّهما معرفة إن كانت بَخيتة مُبخَتة، جلَّابة سعد، أم إنَّها منحوسة، وش فقر، لهذا، وقبل أن يدخل إلى بيته، استدار بهدوء، ونظر إليها وهي تبرق تحت إضاءة

فلوريسينتيَّة ذهبيَّة، تنسكب من عمود ينير، وحيدًا، بين صف طويل متوقِّف عن العمل، نظر إليها طويلًا، يحاول المعافرة مع الزَّمن، واستطلاع المستقبل، ومعرفة إن كانت هذه السيَّارة مُبختة جلَّابة سعد، أم طرَّاحة هموم.

وانتهى إلى أن يهمس لها بعجز:

- مشوار بكره يا سِت الحسن أهم مشوار ف حياتي.. وقَدمِك حايبان.. يا قَدَم سعد.. يا قدم..

كان الشَّارع قد خلا تمامًا من أي حركة، فالوقت توغَّل إلى أبعد كثيرًا من منتصف الليل، وهو وقت تمارس فيه برودة ليالي "يناير" منتهى عنفوانها، فاستدار نحو باب بيته، ودلف منه سريعًا.

استقبلته زوجته مبتسمة، وهي تغالب نومًا ثقيلًا استيقظت منه، كعادتها، فور سماعها لصوت محرِّك السيَّارة وهو يهدر، ويخفت، استجابة لمحاولات "أبو أميرة" ركن السيَّارة لأقرب مسافة من جدار البيت.

وكالعادة، مدَّت يدها لتحمل عنه الكيس وهي تقول بصوت متكسِّر:

- حمدِ الله عَ السَّلامه.

أعطاها الكيس، وبسمة ساخرة ترف على شفتيه، وبينما يلقي

بجسده على إحدى الكنبات الثلاث المرصوصة في الصَّالة، قال:

- والله انتي رايقه قوي يا مَرَتي! مش عارف كيف جايلك نوم؟! ما خايفاشي من مشوار بكره؟!

كانت تفتِّش في محتويات الكيس الذي وضعته على المنضدة الصَّغيرة، الموضوعة في منتصف الصَّالة، عندما قالت:

- واخاف ليه؟! لينا رب اسمه الكريم.. واللي ليه رب اسمه الكريم ما ينضامشي.

لم يعجبه هذا الكلام، لقد كان خائفًا، وسيريحه أكثر لو أبدت الخوف مثله.

قام من مكانه، واتَّجه إلى التِّلفزيون، وشغَّله، وبينما كان ينتظر سطوع الشَّاشة قال:

- الكريم دا ليه تلات سنين مش عاوز يجود علينا بحتِّة عيِّل! هايجود علينا بكره؟!

ارتفع صوت زوجته، مستنكرًا، وهي تلكزه بقبضة يدها من الخلف، في ضلوعه، لكزة هيِّنة:

- أستغفر الله العظيم.. إيه اللي عاتقوله دا يا "درديري"؟! إيَّاك تقول الكلام دا تاني.. إحمد ربِّنا ع اللي انت فيه.

زعق "أبو أميرة":

– ماقولتلـلك مِيـت مرّه ما تقوليليشـي يـا "درديـري".. أني "أبو أميـره".. قوليلي يا "ابو أميـره".. الدِّنيا كلَّها دلقيتي عاتقوللي يا "ابو أميره".

لا يسـمع "أبو أميـرة" زوجته، وهـي تناديه باسـمه الحقيقي، إلَّا ويلمع فـي خاطره جزء من ذكرى الليلة التي قضاها مع "سوسـن"، وكيف أنَّها، لمَّا عرفت اسـمه الأساسـي، أخذت تضحك في غنج، قبل أن تقول:

– "درديري".

لقد مطَّت في الاسم وقصَّرت، وعلَّت وخفَّضت، حتَّى بدا وكأنَّه ليس اسمه الذي يعرفه، ويتجاهله من فرط ما يستشعر غباوته.

يحـس بـدفء أصابعها، وهي تـدور حول رقبته، تمص شـفتيه، وتهمس:

– "ديدِّي".. انت السوَّاق الوحيد اللي حاطط ريحه حلوه.

اندهش، وقال:

ـــ الوحيد!؟ وايش عرفك ان انا الوحيد فيهم؟!

ضعضعت صوتها، وميَّسته، قالت:

- ما انا نمت معاهم كلُّهم.

وأطلقت ضحكة تحيي الميِّت، وتسطله، قبل أن تميته مرَّة أخرى.

نفض "أبو أميرة" رأسه بقوة، يلقي بذكرى هذه الليلة بعيدًا، واستدار متَّجهًا إلى الحمَّام، وكان يغلق بابه، من الدَّاخل، عندما جاءه صوت زوجته:

- وهِيَّ وينها "أميره" دي عشان اقولَّك يا "ابو أميره"؟! دي لِسَّاها ف علم الغيب.. وللا انت متجوِّز من ورايِه.. ومخلِّف اللي ما تتسمَّى دي وانا معارفاشي؟!

خلع جلبابه، وعلَّقه في الشَّماعة المثبَّتة في خلفية باب الحمَّام، وبينما يخلع "صديريه" قال:

- لا.. مش متجوِّز.. بس لو بُكره الدُّكتور قال ان العيب منِّك.. هاتجوَّز بعد بُكره.

كان يغيظه عدم خوفها، وثقتها الواضحة بالله، وبنفسها، هذه المشاعر التي افتقدها هو نفسه، فأراد أن يحرِّك خوفها بما قال، ويزعزع هذا اليقين، لكنَّه فوجئ بها تضحك، وتقول:

- طب لو الدكتور قال ان العيب منِّك انتِه.. أعمل ايه انا عاد؟

كان يضبط مزج الماء البارد بالسَّاخن، وقد وقف عاريًا، عندما

سمعها تستدرك من غير انتظار لإجابته:

- هاتجوَّز واحد غيرك بعد اربع شهور وعشر تِيَّام.

صرخ:

- اقفلي بوزك يابت الرَّفضي.. يا مَرَه يا عديمة الحيا.

أخـذت تضحك، لكنَّهـا كانت قد ضربت علـى وتر، في روحه، لـم يُضرَب عليه من قبـل، فأصدر نغمة مفزعة، أبكـت قلبه، وزادته خوفًا من غده.

32

جلس "حميد المِجَري" على عتبة باب غرفته، الشَّمس تؤذن بالمغيب، تنعكس أشعَّتها واهنة على نهايات الأدوار العُليا للعمائر المرتفعة، وعلى بعض انحدارات جبل "المقطَّم".

الغروب، المغارب، أوقات دوَّارة من الزَّمن، لا يحبُّها، يشعر بها وكأنَّها مملوءة بقوة أسطوريَّة تدفع العالم إلى الليالي الميِّتة، وهو لا يحب الليالي؛ لأنَّه يتحوَّل فيها إلى نصَّاب خطير، نصَّاب ذاع صيته حد أنَّ وسائل الإعلام المرئيَّة، والمسموعة، والمقروءة، ظلَّت لفترة طويلة تُتابع عمليَّاته الكبيرة، وطرق هروبه النَّاجحة، حتَّى اضطراره مؤخَّرًا للجوء إلى هذا المكان، بعد تضييق الخناق عليه.

يشد "المِجَري" أنفاسًا بطيئة، متقطِّعة، من الشِّيشة المنتصبة أمامه، الإجهاد يعذِّب ملامح وجهه، يغيب وينظر إلى باب الحجرة الملاصقة لحجرته.

ثمَّة طائرة نفَّاثة في ارتفاع شاهق، تمخر عباب السَّماء، وقد انعكس عليها نور الشَّمس الغاربة، فأخذت تلمع كقطعة ذهب تشق الجَو، بينما خطَّان دقيقان من دخان أبيض يتدفَّقان من مؤخِّرتها.

هبَّت فجأة دُفعة ريح، فأسقطت قطعة من الفحم المشتعل، المرصوص فوق حجر المعسِّل، لتتدحرج بسرعة قبل أن تستقر فوق نملة فارسيَّة سوداء، كانت تضرب في دنياها.

تطبَّق جسد النَّملة وهي تزوي، وضاقت عينا "المِجَري" وهما تريان هذا المصرع البشع، وتقلَّصت عضلات وجنتيه، وخطَّا الدُّخان الدَّقيقان في السَّماء بدآ في الانتفاخ، والأطراف البعيدة منهما بدأت في التبعثر.

نظر إلى بيوت "إسطبل عنتر" المرميَّة على حواف جبل "المقطَّم"، بيوت مُهمَلة، يسكنها منسيُّون، يتعلَّقون بخيوط دخانيَّة تُخلِّفها الطَّائرات النَّفاثة، خيوط لا تَبقى على حالها، وإنَّما تنتفخ، وتتبعثر في السَّماء قِطعًا من سحابات صغيرة، تتوهَّج بحمرة الغروب.

شيء يتخبَّط في صدر "المِجَري" جعل وجهه يتقلَّص، كسطح بحيرة تهزُّه موجات ناعمة.

هذا الذي يجري معه يدوِّخه، ظهور نبي في حياته، ولا يستطيع تكذيبه.

فما زال صوت الحضرة المحمَّديَّة، الفخيم، يتردَّد في وجدانه بأفصح لسان عربي مبين:

- أنا النَّبي لا كذب. أنا ابن عبد المطَّلب.

ثـم وقع حوافر الفـرس، وهي تركض مبتعـدة، يمتزج بالصَّوت المصطفى يأمره:

- الزم أخي.. الزم أخي.. الزم...

كان قد سمع المشايخ وهم يقولون إن مَن رأى الرّسول، صلوات الله وسلامه عليه، في المنام، فقد رآه حقًّا.

وهو لم يره في المنام مطلقًا، وإنَّما رآه في اليقظة!

عجائب!

ولقد رآه بإرادة هذا الشَّيخ! هو من استدعى الحضرة المحمَّديَّة لـه، التي لـم تكذِّب نبوَّة "صنـع الله"، حتَّـى لم تستنكرها، بل إنَّها أمرته:

- الزم أخي....

وقـف "المِجَـري" علـى سـاقين مرتعشـتين، البيـوت المتشـبِّثة بحـواف الجبـل بدأت فـي إضاءة أنوارهـا، و العمائر في الأسـفل، وجزء من "النِّيل" يبدو في الأفق معتمًا، همس لنفسه:

- لا يفـل الحديد إلَّا الحديد.. ولولا مـا هو نبي.. ما كانش قِدِر يحَضَّر نبينا "محمَّد".

تحرَّك "المِجَري" في اتِّجاه حجرة "صُنع الله"، وأمام بابها وقف

طويلًا، رغبة مُلحَّة تجتاحه في الكلام مع هذا الإنسـان الذي أربكه، كما لم يربكه أحد في حياته، لكنَّه يخاف.

"دا بيقـول كلام عجيـب أوي.. كلُّه كُفر والعياذُ بالله.. إزاي ما فيش شياطين ولا آخرة؟!".

"كلُّـه كـوم وسِـيدنا النَّبـي يطلـع يقولِّـي: الـزم أخـي ! دا كوم تاني".

أنهـى صوت "صُنع الله" حيرة "المِجَري"، إذ انسـل من الدَّاخل يدعوه:

- ادخل يا "حميد".

دخـل، كان "صُنـع اللـه" يقف فـي منتصـف الحجـرة، متوجهًا بكامل جسـده ناحية بابها، كأنَّه ينتظـر دخول "المِجَري"، الذي نظر فـي عينيـه نظرة خاطفة، قبل أن تنكسـر، هذه النَّظـرة، وتهوي بعينيه إلى الأرض.

ثمَّة سؤال يعصف بذهنه، يريد أن يوجِّهه إلى هذا المُنتصب، في منتصف الحجرة، مجلَّلًا بِخُيلاء لا يَعرف له "المجري" وصفًا، غير أنه خُيلاء:

- إنت نبي بجد؟ ولا انت أكبر نصَّاب قابلته ف حياتي؟

33

يا لها من شجرة!

إنَّها تضرب في السَّماء عميقًا، وجذعها مثل صخرة ضخمة، فيه أخاديد عميقة تُنبئ عن قِدَم وجودها في الأرض.

يا لبهاء هذه الشَّجرة! إنَّها ناصعة بخضرة أوراقها، تبدو في وقفتها على ضفَّة "النِّيل" مثل إلهة فرعونيَّة ترعى الحياة.

حيَّة ضخمة، ويا لها من حيَّة! اقترب طولها من المترين، استدارة جسمها مثل استدارة دجاجة ناضجة، وحراشيف جلدها تلوَّنت بالأخضر الممزوج بالبرتقالي، الممزوجين بالأزرق، ألوان ضُربت كلُّها بالأحمر القاني، تتخلَّلها شبكة مُستدقَّة من خيط ذهبي يبرق في أضواء الشَّمس الغاربة.

إنَّها حيَّة تنسل من أخدودها، في طين ضفَّة "النِّيل"، وقت الغروب، تنساب إلى أعلى، تزحف بثقة على لحاء هذا الجذع العريض كصخرة، تنزلق على جزء رسمته لنفسها لا تخطئه، في عينيها غدر، في عينيها بهجة، في عينيها ظلام دامس، وعلى

سطحهما تبرق صور عصافير فزعة، لكنَّها، الحيَّة، قبل أن تواصل صعودها إلى الأعشاش الهشَّة، وعند جزء محدَّد من هذا الجذع العتيق، تبدأ في الدَّوران حول نفسها بقُطر يتَّسع لمتر واحد، تدور بطيئًا جدًّا، قبل أن تأخذ حركتها في التَّسارع، ليتحوَّل دورانها، بعد فترة، إلى دوَّامة بصريَّة خلَّابة، تبتلع الأنظار فتَعمى عمَّا حولها.

34

المقدِّم "عمرو" يحب العرِّيف مجَّند "ياسر المبروك"، والوحيد، من بين جميع الضُّباط، الذي يطلب خط "السِّنترال" ثم لا يسأل عنه بعد ذلك، وإنَّما يظل ينتظر حتَّى يتم توصيله إليه.

كان هذا السلوك الجميل، من المقدِّم "عمرو"، يدفع "ياسر" إلى الاهتمام به، وبشكل خاص، قدر الإمكان، فعند أقرب فرصة تنتعش عدَّة التليفون، في مبيت "المقدِّم"، بحرارة الخط.

ذات مرَّة سـأله "ياسر" عن سـبب عدم إلحاحه في طلب الخط، مثل بقيَّة الضُّباط، فأجابه:

– يـا بني أنا مقدَّر الدَّوشـه اللـي انت وزمايلك بتبقـو فيها.. ربُّنا يكون ف عونكو..

ثم ضحك، واستدرك:

– ثم أنا كدا بحرجك أكتر على فكره..

وعندما خرجا، "ياسـر" والمقدم "إحسـان"، مـن مكتب القائد،

كان الموضوع قد كبر، فقرار محاكمته عسكريًّا يستلزم أن يُدار، أولًا، إلى مكتب قضاء الفرقة ليتم التَّحقيق معه.

أحزن هذا القرار قلب المقدِّم "إحسان" فقال للرَّائد المسؤول عن مكتب القضاء:

- بالرَّاحه عليه شويَّه.. دا مظلوم.. وانتو عارفين غباوة العقيد "هاني".

جرى التَّحقيق عاديًّا، وقلب "ياسر" يتقلَّب على جمر صدره رعبًا من سجن الفرقة، لم تهمّه المحاكمة ذاتها، التي ستفقده دُفعة كاملة، ما يتسبَّب في تأخير خروجه عن بقية أفراد دُفعته مدَّة لا تقل عن ثلاثة شهور، كما أن شهادته العسكريَّة لن تكون ممهورة بالكلمة التي يحلم بها كل مَن ينتظر إنهاء هذه الخدمة الشَّاقَّة: "قدوة حسنة".

فقط ما كان يهمُّه هو موضوع سجن الفرقة.

فهذا السِّجن يختلف عن سجون الكتائب، والألوية، التي تضم، عادة، عساكر يتم تكديرهم من قِبل قياداتهم بالحبس لبضعة أيام، لأسباب بسيطة، لا تتعدَّى النَّوم أثناء الخدمة، أو التَّأخير في تنفيذ أمر عسكري ما.

أمَّا سجن الفرقة فيضم مَن حُكم عليهم في محاكمات عسكريَّة، لارتكابهم جرائم كبيرة، مثل الهروب من أداء الخدمة العسكريَّة، أو ضرْب درجة، أو رتبة، وهؤلاء المحكومون قد يقضون في الحبس مددًا تزيد على السَّنتين، يتسلَّون خلالها على المحابيس الجدد، يسخرون منهم بطرق دنيئة، ويُطلقون عليهم أسماء نساء، ويأمرونهم بأداء أحقر المهام داخل السِّجن.

وكل هذا لا يليق بتركيبة شخصيَّة "ياسر المبروك".

ثم، ستنقطع مكالماته مع "نوال"، وهذه كارثة روحه، وقلبه.

كان المقدِّم "إحسان" قد سلَّمه لمكتب القضاء ومضى، وبعد انتهاء التَّحقيق كان لا بد من أن يستلمه أحد الشَّاويشيَّة ليسلِّمه، بدوره، إلى سجن الفرقة.

الكابوس يقترب رويدًا رويدًا ليجثم على صدره، وقد لا ينزاح عنه إلَّا ميتًا، هل يمكن فعلًا أن يتنفَّس وهو محبوس؟!

ومع أن الجيش، في ظل الأوامر العسكريَّة الجافة، المقيِّدة للحركة جدًّا، ليس سوى سجن كبير، لكنَّه في النهاية محل شرف، كما أنَّه ليس سجنًا مكتملًا، ففي الليالي المقمرة يتسامر العساكر على الرِّمال المتوهِّجة بالفضَّة، ويذهبون كثيرًا إلى "الميس" ليشاهدوا التِّلفزيون، حيث الصّول "نجيب"، الذي يظل يوجِّه

"الإيريال" حتَّى يتمكَّن من التقاط الإرسال الإسرائيلي الذي يبث أفلام الجنس، هكذا تبقى هناك أوقات ممتعة.

لكن السِّجن الحقيقي خنقة، مطلوب فيه من الجسد أن يعصي، رغمًا عنه، كل ما تطلبه النَّفس، أن يدخل في بيات الحبس، وهو المعتاد على الشَّطط.

كان لا بد من أن يمر على مكتب المقدِّم "عمرو"، الذي يقع سجن الفرقة تحت مسؤوليته.

35

مثـل عاصفة الرِّيح تجري السـيَّارة "الميكروباص" على الطَّريق الزِّراعي السَّريع، "القاهرة ـ أسوان"، وهيستيريا حادَّة أصابت معظم ركَّابهـا، فـ"أبـو أميـرة" ارتفعـت عقيرته بإنشـاد مقطع مـن قصيدة شـدا بها أحد المنشـدين مدحًا في الرَّسـول "محمَّد"، صلوات الله وسلامه عليه:

"كملـت محاسـنه.. فلـو أهـدى السَّـنا للبـدر عنـد تمامـه لـم يخسـف... وعلـى تفنُّـن واصفيه بحسـنه.. يفنى الزَّمـان وفيه ما لم يُوصف".

بينما بعض الركَّاب يصفِّقون تصفيقًا مُلحَّنًا، يتجاوب مع إنشاده، والبعض الآخر غرق في هتاف النَّجوى:

- حَيْ.. حَيْ.. حَيْ.

- مدااااد.. مدااااد.

رفع "رشـيد" عينيه مـن جريدته القديمة، وأخذ ينظر إلى سـقف السيَّارة، القسِّيس غارق في حالة من الصَّمت الحائر، و"خميس" يهز

رأسه برتابة وقد أغمض عينيه، بينما دموع تنساب من زاويتيهما.

فجأة ارتفع صوت "سوسن" مختنقًا بالبكاء:

- ابني.. ابني.. ابني..

كانت تحتضن الطِّفل بقوَّة، تكاد تعصره، لكن المرأة، في رد فعل سريع، قامت من مكانها وهجمت عليها، ومدت ذراعيها تحاول نزع الطِّفل منها، وكانت تزعق بذهول:

- هُوَّ إيه اللي ابنك دِه يا مَرَه يا مجنونه انتي!؟

كاد الطِّفل يختنق تحت ذراعي "سوسن" المتشبِّثتين به، وتصرخ:

- دا إبني يا خطَّافة العيال.. وحمة التِّينة تحت باطه.. دا إبني..

زعقت المرأة، وقد تحوَّلت عيناها إلى جمرتي نار:

- ابنك ايه يا خرفانه انتي؟ ووحمة تينة ايه دي كَمَاني؟ ما كل العيال مليانه تين وعنب.

كان كل مَن في السيَّارة، تقريبًا، قد أدار رأسه ناحية ما يحدث، ما عدا الجالس، على يمين "صنع الله"، في استكانة تشبه حالة بيات شتوي لدى ضفدعة، هو الوحيد الذي لم يلتفت ناحية ما يجري، رغم أن صوت "سوسن" كان قد أوقعه في حيرة كبيرة.

ليس عنده شك في أن الصَّوت لـ"سوسن"، إنَّه يحفظها من طول ما عاشرها، لم تكن بالنِّسبة له مجرَّد بنت خلقها الله للذَّته، وإنَّما شاركته في عدد من عمليات النَّصب، وأخلصت له للدَّرجة التي دفعته إلى التفكير في أن يفتح باب قلبه كي يحبُّها، وكلَّما فكَّر في هذا الأمر هاتفه خاطره:

"تحبَّها ازَّاي؟! انت اتجنِّنت؟! دي نامت مع طوب الأرض.. حياتها كلَّها بؤس وانت مش ناقص".

كانت قد حكت له عن رضيعها الذي فقدته بعد ولادته.

"ياااااه.. سبحانك يا رب.. من غير ميعاد.. ولا اتِّفاق.. تركب ف نفس العربيَّه اللي راكبها انا!؟".

أَمَال رأسه قليـلًا نحو يساره، ينظر إلى "صُنع الله" المنكفئ بوجهه إلى ذراعيه المتعلِّقتين بمسند الكرسي، لم يرفع رأسه من فوقهما أبدًا، غير مرَّة واحدة.

"تلاقيها كرامه من كراماته".

ظلَّ "حميد المِجَري" يغالب رغبته القويَّة في الاستدارة برأسه إلى الخلف والنَّظر إلى "سوسن" المفجوعة، وكلَّما قرَّر أن يفعل دحر نفسه؛ لأنَّه لو التفت، مجرَّد التفاتة واحدة خاطفة، ستكون الخسارة أكبر من أن يُحاط بها لتُوصف بالفداحة.

سيكسر العهد الذي بذله للنَّبي "صُنع الله"، وبالتَّالي سيُحرم من صُحبته، ومن عِلم لو حصَّله استوى له الحال استواءً عجبًا، يُمكِّنه من الزَّمان، فلا يهرم، ولا يموت، وكذلك يضمن له ألَّا يجوع، وألَّا يشقى، فلا يضطر لممارسة النَّصب، ويعيش حكيمًا.

أي التفاتة ستؤدي إلى الكارثة؛ لأنَّها ستنسف القاعدة الإرشادية الدَّالة على صلاحيَّة روحه لهذا الأمر العظيم، صلاحيَّة اكتشفها هذا الجالس عن يساره، يدَّعي النَّوم العميق، بينما قلبه مطَّلع على كل ما يدور حوله، وربما كان يتحكَّم فيه غاية التحكُّم.

صرخت المرأة في وجه "سوسن" المتشبِّثة بالطِّفل المستكين في حضنها كالميِّت:

- ابنك إيه يا مَرَه يا مجنونه.. أنا معايا شهادة ميلادُه أَهَه.

ودبَّت يدها في صدرها، وأخرجت ورقة بدت مستندًا رسميًّا، شهادة ميلاد حقيقيَّة.

صرخت المرأة، بدورها، وهي تفرد الورقة أمام الأعين:

- آدي شهادة ميلاده أَهَه.

لن ينسى "المِجَري" رقصة اللهب.

حجرة "صُنع الله"، سكون الثُّلث الأخير من الليل، و"المِجَري" يجلس على الأرض، مستندًا بظهره إلى الجدار.

كان قـد أراد المغادرة منذ سـاعات طويلة، لكـن "صُنع الله" لم يسـمح له، وطوال هذه السَّـاعات لـم يكن هناك غيـر الصَّمت، فقط أصوات حياة تستسـلم لموات هذا الوقت المتأخِّر من الليل، داخل بيوت المدق الضَّيق، وعشـش سفح الجبل، فقط جرى بينهما حوار من جملتين.

- عايز انام يا سَيِّدنا.

- مَن يحارب الموت لا ينام.

لـم يتمكَّـن "المِجَري" مـن مواصلـة المحـاورة، فملامح وجه "صُنـع الله" لم تُوحِ بأيِّ رغبة فـي الكلام، وإنَّما أوحت بأنَّه، وإن كان موجودًا معه بجسده، يسيح في عوالم أخرى.

ظـل يغالب النَّوم طـوال الوقت، يثقل جفناه ليسـقطا مُسـدلين، فيبـذل مجهودًا خرافيًّـا لرفع هذين الغشـائين الرَّقيقيـن، يحاول أن ينتبه، حتَّى لا ينهار رأسه على صدره، ورغم ذلك يخطفه النَّوم.

وبينمـا يرفـع جفنيـه من لحظـة وسـن غالبـة، ارتطمـت أنظاره المهزومـة بلهـب اللمبـة "العويـل" المعلَّقـة علـى الجـدار الـذي بمواجهته، فوجده يتراقص.

تراقـص مـن غيـر وجـود هـواء يرقِّصـه، اهتـز شـمالًا ويمينًـا، قبـل أن يدور بشـكل حلزوني بدأ متَّسـعًا، وانتهى مسـتقرًّا في حال الاستقامة.

هيَّج اللهب دوَّامة نور سحبت نظره، بينما يسمع صدى اللسان العربي المبين وهو يقول بصوت يزلزله:

- تنال الخلود بتمام معناه إذا استطعت الصَّبر على قطع المسافة من الانتظار إلى النَّظر.

لحظات، ولم يعد لهب اللمبة المستقيم مجرَّد ذؤابة من ضوء، وإنَّما اتَّسع.

وفي أقل من دقيقة صارت ذؤابة الضَّوء طريقًّا عريضًا صاعدًا نحو السَّماء يشع النُّور، وفي منتهاه حصان مجنَّح يطير متجهًا إليه، يتدلَّى فيتدنَّى، والنَّبي العدناني يقبض على اللجام بمنتهى التَّمكن، وشعره يطير خلفه، يصب الزَّيت من أطرافه الحرير، ويقول بأحسن لسان:

- الانتظار هو الالتفات.. والنَّظر تصويب..

يقترب الفرس المجنَّح في طريق النُّور مثل البرق، كان الفارس ينظر إليه عندما قال:

- التَّصويب أوَّل الحكمة.. والحكمة أوَّل النُّبوة.. فلا تلتفت.

حفظ "المِجَري" هذا الكلام المستغلق، كان الكلام أعجب من المشهد نفسه، ولقد اعتاد على العجائب التي تجري في حجرة

"صُنع الله"، فصرف اندهاشه للحظة عن المشهد إلى الكلام، فأحسَّه تعليمًا عاليًا من الحضرة المحمَّدية، لا يفهمه، وإذا كان "صُنع الله" أخًا لكل هؤلاء الأنبياء، فهو الوحيد الذي يمكنه فهم الإشارات المستغلقة فيما قالته الحضرة الشريفة، ويوضِّحها له.

- سِيدنا النَّبي قاللي صوِّب ولا تلتفت! مش فاهم حاجه يا مولانا!

- حدَّثك عن حكمة ونبوَّة؟

- طيِّب! باين عليك سمعته أهو!

السيَّارة "الميكروباص" تشق الرِّيح، تطير، لم يعد أحد من ركَّابها يرى ملامح الطريق، لا زروع، لا بيوت، لا جبال تحوِّم من بعيد، فبعضهم يتابع تطوُّرات مشكلة الطفل بين "سوسن" والمرأة، وبعضهم وصل ذهوله إلى منتهاه، لمَّا رأى العمامة الخضراء المنكفأة فوق الرُّسغين.

بالخصوص، القسِّيس، لقد ارتعد لمَّا رأى هذا، بينما الشَّيخ تصلَّبت عضلات وجهه كمن أصيب بالعماء.

"زياد" أخذ ينظر إلى المرأة، ذات الشَّعر الأبيض المهوَّش، وهو في غاية العجب، لا يصدِّق أن صدفة يمكن أن تجمعه مع بائعة المناديل هذه في سيَّارة واحدة.

وكان "أبو أميرة" قد انفصل تمامًا عن كل ما يجري حوله مُذ رأى العمامة الخضراء، مُذ شعر أن وليًّا صالحًا في سيَّارته، فاستمر يُطلق شدوه المدَّاح، وهو يصفِّق، وحيدًا، بوجد السَّكران:

"يا وجه سُبحان مِن زَيِّنُه.. ويا لسان سُبحان من لَقِّنُه".

36

هـذا الوجه المشـوَّه بالبياض النَّاصع له سـوق أيضًـا، فيها زبائن يمكـن أن تُقدِّره بثمن كبير، ففي الوقت الذي ينفر منه كل العاديِّين، يستقبله المميَّزون، دائمًا، بترحاب شديد.

فـي ليـل "الثُّلاثاء"، من كل أسـبوع، ينزل من شـقَّته في السـيِّدة "زينـب"، القريبـة مـن حرم قصـر "عابديـن"، ويتمشَّـى إلى "باب اللـوق"، وبينمـا يمر أمام عمارة "اسـتراند" لا بد مـن أن يلتفت إلى شـماله، لينظر إلى النَّاحيـة اليمنى من الممر الواسـع، الذي يخترق طابقهـا الأول بالكامـل، حيـث يسـتلقي هذا الرَّجـل على الأرض، مائلًا على فخذه اليسـرى، رافعًا صدره إلى درجة من درجتي سـلَّم رخامـي يمتد أمـام أبواب المحال المتراصَّة داخـل هذا الممر، وقد انهمك في الكتابة.

الرَّجل غريب الهيئة تمامًا، يبدو وكأنَّه قد خرج من كتاب التَّاريخ، وبالتَّحديـد من الفصل الخاص بالدَّولـة المملوكيَّة، وجه طويل، لو انجلى الاتساخ الذي علاه لسطعت بشرته ببياض مشوب بالحمرة،

لحية مسترسلة تلبَّكت بالقاذورات، وعمامة خضراء كبيرة للغاية طلتها الأتربة، وجلباب قصير لا يمكن تحديد لونه الأصلي بدقَّة.

دائمًا هو في هذا المكان، ودائمًا يكتب بانهماك عظيم، لا يرفع وجهه عن الورقة أبدًا، ولا تتوقَّف يده عن الحركة بقلم يلهث.

كثيرًا ما فكَّر "زياد" في أن يميل نحو هذا الرَّجل، ويحاول معرفة ماذا يكتب، وعندما همَّ مرَّة، بأن يفعل ذلك امتنع في اللحظة الأخيرة، كان الرَّجل مقطِّبًا جبينه بشكل لا يشجع أحدًا على أن يقاطعه، تقطيبة لها هيبة تدفع الجميع إلى احترام خصوصيَّته، إنَّه يكتب، والكتابة أرقى فعل إنساني، مُمارسها يُحترم وإن كان مجنونًا، ومتَّسخًا كل هذا الاتِّساخ.

في هذه المرَّة، رفع غريب الهيئة وجهه، وبالتفاتة سريعة نظر ناحية "زياد" العابر هناك، قبل أن يعود إلى الانهماك في الكتابة.

أربكت هذه الالتفاتة قلب "زياد"؛ لأنَّها كشفت عن عينين لامعتين بوعي لا يليق بمجنون، إنَّها نظرة مفكِّر، فيلسوف، نظرة قرأ عنها كثيرًا في كُتب علم النَّفس، ووصفها علماء الاجتماع، نظرة غوَّاص في بحور الحقائق، يتغنَّى بها العارفون في رسائلهم الصُّوفية.

انثنى إلى شارع "شريف"، باتِّجاه التَّقاطع مع شارع "عبد الخالق ثروت"، حيث هناك يدور يمينًا، وبعد خطوات قليلة يصل إلى عالمه الأثير في الـ "كاب دور".

قبل أن يدخل "البار" مال ناحية سيِّدة تفترش الأرض، تحت جذع شجرة بدت، في وقفتها بين العمائر الشَّاهقة، خارج سياق المكان، وقد وَضَعَت السَّيدة عددًا من لفائف المناديل الورقيَّة أمامها، وعلى حجرها يتنطَّط طفل صغير، لا يزيد عمره على العامين، اشترى لفَّة، ودلف سريعًا من الباب العتيق إلى عالمه الأثير، حيث السُّوق التي تعج بالزَّبائن الذين يثمِّنون قبح وجهه غاليًا.

يُحب الجلوس إلى منضدة فى الرُّكن، أي منضدة في أي رُكن، لأنَّه يُحقِّق له ميزتين، الأولى: في الرُّكن لن يباغته أحد ما بوجود مفاجئ، سواء كان، هذا الأحد، بائعًا متجولًا يبيع لوازم جلسات السُّكر من ساندوتشات ومزَّات، أو صديقًا لا يرغب بمجالسته في هذا الوقت، حيث يتمكَّن، فور رؤيته لأحد الصِّنفين، من رسم هذا الإحساس بالقرف على وجهه، يراه القادم فيحيد بعيدًا عنه.

الميزة الثانية: في الرُّكن انعزال يهيِّئه للمراقبة والتَّأمل، ينظر فيما حوله، ويفكِّر في الأحوال، وكيف أنَّه قد غطس بكامل قلبه في حب "راية"، وأن هذا الحب غلطة كبيرة، وأن الأجدر به ألَّا يحب بنتًا

عاديَّة مثلها، لا تستطيع اكتشاف الجمال الكامن في قبح وجهه، وأن ينتظر الحب في الـ "كاب دور".

وبينما السَّاقي يضع أمامه زجاجة البيرة، والكوب الزُّجاجي الطَّويل البرَّاق، وهو يبتسم ابتسامة واسعة، وقد فتح فمه ليصب كلامًا ترحيبيًّا كعادته، اقتحم خاطره هذا السؤال:

- مين قال الدُّنيا وحشه؟!

أجاب:

- انت يا حمار.

37

التَّجربة التي مر بها "خميس"، والخاصَّة بعملية التخلُّص من زوجته الخائنة، تؤكِّد أن داخل كل إنسان، وفي ثنيَّة مهجورة من ثنايا روحه، يربض قاتل محترف، وأن إنسانًا تدفعه الظُّروف نحو القتل، لأوَّل مرَّة، يُمكن أن يكون أكثر حنكة من قتَّال قَتْلَى مأجور.

وعندما كان "خميس" يقرأ عن الجرائم في صفحات الحوادث بالصُّحف المختلفة، أو يتابعها، في برامج التِّلفزيون، حسب ما تسمح به ظروفه، لم يكن يصدِّق المقولة التي يطمئن إليها رجال المباحث: "ليست هناك جريمة كاملة"، ولا يؤمن بأن القاتل لا بد وأن يترك دليل إدانته، بل يؤمن بنقيض ذلك، إنَّه، وبقليل من الصَّبر، يمكن للإنسان تنفيذ جريمة مكتملة تمامًا.

ولم يكن يتخيَّل، وهو كبير أكبر عائلة في نجع "الصَّوالح"، أنَّه سيضطر يومًا لارتكاب جريمة قتل يتخلَّص بها من زوجته، التي أحبَّها كما لم يُحب امرأة من قبل، لكنَّها خانته كما لم تخنه عاهرة من قبل.

أخرج علبة سجائره وسحب منها لفافة، في الوقت الذي كانت عيناه تجوبان الظَّلام الكثيف الذي غطَّى الحقول الممتدَّة بزراعات البرسيم، وعندما أشعل عود الثِّقاب، وأخذ يشد الدُّخان من طرف السِّيجارة المحترق باللهب، استنار عقله بفكرة غريبة، لكنَّه، على غرابتها، استحسنها جدًّا، ورأى أن مجرَّد ورودها في دماغه يعني أنَّه على الطَّريق الصَّحيح نحو تنفيذ جريمة قتل كاملة.

الفكرة ببساطة، ومن غير أقل نسبة تعقيد، هي أنَّه، وقبل أن يخطو أيَّ خطوة، يجب ألَّا يعتقد أنَّه سيرتكب أيَّ جرائم؛ لأن الجريمة هي فعل يَتم به الاعتداء على حق من حقوق الغير، وهو لن يفعل ذلك، هو، فقط، سيستعيد حقَّه المُعتدى عليه، أو، وبمعنى أدق، سينتقم لنفسه، فالخيانة تخطف من روح الإنسان ما لا يمكن استعادته، ولا مداواته، وكل ما سيفعله هو مجرَّد محاولة لإطفاء لهيب مستعر يأكل جدران قلبه، وهذا بعض من حقه، ليس كله.

وعندما توصَّل "خميس" إلى هذه القناعة، جاءته الومضة العبقريَّة، الومضة التي لا يمكن أن تبرق إلَّا في قريحة قاتل فائق، يندر أن يجود الوجود بمثله.

"انت مِش مجرم عشان تفكَّر ف القتل والليلِ مْلَيِّل.. كلَّها ساعه والَّا تْنِين والصُّبح يشقشق.. صفِّي نفسك بضي الشَّمش.. وفكَّر ف القتل على أقل من مَهلك".

النَّدى، في مثل هذا الوقت المبكِّر قبل الشُّروق، يبلِّل كلَّ شيء، يغسل كل الاتِّساخات، ولقد غسل عن روح "خميس" الغضب الأحمق، وأبقاها منتقمة بنقاء، تفكِّر برصانة، ودقَّة، في التخلُّص من هذه الخائنة بدون أي آثار جانبيَّة يُمكن أن تضيف له خسائر أخرى غير تلك التي حصلت له بالفعل.

ولقد كانت الشَّمس تشرق بكامل بهائها، صافية كبرتقالة ناضجة، من وراء نخيل دائمًا ما تنتصب في أي شرق، وعبير الصَّباح الشِّتائي منعش إلى أقصى درجة، والعصافير تشقشق بين أغصان أشجار "الفيكس" التي أحاطت بالبيت المنعزل، عندما قرَّر ألَّا يَجري شيء في الخفاء؛ لأن الخفاء هو الحقل الذي يهتم رجال المباحث بحرثه جيدًا، يجب أن يتم كل شيء في العلن، وهكذا فقط يمكن خداعهم.

ولم تكن الشَّمس قد ارتفعت في السَّماء بمقدار طول رُمح، عندما انهالت في عقله ترتيبات القتل، ترتيبات بديعة ومتكاملة.

ما هي الإشكاليَّة التي تُودي بالقاتل، في كل الأحيان، إلى السِّجن، أو الإعدام، بعد انكشاف أمره؟

الإجابة ببساطة، ومن غير أقل نسبة تعقيد، هي: اختفاء المقتول.

فغياب شخص بشكل مفاجئ، وغير مبرَّر، عن مسرح الحياة أو كواليسها يستدعي قطعًا أن يبحث الآخرون، أصحاب العلاقات المتشابكة معه، عنه، وهذا يؤدِّي بالضَّرورة، مع عدم حنكة القاتل، إلى انكشاف الأمر.

لذلك، وللقضاء تمامًا على هذه الإشكاليَّة، سيبادر "خميس" بتوضيح الأمر لكبير العائلة التي تنتمي "نوال" إليها، سيكشف له بوضوح، ودون أي مواربة، عن قراره بالتخلُّص من هذا الفرع، الذي إذا علم النَّاس بميله، سقطت شجرة عائلتهم، وضاعت مهابتها في قلوبهم، وهكذا سيضمن صمتهم إلى الأبد، ما يضفي انتعاشًا على معنوياته؛ لأنَّه لن يقتل في السِّر، وإنَّما سيفعل ذلك في العلن، وبتأييد ظهير من طرف المقتول نفسه.

أمَّا النَّاس العاديُّون، ممَّن يزورون البيت لأسباب متفرقة، كالبائعات والباعة الجائلين، أو الخدم الذين يقومون ببعض الأعمال المنزلية، كالخبيز، أو متابعة حظائر الدَّواجن، أو تنقية الغلال، أو عمل الجبن والزُّبد، فلا بد وأن يكون اختفاء الخائنة مُبرَّرا لهم، حتَّى لا يثيرون الأسئلة والشُّكوك، التي قد تدفع قسرًا في اتجاه ضرورة تدخُّل المباحث.

وعندما بدأت فكرة حل هذه الإشكاليَّة الجديدة تتقدَّم إلى عقله، في خطوات مركَّبة تحتاج إلى ضبط تواليها، ذهب يعمل لنفسه كوب شاي.

حتَّـى وهو يعمل الشَّـاي كان يفكِّـر في أنَّه لا يصـح أن يتخلَّص منها هنا، لا في البيت، ولا في الغيط، ولا حتَّى في نجع "الصَّوالح"، عليـه أن ينتهـي من هذا الأمر في مكان يبتعد جـدًّا عن الأمكنة التي تتفاعل فيها مجريات حياته، يريد أن ينتهي من هذا الأمر، ثم ينساه.

لمعـت الخاطـرة في ذهنـه مثل شـرر انفلت من قـدح حجرين، سيتخلَّص منها في صحراء "العبور" بـ "القاهرة".

إنَّـه يحفظ هـذه الصَّحـراء بحكم عملـه كمقاول لأعمـال البنية التَّحتيَّـة للمـدن الجديـدة، وهـي أنسـب مـكان لإخفاء جثَّـة إخفاءً محكمًا.

لكـن الأمـر، بهـذه الكيفيَّة، يـزداد صعوبـة، فكيف سـيمكنه أن يتحـرَّك بهـذه الخائنـة مـن "سـوهاج" حتَّـى "القاهـرة" ومنهـا إلى "العبور"، وقتلها، ثم العودة، دون أن يرتكب خطأً واحدًا يمكن أن يثير الشكوك حوله؟

عمومًـا، تنفيذ عملية قتل عبر خطوات صعبـة يعني، بالضرورة، أن خطوات اكتشافها ستكون أشد صعوبة.

رشف رشـفة طويلة من كوب الشَّـاي، وحدَّق ببصره في الجبل الذي يسد الأفق الغربي، وهمس لنفسه:

"عاوزه صبر".

38

خرج المقدِّم "عمرو" من مبيته عاريًا تمامًا، إلا من شورت قطني قصير جدًّا، ضيق جدًّا، فرأى، لأوَّل مرَّة، "ياسر المبروك" في أفرول غير مهندم، يقف أمامه أحد الشَّاويشيَّة، الذي سارع بأداء التَّحية، قبل أن يقول بصوت عسكري صاخب:

– يا فندم العسكري دا أصر انُّه يقابل حضرتك قبل ما يِدَّورع السِّجن.

فتح المقدِّم "عمرو" عينيه على اتِّساعهما، وقال، موجهًا كلامه لـ "ياسر المبروك":

– سجن إيه؟! إيه الحكايه يا عسكري؟!

– حكايه طويله يا فندم.. بس آخرها انا منتظر محاكمه عسكريَّه.. وقائد الفرقه أمر ...

قاطعه المقدِّم:

– طيب استنَّى.

ووجَّه كلامه إلى الشَّاويش:

- هات الورق أمضيلك باستلامه واتفضَّل ورِّيني عرض كتافك.

- تؤمر سيادتك يا فندم.

غادر الشَّاويش بعد أن أدَّى التَّحية العسكريَّة مرَّة أخرى، واستدار المقدِّم "عمرو" ناحية باب المبيت، وهو يقول:

- تعالَ ورايا.

داخل المبيت الفخم، بالنِّسبة لعنابر المجنَّدين، جلس المقدِّم العاري على كرسي بجوار السَّرير، بينما ظل "ياسر" واقفًا، تتأرجح في عينيه نظرة منكسرة، قال المقدِّم:

- إيه الحكايه؟!

حكى "ياسر" الحكاية، فانتفض المقدِّم "عمرو"، وزعق:

- عقيد ظالم ابن مَرَه هِرْمه.. وقائد ظالم ابن مَرَه هِرْمه.. انت بأه مش داخل السِّجن.

ارتجف قلب "ياسر"، ارتعش مستقبلًا الحياة التي داهمته مرة واحدة كعصف ريح مباغتة، وانقشعت نظرة الانكسار لصالح نظرة رجاء، وللحظة خشي أن يكون ما سمعه محض خيال.

لكن صوت المقدِّم "عمرو" كان متدفِّقًا:

- بُص.. أنا هاخلِّي تمامك السِّجن.. بس مش هاتدخله.. خلِّي حركتك بعيدة عن الأمكنه اللي ممكن يشوفك فيها حد من الاتنين الظَّلَمَه دول.. ولو رحت هنا أو هنا تدِّيني خبر.. عشان لو جَد جِديد أعرف اتصرَّف.

ثم نظر إلى "ياسر" وسأله:

- تمام؟

رأى في عيني "ياسر" ماءً يتقلَّب كالموج، لكنَّه لا يفيض، فهب واقفًا من كرسيِّه، وربت كتفه، وقال:

- اللي يغير على كرامته راجل.. ياللا ورِّيني عرض كتافك.

39

أُنيخت الجِمال، وأخذ الرِّجال في إعداد لوازم الاستراحة، بينما مضى القسِّيس، الذي يسلك برحلته هذه أول مراحل الرَّهبنة، إلى بعيد، يريد قضاء حاجته.

فِعل قضاء الحاجة مُخجل للنَّفس الإنسانيَّة العاديَّة، فكيف يكون الأمر مع نفس إنسانيَّة تطمح إلى سبر أغوار اللاهوت، والتحلِّي بالكسوة المقدَّسة؟

لا بد من أن يفعلها وهو بعيد عن محط رؤية هؤلاء البدو، والقمر ساطع، والرِّمال الصَّفراء تزيد النُّور الفضِّي توهُّجا، ورغم ضربه في الصَّحراء إلَّا أن صوت حداة القافلة، وهم يتسامرون، ما زال ينساب إلى أذنيه صافيًا جدًّا، كأنَّهم على بعد أمتار قليلة منه.

ليس له خبرة بالفلوات الفسيحة، تلك التي لا عوائق فيها تعترض الأصوات، خاصَّة في الليل، فتسري صافية، لتكون مسموعة بنقاء ولو كان مصدرها يبعد مئات المترات، فاستمر يبتعد.

لكن سؤالًا شيطانيًّا ضرب عقله، فرضه ظرف الحال؛ هل كان "المسيح" يضطر، في كل مرَّة يريد قضاء حاجته، إلى بذل مثل هذا الجهد للاختباء؟

لكم مثَّلت له، هذه الملاحظة الخاصَّة بتغوُّط ابن الرَّب، الإله المخلِّص، معضلة إيمانيَّة صعبة، لم يستطع أبدًا القفز فوقها لمواصلة الإيمان بمنتهى الرَّاحة النَّفسية.

لقد حرص الرَّب على إبراز معجزاته، وقدَّم دلائل عديدة على تجلِّي ألوهيَّته، وُلد من غير أب بشري، وقلب الماء خمرًا، وأحيا الأموات، وأعاد النُّور إلى العيون المظلمة، فلماذا لم يحرص على أن يتنزَّه عن قضاء الحاجة؟!

"أنا مش قصدي أبدًا أشكِّك فِ قدراتك يا رب.. ولا ف حكمتك.. الفهم ناقص عندي أنا.. أنا بس عاوز افهم".

سمع صوت أحد رجال القافلة:

- ها القِس بِعِد كِتير.. لَيُقع ف الرَّمل البلَّاعه.

سمع ولم يعِ؛ لأنَّه، في هذه اللحظة بالتَّحديد، كان ينظر إلى شيء لم يتخيَّل أن يراه في هذا المكان.

شيء ساحر.

عجيب.

الصَّحراء تنحدر أمامه بميل بسيط، بساط فوسفوري من غير أفق، وهناك، على بُعد ما يقرب من المشي لعشر دقائق فقط، انتصبت كنيسة ضخمة، لها برجان استطالا بالارتفاع، يلفُّها السُّكون، وإن كانت أضواء مهتزَّة، يبدو من احمرارها أنَّها تصدر عن شموع، تنسكب من زجاج بعض نوافذها الضيِّقة.

لماذا لم يخبره هؤلاء الحُداة بوجود هذه الكنيسة؟!

"مستحيل يكون دا سراب! السَّراب بيكون ف الضُّهر.. وبيظهر ف شكل مَيَّه.. لكن سراب فِ الليالي.. وف شكل كنيسه؟! مستحيل".

همَّ بالخُطى السريعة نحوها، على الأقل سيقضي حاجته بشكل آدمي في مكان مستور.

ولم ينسَ أن غيابه قد يسبِّب انزعاجًا لحداة القافلة، فأدار وجهه للوراء، لم يرَ أحدًا، لكنَّه زعق:

- أنا هازور الكنيسه دي وجاي.

ثوانٍ قليلة، وجاءه صوت أحد البدويين منزعجًا:

- ما في كنايس بِها الصَّحرا.. عاود يا ابونا.

ثم بعد أقل من ثوانٍ، تُعد على أصابع الكف الواحدة، جاءه صوت آخر، عميق وضاحك بسخرية:

- هـادي عفاريـت الصَّحرا يا غِـر.. تتصوَّرلك كنيسـه.. عاود يا مفتون.

توقَّـف، وحدَّق فـي المبنى الرَّاسـخ أمامه ببرجيـه الضَّاربين في السَّماء، تلتمع حواف ناقوسيهما ببريق أشعَّة القمر، وأنكر أن يكون العفريت، الذي هو نوع من أنواع الشَّـياطين، قادرًا على أن يتشـكَّل في هيئة مبنى ضخم لكنيسة مهمَّتها الرئيسية محاربة الشَّيطان.

ارتعد قبل أن يهمس لنفسه بالصَّلاة، وهو ينقِّل أنامل أصابع كفِّه اليمنى مضمومة ما بين جنبي صدره وجبهته:

- بسم الآب والابن والرُّوح القدس.. إله واحد.. آمين.

وفكَّر في أنَّه لو كانت هناك أيُّ شياطين فهي هذه الأصوات التي تحذِّره من التقدُّم نحو الكنيسـة، لذلك انطلق نحوها، غير مبالٍ بأي تحذيرات.

40

- "أشرف" ستّتني زي ما بيقولُم.. عملّي عشّه ف مخزن السّكه الحديد.. فِ مكان بعيد عن العيون.. وقالّي: من هنا ورايح أنا راجلك وانتي مراتي..

جفنا عيني "سوسن" رفّا، وبدأت ملامحها في الامتقاع، نُذُر الحكّاء الذي سيقص أمورًا محزنة، أو مفزعة، فنظر "المِجَري" في عينيها طويلًا، ينتظر بوحها، وقد أَعدَّ قلبه لنصل الألم.

الدُّموع سحّت من عينيها غزيرة:

- والله يا "مِجَري" ما عارفه ربِّنا بيعمل معايا كدا ليه! كنت يادوب هاحس انِّي مبسوطه.. عشّه مش مُهم.. ف حتّه مُرعبه مش مُهم.. لكن كنت ابتديت احس ان في حَد معايا فِ الدُّنيا دي.. عارف لما تكون ونسان كِدا.. عارف لما حَد يلف جسمه عليك ف برد الشِّتا ويدفِّيك.. حد كدا بيعمل حاجه عشان تبقى انت سعيد.

مَن يعيش يومه لأجل يومه، لا تراوده أحلام يحسب من أجلها كم مرَّ من الأيَّام، وكم سيمر، لا يفكِّر في الغد، ولا يستشعر مرور

الزَّمن، لذلك لم تستطع "سوسن" تحديد كم الأيَّام، أو الأسابيع، أو الشُّهور، التي عاشتها مع "أشرف" في هذه العشَّة المنصوبة في الهجران، لكنَّها تذكر أن دم المرأة تفجَّر منها هناك، وأن ثدييها تخمَّرا هناك، وأن جسدها اختلف هناك، وصوتها تثنَّى هناك.

كلما مرَّ قطار تتذكَّر القطار الذي كانت تجلس فيه بين أبيها وأمِّها، وتتذكَّر أن ملامحهما قد بدأت في البهتان منذ عرفت "أشرف".

- كان راجل ومات ميتة رجَّاله...

وانفجرت تشهق، وخرج من حنجرتها مواء قطَّة فقدت صغارها، واستدارت في الفراش حول نفسها مثل جنين، وضمَّها "المِجَري" إلى صدره بعنف، يتشبَّث بها محاولًا ألا ينهار هو الآخر.

انهد سدُّ البوح في قلب "سوسن"، وأحبالها الصَّوتية أوتار كمنجة بائسة.

- أنا جوَّه العشَّه.. باعمل طبق سلطه..

ضحكت، من بين دموعها، وهي تقول هذه الكلمة، ثم قالت:

- مِش سِت بيت بأه!؟

وشهقت مرَّة أخرى بمواء قطَّة.

وانهار "حميد المِجَري" فعلًا، وأخذ يبكي في صمت، كل

النَّـاس مخلوقـة وفيهـا زِر الأسـى، أي حكايـة مؤلمة تضغـط عليه فينطلق الحزن، يرفرف بأجنحة خفافيش.

"زَي ما يكون البِت دي بتحكي بؤسك يا مِجَري".

كانت الشَّـمس تميل نحو العصاري، عندما سـمعت "سوسـن" أصوات أقدام تتقدَّم باتِّجاه العشَّـة، أقدام تضغط الزَّلط بين فلنكات قضبان السِّكك الحديديَّة، أقدام لأكثر من شخص.

فجأة أطل عليها وجه شـاب، في مثل عمر "أشـرف"، لكنَّه وجه ينضح بالشَّـر، وبينما المباغتة تلجمها مدَّ يده ناحيتها يريد الإمسـاك بها، فارتمت للوراء محاولة الابتعاد عنه، دخل العشَّة بكامل جسمه، وقبـض على عضدها، وحـاول جرَّها إلى الخارج، وعندما تشـبَّثت بالأرض دخل آخر، وجذبها من شـعرها فاستسلمت من فرط قسوة الألم الذي انتشر في جلد جمجمتها ووجهها، ولمَّا صارت بالخارج حاولت الصُّراخ فهجم الثَّالث عليها، ودفع كفَّه على فمها فسـقطت بين الأرجل.

عندما سقطت انكشفت ساقاها، لتؤكِّدان أن الفقر ليس له سطوة علـى الجمال، وليشـعل عريهما فتيل القنبلـة الكائنة تحت جلد كل واحـد منهم، فلا يصبرون علـى الذِّهاب بها بعيدًا، وإنَّما يبدءون في اغتصابها فورًا.

كانت هذه أوَّل مرَّة تتعرَّض فيها للاغتصاب.

وبينما الشَّمس في العصاري فعلًا، استسلمت بعد طول معاركة، وبدأ الثَّلاثة في نهشها نهش الضَّواري الفتَّاكة لفريسة مسالمة.

مرَّ قطار بضجيجه الصَّاعق، ثم حلَّ سكون أرعشته أنفاس ملتهبة، وأنين يتَّجه إلى الغيبوبة.

وعندما مرَّ قطار آخر، وقبل أن ينتهي صخب عجلاته القاسية، سمعت أحدهم يصرخ صرخة مريعة، وسائل ساخن يضرب وجهها، سائل أحمر، انفتحت عيناها فرأت رأسًا مشدوخًا يميل للسُّقوط بعيدًا عنها، قفز الاثنان الآخران مبتعدين عنها في لمح البصر، واتَّجها لمحاصرة "أشرف"، الذي كان يمسك بحجرين، دارا حوله بينما يدور هو حول نفسه.

أخذت "سوسن" تنظر برعب إلى الرَّأس المشدوخ وقد انكفأ بوجهه في الزلط، وبركة دماء تتَّسع حوله، وعندما أخرج كلاهما مطواة شُرع نصلها، أدركت أن موقف "أشرف" صعب جدًّا، وكذلك موقفها.

41

إنَّـه في السـيَّارة، يتابع كل ما يجري فيها، كمـا أنَّه، وفي التَّوقيت نفسـه، يُتابـع أحوال أنـاس عديديـن موجودين في أماكن شـتَّى من العالـم، يراهم رأي العين، ولقد صـدَّق "المِجَري" كلام "أبو أميرة" عن هذا الشَّـخص الذي رآه على مَصَد الشَّاحنة التي كادت تصطدم بهم، رغم أنَّه لم يرَ هذا شـخصيًّا، إنَّها مواصفات هذا الإنسان الذي يقـدِّم لـه، كل يوم، ما يؤكِّد أنَّه نبي ابتُعـث كي يدعو إلى قهر الموت على الأرض، وتحقيق إرادة الله من خلق "آدم" باستخلافه فيها.

كان قد قال له:

– عندمـا يتخلَّـص الإنسـان مـن المـوت سـتنتهي كل الجرائم، سـيتحوَّل إلى خالد يمتلك الزَّمن، وسيفجِّر طاقة الصَّبر، حيث كل شيء حتمًا سيأتي أوانه، ولا داعي لارتكاب الجرائم.

حيَّر "صُنع الله" أن البشريَّة، في هذا العصر الذي يُبرز لها العقل، كل ساعة، عشرات الأدلَّة على أنَّه لم يعد هناك ما يمكن أن يُقال عنه "مستحيل"، إلَّا أنَّها لا تريد أن تعي أمرًا بسيطًا، أن الموت ليس أكثر

من منظومة في جينات "آدم"، منظومة معقَّدة.

لكن أي مُعقَّد هذا يُمكن أن يبقى معقدًا أمام إرادة الإنسان الذي نُفخ فيه روح الله الخالق؟

دائمًا ما يفتح "المِجَري" فمه كلَّما سمع كلام "صُنع الله" عن قدرة الإنسان على قهر الموت، ربما يُمكنه فَهم أنَّه لا شياطين هناك، يمكنه أن يَبلع أنَّه لا آخرة هناك، فهذه أشياء لا يراها، لكنَّه يرى الموت في كل مكان، مفعوله سارٍ في معظم الأوقات، لم يرَ أحدًا أفلت منه، إنَّه جبَّار لدرجة لا تقاوم، الموت يعصر الجميع.

قال بنبرة آيسة:

- كُلُّه بيموت يا مولانا.. ما حَدِّش بيقعد حَي.

ابتسم "صُنع الله" وقال:

- أنا حَي.

واستدرك:

- وهناك مَن هزم الموت مثلي وبقي حيًّا.

- زَي مين بَأَه؟!

- أخي "عيسى".

- "عيسى" مين؟!

- "المسيح".

- سيِّدنا "عيسى"؟!

- نعم.. إنَّه خليفة من خلفاء الله في الأرض.. وقدَّم للبشريَّة الدَّليل على أنَّها تستطيع ما هو أقوى كثيرًا من ألَّا تموت.. إنَّه أحيا الموتى.

- دي معجزة ربَّانية يا مولانا!

- "آدم" هو المعجزة الربَّانية.. وكل ما يفعله "آدم" هو معجزة الإنسان.

- أستغفر الله العظيم.

لَوَى "صُنع الله" شفتيه امتعاضًا، وقال مستنكرًا:

- ما الذي قُلتُه مُهينًا لربِّنا كي تستغفره نيابة عنِّي؟!

استدرك غاضبًا:

- أي الآلهة أعظم يا ضعيف العقل.. الذي يخلق كائنًا عاديًّا ساذجًا.. أم الذي يخلق كائنًا خارقًا يأتي بالمعجزات؟!

دار رأس "المِجَري"، فلأوَّل مرَّة يسمع مثل هذا الكلام، سؤال بسيط، إجابته بسيطة، لكنَّها تقلب كل شيء.

"اللي يِخلَق الأقوى هو الأعظم فعلا".

شعر "صُنع الله" بأن "المِجَري" يحاول الفهم بشكل جاد، وأن عقله آخذٌ طريقه نحو التفتُّح، فأخرج من صدره زفيرًا مرتاحًا، ونظر ناحية النَّافذة المغلقة دائمًا، وقال بصوت الآمل، بلسانه العربي الفصيح:

- لو آمن النَّاس بهذه الفكرة.. سيتحوَّل هذا الإيمان إلى سياط تلسع ظهور العلماء.. ليهرولوا نحو الاكتشاف العظيم.. فك شفرة الموت.. والوصول إلى الخلود.

وبينما يعود "المِجَري" بوعيه إلى ما يجري في السيَّارة، سمع صدى صوت "صُنع الله":

- رسالتنا أن يؤمن النَّاس....

صرخت "سوسن":

- وإيه يعني شهادة ميلاد؟! ممكن تكون مضروبه.. لكن الوحمه ما بتنضربش.. دا ابني أنا.

تمنَّى "المِجَري" لو أنَّه يتدخَّل لصالح "سوسن"، لكن أمانة المستقبل كانت قد عُلِّقت في رقبته.

صرخت المرأة وهي تشد "سوسن" من شعرها:

- هاتجيبي الواد واللا اودِّيكي القسم؟

لم يتدخَّل الركَّاب المحيطون بهما فورًا، كانوا يستغربون الذي يجري، منهم مَن اعتقد أن الذي يحدث لا يزيد على كونه تمثيلية نصَّابين، ووراءها مقلب خاسر لمن يتدخَّل، لكن عندما وصل الأمر إلى أن تقلع أصابع المرأة بعضًا من شعر "سوسن"، وصوت بكاء الطِّفل يؤكِّد أنَّه كاد يختنق، أدركوا أن المشكلة حقيقيَّة جدًّا.

42

قضـى الشَّـيخ "غريـب قـرون الخِطِبـي" نصـف نهار فـي مدينة "طهطا"، بدأه بالذِّهاب إلى "جَمَل"، رجل سمين، له كرش مهول، يفترش الأرض أمام التُّرعة الكبيرة، المارَّة غرب حدود المدينة، وقد وضع موقدًا كبيرًا يوِشْ تحت "حلَّة ألمونيَّة" واسعة للغاية، وفَرَش، إلـى جـواره، بضع حُصُـر من الحلفـاء الجافَّة، يجلـس عليها زبائنه وهـم يقرِّبـون إلى أفواههم أطبـاق الفول النَّابت الفائرة بالسُّـخونة، يتناولون، بالملاعق الرَّخيصة، ما هُشِّم فيها من كِسَر الخبز الشَّمسي الجـاف، مضافًا إليها البهارات الحرِّيفـة، والليمون، ما يجعل مذاق محتويات الطَّبق في غاية الطَّعامة واللذة.

تباشير الصَّباح المبكِّر، عربات "الفورد"، موديل 1948، لم تملأ الدُّنيا ضجيجًا بعد، وماعز وغنم شـريدة تتشـمَّم الأرض باطمئنان، تقضم بمشافرها حشائش نَبتت على غير نسق.

جلس الشَّـيخ "غريب" على أحد هذه الحُصُر، بين بضعة زبائن، وأخذ يتناول طبقه بشراهة، لكن أذنه كانت تنصت في ذات الوقت، وبشـراهة أيضًا، إلى صوت الشَّـيخ "الطَّبلاوي"، المنسـال بالرَّونق

الأخَّاذ، من جهاز مسجل "ناشيونال" كبير، وضعه "جَمَل"، بجواره على الأرض.

﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾

الصَّباح في مستطلع البرد، والزَّبائن يتنفَّسون البخار مثل تنانين أسطوريَّة صغيرة، عندما قال أحدهم، مخاطبًا عم "جَمَل"، بنبرة ساخرة:

- تصدِّق انَّك راجل عديم حَيَا عَ الصُّبح.. يعني ما لقيتشي غير سورة "هَيْتَ لَك"؟!

خرج صوت "جَمَل" يرعد، كأنَّه رغاء يتفجَّر من حنجرة ناقة:

- بنسمُّعوكم حاجه خضرا تفتح نفسيَّاتكم وانتوا بتقولوا يا فتَّاح يا عليم يا رزَّاق يا كريم عَ الصُّبح..

ثم استدرك، وهو يملأ طبقًا لأحد الزبائن:

- بس عليَّا الطَّلاق انتوا ناس ما تستاهلوا تستفتحوا غير بسورة وجاء الموت بالحق ذلك ما كنتم منه تحيدو!

هتف الشَّيخ "غريب"، وقد قطَّب جبينه للغاية:

- إه.. يا بوي بلاها عك ف كلام ربِّنا.. مش كْدِه يا عم "جَمَل".. أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ

مَـا كُنتَ مِنهُ تَحِيد﴾ صدق اللـه العظيم.. إحنا حانعكُّو ف كلام ربِّنا كماني؟!

زِيُّ المشايخ الأزهريَّة، من جبَّة سوداء، وطربوشة حمراء ملفوفة بالأبيض، له سـطوة ألجمـت "جَمَل"، فلم يفتح فمـه بخصوص ما قاله من قرآن باللفظ الخطأ، وإنَّما قال، رافعًا صوته إلى أعلى ذُراه:

– طيِّـب ماشايفشـي يا مولانـا.. وَدِّ الكلاب معاجباشـي "هَيْتَ لَك".. هُوَّ انا جبتها من عندي؟! مِش كلام ربِّنا دِه؟!

وضع الشَّيخ "غريب"، طبقه على الأرض غاضبًا، وهتف:

– أستغفر الله العظيم! كلام ربِّنا كلُّه زِين..

قال الزَّبون، الذي فتح الموضوع، وهو يبتسم ابتسامة ماكرة:

– واحنا قولنا حاجه يا مولانا.. بس الســت اللي فِ السُّــوره دِيْ كانت ولا مؤاخذه يعني ...

ثم انقلبت ملامح وجهه من تعابير المكر، إلى التَّحدِّي الغاشم:

– تعرف يا مولانا معناتها إيه "هَيْتَ لَك" دَهَيْ؟

وفي الوقت الذي كان الشَّيخ "غريب" يبحث عن أكثر الكلمات إجلالًا ليشرح بها المعنى، قال الرَّجل:

– يعني بتقول للرَّاجل تعالَ "..."

ارتبك الشَّيخ "غريب"، لكن صوتًا آخر ارتفع محتدًّا:

- ينعن دين أبوك يا "شوقي".. اقعد معووج واتكلم عِدِل.. انت حاتخرِّف ف كلام ربِّنا؟!

زعق "شوقي" في وجه الذي سبَّه:

- وانت مال أبو قالِع مَيْتِين ناسك.. هُوَّ كلام ربِّنا واللا كلام ابوك؟!

- مال ابو قالِع مَيْتِين ناسي كيف يعني؟! تِغلط فِ ستِّنا "زَلايخِه" واسكتلك يعني؟! وانت مال اللي خلَّفوك؟ كانت ستِّنا "زَلايخِه" اَمَّك ياك؟!

لم يكن هناك بُد من أن يترك الشَّيخ "غريب" المكان، خاصَّة بعد ارتفاع الأصوات، واشتباك اللغط، وسب الآباء في صباح الله.

وبينما يتَّجه إلى أحد المقاهي كانت جملة "هَيْتَ لَكَ" تتردَّد في عقله بشرحها البسيط، المباشر، الفج، الذي قاله "شوقي"، واندهش من أن الله قد أنزل في قرآنه المجيد جملة لفظت بها امرأة تعاني فعلًا من هياج جنسي سبَّبه جمال النَّبي "يوسف"، جملة مملوءة بالغنج الأنثوي، ومشحونة بالشَّبق.

أكله قلبه:

"أستغفر الله العظيم".

جلس على أحد كراسـي المقهى، اختـاره على الرَّصيف، وأخذ ينظـر في هذه الأجسـاد الهزيلـة، الفقيرة، التي تمضـي إلى أرزاقها بوجوه مكدودة، عربات "الـكارُّو" التي تجرّها حمير منهكة، تدلَّت آذانها إلى أصداغها، وابتسم.

- النَّاس دي مِش ساهله.. فِ قالِع أبو مَيْتِين روصانهم تفاسير بِت هِرمِه.. يخرب بيتك يا "شوقي"! جِبتها كِيف دي؟!

عندما انتهى من شرب القهوة كانت الحياة قد دبَّت حوله بكامل عنفوانها، ازدحم الشَّارع بعربات "الفورد" الوهَّاجة، رغم قِدم موديلَّاتها، ومر أمامه الأوتوبيس الخاص بهيئة النَّقل العام، الذي يمشي ببطء عجوز مصمص الزَّمن عظامه، يكركب وهو يتخبَّط في المطبَّات، عربات "الكارو" كثر عددها، وقد حُمِّل بعضها بالبرسيم، وبعضها بخضراوات الحقول من "جرجير"، و"فجل"، و"بقدونس"، و"شمر"، و"كزبرة"، وبعضها بشكائر الأسمنت، والنَّاس تكاثروا كالنَّمل، وارتفعت أصوات الرَّاديوهات بمزيج من قرآن وأغاني الصَّباح، وانطلق الشَّيخ "غريب"، في جولة تسويقيَّة، إلى محالِّ المانيفاتورة، واشترى من أحدها، بعد طول فصال، قطعتين من قماش ماركة "خمس خمسات"، صوف إنجليزي أصلي، واشترى من محل آخر شالًا كشميريًّا منقوشًا بورود مرسومة بالقلم الهندي، ومن عند الجزَّارين اشترى من حلويات اللحوم، "كرشة"، و"رأس"،

و"كوارع"، وفي كل مشـاويره هذه كانت "هَيْتَ لَكَ" تنغز فكره نغزًا مؤلمًا.

عندمـا أُذِّن لصـلاة الظُّهـر، كان التَّعـب قـد تمكَّـن منـه، فتـرك مشـترياته، على سـبيل الأمانة، في المقهى الـذي جلس فيه صباحًا، وذهـب إلى مسـجد "الرَّحمـن" القريـب، والذي يـؤم مصلِّينه أحد أصدقائه من المشايخ الأزهريَّة.

فـي الميضأة، وهـو يهم بالتوجُّه إلى أحـد الصَّنابير، لفت انتباهه هـذا الرَّجـل الذي تكوَّر حول نفسـه، أمـام المياه المتدفِّقـة، يتوضَّأ بسـكينة شـديدة، عمامته خضـراء ضخمة، وجلبابـه خفيف وناصع البيـاض، لحيته المرسـلة مفرطة الطُّول، لكنَّه لـم يكترث له، فكثيرًا ما التقى بأمثال هذا المجذوب، الذين يطوِّفون بالبلاد من غير قرار، يلبُّون نداءات أولياء الله الصَّالحين المدفونين تحت القباب، فتوضَّأ ودخل صحن المسجد.

رأى صديقـه الإمام يصلِّي سُـنن ما قبل الإقامـة، فصلَّى، بدوره، ركعتي تحيَّة المسـجد، وعندما انتهى من أدائهما، نظر ناحية صديقه فوجده يجلس متربِّعًا، يحرِّك شفتيه ببعض الأذكار، فاتَّجه إليه.

تحاضنا، وقبَّلا الأكتاف، همس بنبرة راجية:

- رَقِّـب يا شـيخ "محمود".. فـي حاجه النَّهـارده قلقاني قوي..

ويـارب يكون ف صدرك نور ربَّانـي.. وتقدر توضِّحهالي.. وتطمِّن قلبي.

ملامح الترقُّب طفت على الوجه، الشَّاب، الحسن:

- وانا اروح فين فِ عِلمك يا شيخنا..

شوَّح الشيخ "غريب" بذراعه الأيمن، في حركة أراد بها التَّواضع، وواصل الهمس:

- ميتَى كانـت بالعلم؟! سـاعات ربِّنا يفتح عَ الجاهـل ويقفِل عَ العالم..

ورغم أن التَّعبير انفلت جارحًا للشَّـيخ "محمود"، إلَّا أنَّه ابتسـم وهو يقول:

- ربِّنا يفتح علينا.. قول يا شيخنا الجليل.

- فِ قلبي شيء من "هَيْتَ لَكَ".

انقلبت لهجة الشـيخ "محمـود" الصَّعيديَّة، تلقائيًّـا، إلى العربيَّة الفصحى باللكنة الأزهريَّة، وهو يتساءل:

- شيءٌ من رَسمِها.. أم من أحكام قراءتها.. أم من معناها؟

- معناها يا شيخ "محمود".. النِّصيبة فِ معناها لا في مبناها.

دخـل الرَّجـل، صاحـب العمامـة الخضـراء، صحن المسـجد،

يمشـي بخطـوات رزينة، بطيئـة، متجهًا نحـو المنبر، حتَّـى إذا صار بجواره، أمام المحراب، وقف يصلِّي.

بدأ الشَّيخ "محمود" يشرح "هَيْتَ لَكَ":

- السَّيده "زُليخَه" فُتنت بجمال سيِّدنا "يوسف"...

فقاطعه الشَّيخ "غريب" بحدَّة:

- انـت هاتطبِّل ف المتطبِّل يا شـيخ "محمـود"؟! أنا عارف كل الـكلام دَهَه.. بُص.. مـن غير لف ولا دوران.. مش "هَيْتَ لَكَ" دي معناها دعوه للرَّذيله؟

تنحنح قبل أن يستدرك:

- واحـده لا مؤاخـذه يعني.. مش قادر اقولَّك الكلمه اللي قالها "شوقي"!

ويبـدو أن الشَّـيخ "محمـود" قد خمَّـن الكلمـة، وأدرك كم هي مريعـة، حتـى كأن صاعقة ضربت وجهـه فأفقدته الحيـاة، وأصابته بالتَّحجُّـر، فبقي مثبِّتًا نظره في عيني الشَّـيخ "غريب" لحظات شـعر بها الأخير، وكأنَّها دهر، فتساءل مرتبكًا:

- مالك؟!

وقبـل أن يجيـب الشَّـيخ "محمـود" علا صـوت المـؤذِّن بإقامة الصَّلاة من مكبِّرات الصَّوت الموزَّعة في أركان المسجد.

وعندما انتظمت الصُّفوف للصَّلاة، لاحظ الشَّيخ "غريب" أن الرَّجل، صاحب العِمامة الخضراء، يقف عن يمينه.

علا صوت الإمام بتكبيرة الإحرام:

- الله أكبر.

ساد الصَّمت الخاشع بعدها ممزوجًا بأصوات آلات تنبيه لسيَّارات تجري في الشَّارع، وأصوات ناس غرقانة في الدُّنيا، ونباح كلاب تتناوش من أجل قضايا تخصُّها، ونهيق حمير مكدودة، وسمع الشَّيخ "غريب" شيئًا آخر أدهشه.

كان صاحب العمامة الخضراء يتمتم:

﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

43

كان العرِّيف مجنَّد "ياسر المبروك" - قبل أن يتعرض لهذه الواقعة المهينة مع العقيد "هاني علي الدين" - يحب العمل على "التَّحويلة" في الورديَّة الشِّنجي بالتَّحديد، والتي تبدأ من السَّاعة الحادية عشرة مساءً، وتنتهي السَّاعة السَّابعة صباحًا.

هي أجمل ورديَّات التَّحويلة؛ لأنَّها الأهدأ، فلا ضغط على خط "السِّنترال"، ولا حتَّى الخطوط الدَّاخلية، بالتَّالي لا أوامر عسكريَّة هناك، ولا صخب، وإنَّما سكون الليل، وأزيز صوت سريان الكهرباء في "التَّحويلة" واللمبات "النِّيون" المضاءة يشبه طنين بعوضة، ونُباح بعيد لكلاب تسعى في ظلمة الصَّحراء، نباح يذكِّره بليالي قريته الصَّغيرة، الملقاة في حضن جبل رابض في البعيد من غرب نيل "سوهاج"، فتهيج مشاعره.

هناك تنبح الكلاب وهي تجري خلف الثَّعالب في الحقول، وتنبح وهي تشاكس بعضها، وتنبح وهي جائية، كما يحدث حول الفرقة بالضَّبط، مع فارق واحد يلمسه "ياسر" كقروي يحيا بالضَّرورة في

رفقـة كلب أو أكثر، كلاب قريته لا يكون نباحها بنفس شراسـة نباح كلاب الصَّحراء، هناك النُّباح "مَلَكي"، وهنا النُّباح "ميري".

وفـي ليلة بدا أولها عاديًّ، وبينما "التَّحويلة" هادئة، شـعر بملل شرس يداهمه، والملل لن يُفضي ليلًا إلَّا إلى النَّوم، والنَّوم سلطان، وسـلطنته واسـعة براح، وربيعها فوَّاح، لكن إن كبس عليه مسـؤول الورديَّة، وهو مجرَّد "ضابط"، ووجده نائمًا، فهل سيفيده "السلطان" بشيء؟ هل يمكنه أن يدافع عن كرامته التي ستُهدر حتمًا حينها؟!

يضـرب "ياسـر" وجهـه بغرفة ماء بـارد، كانـت الصَّحيفـة التي أتتـه منـذ ثلاثة أيـام قد بليت مـن كثرة مـا قلَّـب أوراقهـا، والرَّاديو "الترانزسـتور" فرغت بطَّاريته، وعيناه، حتَّى مع الماء البارد، كادتا تفرغان من اليقظة، والنُّباح البعيد يركب النَّسـيم العليل المتدفِّق من النَّافذة الواسعة المفتوحة عن آخرها.

فـي مثل هـذه الحالة يشـعر بأنَّه يجلس على كرسـي داخل قطار يقطـع الآفاق، يكاد يدمِّـر القضبان من عنف حركتـه، لكنَّه بالدَّاخل مجرَّد جسد مستكين لا يملك إلَّا الانتظار.

وهو يجلس على كرسـي "التَّحويلة" لا يملك إلَّا الانتظار، لكن شتَّان ما بين انتظار وانتظار، الانتظار أمام "التَّحويلة" قاتل، انتظار لن يسفر عن تحقيق وصول ما، فقط، هو انتظار من أجل قتل الوقت، كي يتم قنص يوم آخر من أيَّام "الميري"، الأيَّام الطَّويله المُرهقة، لا أحد

على وجـه الأرض يُحصي الأيَّام، ثواني ودقائـق، مثل الجنود، كما أنَّه لا أحد إذا استعرت الحروب يموت ميتاتهم.

بعينيـن منخذلتين نظر "ياسـر المبروك" إلـى "التَّحويلة"، الفجر اقتـرب، والنُّعـاس يُعـد لأخطـر هجماته، وبينمـا يسـقط جفناه في جُـب الغفوة، أفلتت نظـرة مهيضة لتقع على الثُّقـب الذي لو أدخل فيـه "كـوردة" التَّوصيـل سـيتدفَّق منه، إلـى أذنه، طنين حـرارة خط "السِّنترال"، هذا الخط السَّاحر الذي يتَّصل بالحياة، حيث القرى، والمدن، والنَّاس غير ذوي الرُّتب "الميري".

داهمه خاطر رفع جفنيه قليلًا: أن يتَّصل حالًا بالحياة.

"ونِتِّصل بمين دلوقتي؟!".

إن بلدتـه الصَّغيرة، نجع "الطُّوال"، كلُّهـا، ليس فيها عدَّة تليفون سوى الموجودة عند "لطيف أبو حسين" شيخ الخفر.

اكسـر التَّراتبيَّـة تحصـل على اليقظـة والانتباه، وليـس أقطع من الاعتياد وسيلة لجلب النَّوم والكسل.

فجأة، وجد "ياسر" نفسه في كامل النَّشاط الذِّهني، فالفكرة التي طـرأت على عقله جديدة بالنِّسـبة لـه، أن يتّصل بـأي أحد، أي أحد يؤنسـه بصوته، في ظل سـيطرة كل هذا الصَّمت الثَّقيل، والأصوات المألوفة الرَّاكدة.

سيعمل ما لم يعمله من قبل أبدًا، ولا حتَّى سبق له، وهو الذي يتحرَّى حفظ الكرامة في كل تصرُّفاته، أن فكَّر في الإقدام عليه، رغم مرور سنة كاملة على تولِّيه خدمة هذه "التَّحويلة".

نكت سبَّابته في التَّجويفات المرقَّمة لقُرص التَّحويلة، بعد أن غرس "الكوردة" في ثقب خط "السِّنترال"، وأخذ يطلب رقمًا عشوائيًا يبدأ بـ (02)، مفتاح "القاهرة".

"إشمعنى!".

لا يعرف "ياسر" لماذا "القاهرة" بالتَّحديد، كما لا يعرف إن كان الملل ومغالبة النَّوم هما ما دفعا به إلى هذا الأمر، أم أن الأقدار قد قرَّرت أن تلعب به لعبة غريبة.

لكن ما يعرفه تمامًا، هو أنَّه قد بدأ اللعبة، وأنَّها لا تتَّفق، بأي حال، مع ترتيبات روحه، وأنَّه يلعبها الآن رغم أنفه، من دون أيَّة متعة، فقلبه مضطرب، يدق دقًّا منفلتًا، وصرير الهاتف، الذي في الطَّرف الآخر، حيث الحياة، يدوِّي متواصلًا.

لا يمكن تحصيل أيَّة متعة بقلب مضطرب هكذا.

كان قد ألقى بنصفه الأعلى نحو "التَّحويلة"، مستندًا على كوعيه، يباعد ويداني بين ركبتيه في حركة بندوليَّة سريعة ومتواصلة، بينما يقرض ظفرًا لأحد أصابع يده اليسرى، كما أنَّه يقبض بيده اليمنى

على السمَّاعة، الملتصقة بأذنه، قبضًا تكاد أصابعه معه أن تهشِّمها.

لقد طال الرَّنين، وفي اللحظة التي قرَّر فيها قطع الاتصال سمع صوتًا متكسِّرًا لسيدة مُسنَّة استيقظت فورًا:

- ألو.

ارتبك "ياسر" جدًّا، وأراد أن يجذب "الكوردة" لينهي الاتِّصال، لكنَّه سمع صوته متحشرجًا:

- السلام عليكم.

جاء صوت السيِّدة ودودًا، وطيِّبًا:

- وعليكم السلام.

صوت يشبه صوت أمِّه، إلَّا أن صوت أمِّه فيه جِدَّة الصَّعيد، ولم يعرف ماذا يجب أن يقول فصَمت، لكن السيِّدة قالت بصوت دافئ، مليء بطراوة أهل بحري:

- عايز حاجه يا بني؟

حاول أن يقول شيئًا، لكنَّه تلعثم، ولمَست السيِّدة ربكته، فقالت:

- لو عايز حاجه يا بني قول وما تنكسفشي.

وفي لحظة وامضة أُلهم الرَّد البليغ:

- أنا بصحِّي سيادتِك عشان صلاة الفجر.

قالت:

- متشكِّره جدًّا يا بني.. بس لسَّه بدري أوي عَ الفجر!

ثم ضحكت ضحكة رقيقة، قبل أن تقول:

- وكمان أنا مسيحيَّه.

كان ما قالته السيِّدة مباغتًا لـ "ياسر"، امتعاض شديد طغى على ملامح وجهه، في الوقت الذي تسرَّب صوت السيِّدة ناعمًا هادئًا عبر ثقوب السمَّاعة، قبل أن تغلق الخط:

- متشكِّره يا بني.

لم ينطق "ياسر" بكلمة واحدة، وإنَّما جذب "الكوردة"، ثم بصق على "التَّحويلة" بغيظ:

- ينعل أبوكي تحويله بت كلب.. مالقيتيشي غير النَّصارى؟!

44

الـ"كاب دور" امتلأ بالزَّبائن، حتَّى إن الجرسونات صاروا يتحرَّكون بالطَّلبات بين المناضد بصعوبة بالغة، دخان السَّجائر صنع فضاءً ضبابيًّا، ضحكات الموجودين من رجال ونساء تهب فجأة مثل عاصفة مرح، لم يعد "زياد" يجلس وحيدًا على منضدته المركونة.

كانت "زهر المستكي" ترفع كوب البيرة إلى فمها ذي الشفتين المطليَّتين بروج بنفسجي، عندما غمزت له بالعين الشِّمال، وقالت:

- وشَّك نار يا "زياد"، وش مُبدع بِجَد.

التقط عود جرجير من طبق المزَّة وهو يفتح عينيه الضَّيقتين ليرسم تعبير الاندهاش، وقال:

- هُوَّ المبدع بِجَد لازم يكون وشه أبيح؟!

وضعت الكوب أمامها، وسحبت نفسًا طويلًا من سيجارتها الرَّفيعة، قبل أن تقول:

- علـى فكـره أنـا لاحظـت كـدا.. كل المبدعيـن الفارقين أوي وشوشــهم إمَّـا أبيحه.. أو أقرب إلى القبح.. عارف! شـبه وشـوش المجرمين كدا.. ممكن كمان تقول انَّها شبه وشوش المجانين.

ولمَّا رأته ينظر إليها باندهاش حقيقي ضحكت:

- أقصد وشوش مميَّزه يعني.

استمر صمته، مع النَّظر بتركيز في وجهها، ما اضطرها أن تقول:

- بص حبيب قلبي.. عشـان مش تفهمني غلط.. أنا بيتهيَّألي كدا إن فـي علاقه طرديَّـه بين الـوِش والتميُّز.. كل مـا كان الوِش أقرب للقبح كل ما كان صاحبه أقرب للتميُّز.

وهي تأخذ رشفة بيرة من كوبها كانت تُشير لـ"زياد" بألَّا يقاطعها، ما يعني أنَّها ما زالت تريد إكمال طرح رؤيتها:

- عشان كدا تلاقي المبدعين قوي رجَّاله.. مُش ستَّات..

تناول بضع حبات من التِّرمس، وعاد بظهره إلى الوراء، وتأجَّجت في عينيه الضَّيقتين نظرة من سيقول كلامًا خطيرًا:

- بصِّـي بأه.. مع إنِّي وشِّـي مش ولا بُد أبـدًا.. وكان المفروض كلامك دا يبسطني أوي.. لكن أنا معترض عليه.. الرَّجل أكيد مبدع كتير عن المرأه.. لكن مش عشان هو الأقبح.. لا.. دا العكس تمامًا هُوَّ اللي صحيح.. الرَّاجل أبدع عشان أجمل.

فتحت "زهر" عينيها على اتِّساعهما:

- الرَّاجل أجمل من السِّت؟! جِديده دي!

- مش مصدَّقه؟

- طبعًا.. مش مصدَّقه خالص.

مال بصدره إلى الأمام مرتكزًا بكوعيه إلى المنضدة:

- طيِّب الدِّيك أجمل ولا الفرخه؟

نظرت إليه في غاية الاندهاش، قبل أن تغرق في نوبة ضحك طويلة، بينما استمر ينظر إليها في منتهى الجِد، ضحكت طويلًا، حتَّى إن وجهها أغرقته الدُّموع، فأخذت تقلِّب في حقيبتها بحثًا عن منديل، وكان قد أدخل يده في جيبه ليخرج لفافة المناديل التي اشتراها قبل دخوله، لكن دخول البائعة، التي كانت تجلس خارج البار، تحمل بضاعتها بين يديها، وطفلها على كتفها، وإشارة "زهر" لها كي تقترب، كل هذا جعله يُخرج يده خاوية.

جاءت المرأة، ووضعت لفافة على المنضدة، ووقفت تنتظر النُّقود، رعدة خفيفة اجتاحت جسد "زهر المستكي" لم يلحظها "زياد"، الذي اهتمَّ بالنَّظر إلى وجه بائعة المناديل، بدا وجهها تحت الإضاءة الضَّعيفة المباشرة واضحًا جدًّا، وبتخيُّل بسيط جرى في ذهنه، تأكَّد من أن هذه المرأة، لو أتيح لها أن تغتسل جيِّدًا بماء دافئ

لخمس دقائق، ثم تمكَّنت من الوقوف أمام تسريحة غنية بالكريمات، والبرڤانات، والمكياچات، لعشر دقائق فقط، ستخرج بعد ربع ساعة، بالتَّمام والكمال، واحدة من حسناوات قليلات يمكنهن أن يحطِّمن قلب أي رجل، بمجرَّد النَّظر إلى سحر جمالها.

ما إن أخذت نقودها، واستدارت مبتعدة، حتَّى مال "زياد" برأسه ناحية "زهر" وقال بحماس:

- عِينيها مَفيش كِدا.. ولا مَرَاخينها.. بُقَّها حبِّة عنب بِجَد.. الحتَّه دي وشَّها على بعضه حكايه..

ارتعدت "زهر" مرَّة أخرى، ومدَّت يدها إلى كوب البيرة، ترفعه إلى فمها.

كان "زياد" يتابع المرأة وهي تتجه إلى الخروج من البار، وعند الباب ضرب الطِّفل بكفِّه الصَّغير على رأسها، قبل أن يقبض بأنامله على حافَّة الطَّرحة ويشدَّها، فتنزاح كاشفة عن شعر أبيض مهوَّش.

فوجئ "زياد":

- الله! دا شعرها ابيض!

ارتعدت "زهر" مرَّة ثالثة، قبل أن تهتف بضيق شديد:

- بس بأه يا "زياد".

وجرعت آخر قدر من البيرة في قعر الكوب، ثمَّ انكفأت بوجهها ناحيته وقد اعترت ملامحه علامات خوف، وقالت:

– السِّت دي مِخاويَّه عفاريت.

لأوَّل مرَّة، هذه الليلة، يجد نفسه مضطرًا للقهقهة بأعلى صوت، قبل أن يخبط جبهته بكفِّه، ثم يشير ناحيتها بسبَّابته وهو يقول:

– يا بنت المجنونه!

وهي تفرغ ما تبقَّى في الزُّجاجة الـ"ستلا" الخضراء داخل كوبها، وبينما تُتابع اندلاق السَّائل الأصفر، وفورانه برغوة بيضاء تصير سحبًا تعتلي كونًا مائيًّا ذهبيًّا، همست:

– مش مصدَّقني؟

قال:

– طبعًا لأ.. العفاريت دي حكايه كنَّا بنصدَّقها واحنا عيال.. أهلنا كانوا بيربُّونا بيها.. وظروف البيئة البعيده عن العلم والنُّور كانت تِسمح.. دلوقتي يا "زهر" العيال بيلعبوا بالعفاريت فِ النِّت.

كانت ستقول شيئًا عندما فوجئت به يقبض على معصم يدها حتَّى لا تقاطعه، ليتكلم هو بصوت متحمِّس:

– عارفه بأه! أهو حكاية العفاريت دي زي حكاية الدِّين بالظَّبط.. العالم فِ طفولته كان بيصدَّق حكاية مُعجزات الرُّسل..

والملايكه.. والشَّياطين.. كان الإنسان بيربِّي نفسه بيها.. والظُّروف وقتها كانت تسمح.. لا في نور ولا علم.. دلوقتي الإنسان اتعلِّم واتنوَّر.. واكتشف ثوابت جديده.. ومنطلقات عقائديَّه مختلفه تمامًا.. فما عادش عقله بيقبل أساطير الأوَّلين دي..

قاطعته وهي تسحب معصمها من يده:

- ماشي.. أنا معاك.. واصدَّقك أوي لو قولتلي إن الملايكه والشَّياطين كائنات مالهاش وجود.. اخترعها العقل البشري عشان تبقى صُور رمزيَّه للكمال الأخلاقي من النَّاحيتين.. الخير والشَّر.. لكن الجِن غير كدا خالص.. دي كائنات شبه الإنسان بالظَّبط.. بتعمل خير وشر.. يعني مالهاش أي رمزيَّه عشان يخترعها الإنسان.. دي كائنات حقيقيَّه فرضت وجودها.

فجأة نظرت إلى زجاجتي البيرة الفارغتين، وقالت:

- ما تطلب لِنا قزازتين كمان.

بسط كفَّه في اتجاه النَّادل ناظرًا لـ "زهر"، وقال:

- اطلبي انتي ياماما.. مش انتي اللي بتدفعي فِ الآخر!؟

ابتسمت قبل أن تشير إلى النَّادل بسبَّابة كفها ووسطاها، وقالت:

- مش العلم بيتكلِّم اليومين دولا عن حاجه اسمها عالم موازي؟

فتح عينيه على اتساعهما، ورعَّش حاجبيه، وقال:

- آه.

وكان النَّادل يضع زجاجتي البيرة على المنضدة عندما سمع "زهر" تقول بحماس:

- مقبول جدًّا إن الجِن يكون عالم موازي.

ابتعد النَّادل بعد أن أفرغ منفضة السَّجائر في سلَّة قمامة قريبة، لكنَّه عاد ليختلس نظرة إليهما، فرأى الإضاءة الخافتة تتوهَّج على الوجه الأمهق فتحيله وجهًا أحمر، كما أضافت الظِّلال إلى أعلى رأسه عدَّة قرون تتراقص مع حركته، لقد بدا له "زياد" جِنِّيًا مرعبًا يجالس إنسيَّة مخاويَّة، فاقشعر جلده.

45

الصَّبر، وتحييد المشـاعر جانبًا، هما ما يلزمان المرء كي يرتكب جريمـة قتـل كاملة، القاتـل الغبي هو مَـن يجعل مشـاعره تجتاحه، بعكـس القاتـل الذَّكي، يربـط أعصابه تمامًـا، حتَّى إنَّـه لا يمكن أن يُظهر عداءه لضحيَّته أمام النَّاس، ولا لضحيَّته نفسـها، وربما زاد في إتقان الإعداد لجريمته بالإحسان إلى هذه الفريسة.

مشـى "خميـس" بخطًى ثقيلـة ناحية الغرفـة التي اسـتلقت فيها "نوال" مُنهكة إلى الغاية، تُشارف الموت، فتح بابها فضربت العتمة عينيه، رغم أن شمس الظَّهيرة تسيَّدت وسط السَّماء.

لحظـات وتمكَّن من رؤية جسـدها، كانت مكوَّرة حول نفسـها، على جانبها الأيمن، والوثاق يشد قدميها إلى يديها.

تحـرَّك ناحيتها، وكلَّما اقترب منها تصاعد الغلُّ في قلبه، وبدا له أن أعصابه ستنفلت، وخطَّته ستفشل.

"إمسك أعصابك.. كِدا كِدا انت حاتقتلها.. يُقْبا تقتلها وتعيش حياتك.. أحسن ما تقتلها وتغور السِّجن".

نزل القرفصاء أمام وجهها، أمعن النَّظر فيه، فرأى فمها مفتوحًا نصف فتحة، وعينيها مسبلتين، ولولا أن شفتيها تحرَّكتا برعشة خفيفة، رآها بالكاد، لظنَّ أنَّها ماتت.

"لو ماتت دلقيتي هاتودِّينا ف داهيه".

هبَّ واقفًا وقد قرَّر أن يتحرَّك بسرعة، ويتصرَّف بحكمة.

عندما ينهد الجسد، ويكون الموت بطيئًا، تحاول الروح أن تتعلَّق بالحياة، فتمنح الفرصة للوجدان كي يكر شريط الذِّكريات، وبالتَّحديد هذه المقاطع المتوهِّجة بالفرح.

لقد رأت شبحًا يتقرفص أمامها قبل أن يغادر سريعًا، كانت في هذه اللحظة تسمع رنين تليفون ممزوجًا بصوت مؤذِّن.

"كان الوقت فجرًا، رفعت السَّماعه وقلبها قلقان، تليفونات أنصاف الليالي مفزعه، فما الحال مع تليفونات الفجر؟

- ألو.

جاءها صوت مرتبك لشابٍّ بَدَا من لكنته أنَّه صعيدي:

- السَّلام عليكم.

كان صوتها كسولًا من طول الصَّمت:

- أي خدمه؟

- أنـا واحـد قاعد فِ حتَّـه مقطوعه.. مـا اقدرش اقولِّـك فين.. ومطلـوب منِّي انِّـي مانامِش.. ولـو نمت مش حايحصـل كويِّس.. قلت اطلب أي حد يونِّسني..

صوته جاد، وربكته تؤكِّد صدقه، ونبرته مطمئنة، وهي أيضًا تعاني الوحدة، ونفسـها في الونس، ولم تمر عشـر دقائق من زمن المهاتفة حتَّى بدأت تحكي له همَّها الكبير، وأخذ هو يسمع طويلًا.

وعندمـا جـاءت السَّـابعة صباحًـا، وكان لزامًا عليـه أن يمضي، أغلقت الخط، وفتحت قلبها".

ثمَّة صفعات توالت على خدَّيها، بينما رأسها يرتفع من الخلف، وصوت "خميس" يزعق في أذنيها:

- يا بت.. تُورِي يا بت.

فتحت عينيها بعد عذاب، كانت تشعر بوهج ناري يُصلي جلدها كلَّه، غير هذا الألـم المريع الذي يمزِّق ما بين ساقيها، لكنَّها تمكَّنت مـن رؤية وجه "خميـس"، كان يجلس بجوارهـا على الأرض، وقد رفع رأسـها إلى فخذه، ويحاول أن يضع شـيئًا في فمها، فاسـتفاقت مفزوعة، ورفضت فتح فمها.

- مـا تخافيـش يا عاهره.. دا دَوَا.. مِش سِـم يعني.. أني لو عاوز اموِّتـك هاستخسـر فيكي حتَّى السِّـم.. حاحفرلك قبر فـي الجنينه

قِبلي البيت واتاويكي.. ولا من شاف ولا من دري.

وعندما زجَّ الدَّواء، هذه المرَّة، في فمها استقبلته، كان يقول:

– الحياه بيناتنا بقت مستحيله خلاص.. بس اني عاوز الحكايه تنتهي من غير دوشه.. كَتيرها شهر وحاتكوني طالق.

كأنَّه رأى ارتياحًا رفَّ على وجهها بسرعة قبل أن يعود لحالة الألم، فهمس لنفسه:

– العاهره فِرحِت.. شهر بس وحاترجع لابن الـ "..." عشيقها.. ياخا دا بُعدِك.

رفع صوته:

– بس زَي ما انا عتقتك م الموت لازم تعترفي قدَّام كبير عيلتك عَ اللي سَوَّتيه.. عشان امَّا اطلِّقك.. ما أَقْبَاش راكبني عيبه ف نظره.

بَدَا الرُّعب في عينيها، لكن ليس أمامها أي خيارات، وبينما يرفع رأسها أكثر ناحيته، يعدلها لتتمكَّن من أخذ الملعقة الثَّانية من الدَّواء، فاجأه صوت أمِّه وهو يفح:

– سابق وقولتلك يا ود بطني.. قلبك خِرِع.

46

كان العرِّيف مجنَّد "ياسر المبروك" يكره المسيحيِّين، بل لم يكن يكرههم فقط، وإنَّما يمقتهم، درجة استعداده لذبحهم جميعًا ذبح الشِّياه، وكم تمنَّى لو أن المجزرة التي قام بها أقاربه ضدهم منذ خمس عشرة سنة تتكرَّر، حتَّى يتمكَّن من أن يذبح نصرانيًّا بنفسه، ويفصل رأسه عن جسده، ليعلِّقه على بوَّابة البيت.

وضع "ياسر" السمَّاعة في مكانها، كان قلبه يدق بعنف، فالحدث مبهر، إنَّه، ولأول مرَّة، منذ استلم الخدمة على هذه "التَّحويلة"، يُقدِم على الاتِّصال العشوائي بنطاق خارج حدود الجيش، بدون أمر عسكري، ولأوَّل مرَّة يُجري اتصالًا لمجرَّد مغالبة النَّوم، وكسر رتابة الليل "الميري" الثَّقيل.

ضايقه أنَّه، ورغم إقدامه على ارتكاب خطأ عسكري جسيم من أجل اكتساب بعض من ونس الحياة التي تضج على الطَّرف الآخر من خط "السِّنترال"، لم يُحقِّق هذا الهدف، فكيف يمكنه أن يواصل مكالمته مع امرأة عجوز في عمر أمِّه، فضلًا عن كونها، وهذه هي المصيبة الكبرى، امرأة مسيحيَّة؟!

ما جرى زمان في نجع "الزَّمانات"، التَّابع لمركز "جهينة" بمحافظة "سوهاج"، بين المسلمين والمسيحيِّين كان بشعًا، ليس لكونه لا يقل عن مذبحة رهيبة، وإنَّما لكونه قد تمكَّن من بناء جدار نفسي عازل، لم يستطع طرف، من الطَّرفين، بعده أن يتخطَّاه نحو قبول الآخر.

كانت الرُّؤوس التي عُلِّقت على بوَّابات البيوت هي رؤوس المسيحيِّين، والأجساد التي شُبحت على جذوع النَّخيل هي أجساد المسيحيِّين، إلا أن هذا لم يدفع، بعد انتهاء المذبحة، لإثارة الشفقة في قلوب المسلمين نحو ضحاياهم. ومن ثمَّ محاولة التودُّد إليهم، بل حدث العكس، زادت كراهية المسلمين للمسيحيِّين.

كانت الشَّمس في العصاري، عندما رأى "ياسر"، وكان في السَّادسة من عمره، أباه يقتحم البيت، بعد أن دفع البوَّابة الخارجيَّة العملاقة بقدمه ويديه، ويجري نحو حوش البهائم وقد قبض بأسنانه على طرف جلبابه، ثم يدفع أيضًا بوَّابة الحوش الدَّاخلية، لتدور حول مركزها بقوَّة، وهي تنعر كالسَّواقي الكسلانة، ثم تخبط في الجدار محدثة صوتًا يشبه انفجار قنبلة.

هجَّت طيور البط والإوز التي كانت في الحوش إلى خارجه، في شبه عاصفة من فحيح وصياح، كأنَّها أصوات سفن مرتبكة في مرفأ يواجه إحدى النوَّات الغشيمة، مناقيرها الصَّفراء مرفوعة إلى

السَّماء كأشرعة المراكب، بينما أخذ الجاموس والبقر يدور حول مرابطه بفزع مَن يرى الجِن والعفاريت.

"أبويا أخد كِريك م الكَوَاريك اللي بيكنس بيها الصَّبَخ.. وقعد يحفر في الحيطه القبليَّه".

كانت هذه أول مرَّة يرى أباه وقد ركبه كل هذا الغضب، ويتصرَّف بكل هذا العنف المتسارع، فسأله وقد امتلأ هلعًا:

- إيه في يابا؟!

في نفس الوقت كانت أم "ياسر" تدخل الحوش مهرولة وقد ركبها الفزع هي أيضًا، وتصرخ:

- ما لك يا "مبروك"؟ حصل ايه؟!

انفلق الجدار عن بندقية "خمسة" ألماني، ملفوفة في شكائر بلاستيكية بعناية فائقة، وكان ينزع عنها هذه اللفائف عندما زعق:

- النَّصارى ولاد الكلب.

- ما لهم المساخيط؟

- فَجَرو.. قتلوا الحاج "عب مطِّلب".

في نجع "الزَّمانات"، كما في غالب نجوع بر "مصر"، المسلمون عدد ذر الرِّمال، والمسيحيون كرقمة سوداء في جلد جمل أبيض،

لا ذِكر لهم ولا عدد، ولا يمثِّلون للمسلمين غير قيمة وحيدة يهتمُّون بها، هي قيمة الإحساس بتملُّك البشر، القيمة التي تصب دائمًا في صالح سطوة العائلات الكبيرة من بطون القبائل العربيَّة التي استوطنت "مصر" بعد فتحها، ليتوزَّع المسيحيُّون مع مرور الزَّمن على بيوت المسلمين، ينتسبون إليهم كأملاك لهم، فهؤلاء نصارى بيت "المَطالبة"، وهؤلاء نصارى بيت شيخ العرب "عبد الله"، وهؤلاء نصارى بيت "الدَّعامسة"، ثم لم يُترك لهم إلَّا أعمال الخدم والعبيد، مثل نزح بيَّارات دورات المياه، والحلاقة، وأعمال شاقَّة في فلاحة الأرض، والمقابل ليس أكثر من قليل، لا يكاد يُذكر، عند حصاد الزَّرع، أو منتجات البيوت من بيض، أو جبن، أو زبد، لا تدخل في إطار الأجرة المستحقَّة بقدر ما هي شيء يقدِّمونه على سبيل الإحسان، يجود به المسلم، صاحب الأملاك والنِّعم، على المسيحي المعوز الذي يتملَّكه، ولا حول له ولا قوَّة.

أفلح "ياسر" في الفكاك من قبضة أمِّه، وجرى خلف أبيه، وقد حرص على ألَّا يراه، كان يعلم أن أباه لو رآه سينهره، وسيجبره على العودة إلى البيت، في حين أنَّه كان متشوِّقًا لرؤية ما سيحدث، فكان يختبئ خلف جذوع نخيل وقفت وسط الحقول، أو أحيانًا يرمي نفسه بين الزُّروع.

كان "مبـروك" يجـري بمنتهى عزمه، وطرف جلبابـه لم يزل بين فكَّيه، فبدا سرواله الأبيض الواسع وهو يرتعش تحت ضغط الرِّيح، وبندقيَّته مشـرعة ماسـورتها في السَّـماء كمئذنة نحيفة، وثمَّة رجال آخرون يتوالى ظهورهم في الحقول، يجرون في نفس الاتِّجاه وهم يزعقون مستفسرين:

- "الزَّمانات" ولَّا "الصَّوالح"؟

بدأت المشـكلة في ضحى يوم خميس، يوم السُّـوق الكبيرة في "الطُّليحات"، والتي تبعد عن "الطُّوال" مسـافة ساعتين من المشي النَّشـيط، وكان "جرجـس" يقبض علـى حبلين، يقود بهمـا عِجلين ضخمين اشـتراهما الشَّـيخ "عبد المطَّلب"، والذي يركب جحشًـا قويًّا وقد أمسك بشمسيَّة يتَّقي بها لفح الشَّمس المتَّقدة بنار الظَّهيرة، متقدِّمًا عن "جرجس" وعِجليه.

الشَّـيخ "عبـد المطَّلـب" كبيـر عائلته، يملـك عشـرين فدانًا من أرض الله، ترويها ماكينة إنجليزي كانت في مبدأ شغلها وهي تدق، وتدور، وتشـخر، وتلقي الماء خارج ماسـورتها إلـى الحوض بقوة مائة عِجل، عجيبة النَّجع.

كمـا أنَّـه الوحيد فـي النَّجع الذي يخبـز فرن بيته خبـزًا من دقيق القمح، "العيش" الشَّمسي يأكله النَّاس، وخبز "البتَّاو" المعجون من مزيـج الشَّـعير ونخالة دقيق القمـح تأكله كلابه، التـي تحرس بيته، وبهائمه، وزروعه.

لقد قال الشَّيخ "عبد المطَّلب" وهو راسخ على ظهر جحشه القوي، مستظلًّا بالشَّمسية العريضة، ناهرًا "جرجس":

- خِف ع العجول يا بن الكلب.

لم يكن "جرجس" إنسانًا عاديًّا، وإنَّما أضخم إنسان رأته عينا إنسان في النجوع السِّت، يقترب طوله من طول نخلة قصيرة، ما يضطره أن يطأطئ إذا دخل بيتًا من بيوت "بَدَويَّاتِه" من "المَطالبة"، رغم أن بوَّابات هذه البيوت عالية، تدخل فيها الِجمال بأحمالها، وكان سمينًا أيضًا، ويتمتَّع ببشرة بيضاء فيها وهج حمرة، مع أنَّه طوال الوقت مغمور بوهج الشَّمس، كما أنَّه كان مسيحيًّا صالحًا، من القلائل الذين يواظبون على حضور القدَّاسات في الكنيسة، ولكل مواصفاته هذه صارت له هيبة، استشعرها هو، فكان في كثير من الأحيان يتمرَّد على واقعه، فيرفض أن يكون مجرَّد شيء ليس له الحق في امتلاك نفسه، ويتملَّكه الآخرون لمجرَّد أنَّه مسيحي.

خطوات "جرجس"، لفرط ضخامته، واسعة جدًّا، فيزاحم جحش الشَّيخ "عبد المطَّلب"، يكاد يسبقه.

زعق "عبد المطَّلب":

- أطرش انت يالك؟! بقولَّك خِف عَ العجول يا عِجل.

صوت "جرجس" ينبع من حنجرة بعيدة في رقبة غليظة، فخرج عميقًا:

- انت حاطط شمشيِّه على راسك، وانا الشَّمش عمْ تخبط ف راسي كِيف نار "جهنم".

- والشَّمش تيجي إيه جنب نار "جهنم" اللي ها تاكل جتِّتك ف الآخره يا بن الكلب؟!

- ونار "جهنم" تاكل جِتِّتي ليه؟!

قهقه، الشَّيخ "عبد المطَّلب"، وقال:

- مش عارف ليه يا عِجل؟!

الزُّروع ترتعش في الصَّهد كسراب الصَّحاري، وجحش الشَّيخ "عبد المطَّلب" قوي، تمامًا مثل الغضب الذي بدأ يتنامى في داخل "جرجس"، والصَّوت كان ساخرًا:

- عشان نُصراني يا بهيمه.

للحظة رفع "جرجس" عينيه ونظر في قرص الشَّمس، فرأى شيئًا أبهره، فتحشرج صوته وهو يقول:

- وما له النُّصراني؟

- بيعبد بني آدم زيِّينا...

خطف "جرجس" نظرة أخرى نحو الشَّمس، وكان الشيخ "عبد المطلب" يقول:

- عياكِل ويخْـ...

ولـم يتم كلمته، إذ إن "جرجس" أطلق صرخة مثل هزيم الرَّعد، قبل أن يُلقي بحبل العِجلين، ويمد يديه لينتزع الشَّيخ "عبد المطَّلب" من فوق جحشـه، ويرفعه إلى أعلى رأسـه، قبل أن يُلقي به في اتِّجاه صخرة كبيرة على جانب الطَّريق:

- يا "يسوووع".

عندما ارتطم جسد الشَّيخ "عبد المطَّلب" بالصَّخرة، سُمع صوت تفتت عظام ظهره، ولم يخرج من فمه غير صوت شـهقة مخطوفة، ودم غزير.

وبينمـا "جرجـس" يجري هاربًا، كان يسـمع أحدَهـم في حقله وهو يزعق مفجوعاً بالمفاجأة:

- يا ناس.. النُّصراني قتل كبير "المَطالبه".

لم يشـكِّل المسيحيُّون من نسـبة سـكَّان نجع "الزَّمانات" سوى الرُّبع، ورغم ذلك، أطلق النَّاس عليه اسم نجع "النَّصارى"؛ لأن هذا الرُّبـع مثَّل تجمعًا مسـيحيًّا كبيرًا، لم يكـن له نظير في أي نجع آخر، ولـم يقتصر الأمر على ذلك، وإنَّما كان النَّجع الوحيد الذي بُنيت فيه كنيسة ضخمة تحت عين الحكومة، رغم أنف المسلمين.

الطَّريق المؤدية إلى نجع "الزَّمانات" تتلوَّى منبسطةً بين الحقول، يركض النَّاس فيها بأعداد النَّمل، الغبار يغطِّي الشَّـمس التي تسـارع

إلـى المغيـب، وبرجـا الكنيسـة يتوهَّجـان مقتربين، والمسـيحيُّون يتجهَّزون للمعركة بالاختباء في البيوت.

مسـلمو نجع "الزَّمانـات" حاولوا التَّصدي للمسـلمين القادمين مـن ناحيـة نجـع "الصَّوالـح"، ونجـع "الطُّـوال"، حتَّـى أن الشَّـيخ "علي"، صاحب كابينة التليفون الوحيدة في النَّجع، رفع السمَّاعة، وكان سـيطلب النُّقطـة كي تأتـي الحكومة لتدافع عن المسـيحيِّين، لكن ما قاله أخو كبير "المَطالبة" المقتول، جعل الشَّيخ "علي" يلقي السمَّاعة، ويلغي الفكرة، ولم يكتفِ بذلك، وإنَّما قطع الخط بأسنانه من فرط غيظه، وصرخ:

- خُدوا راحتكم يا خَلق، طِلعوا ولا نِزلوا نصارى ولاد كلب... وَصَلت بيهم يقتلوا الحاج "عب مطِّلب"؟! ادبحوهم.

أحـاط المسـلمون ببيـوت المسـيحيِّين مُغلقـة البوَّابـات، وعلا صوت التَّكبير: "الله اكبر.. الله اكبر.. الله اكبر".

يتمـاوج صـدى التَّكبيـر بين جـدران البيـوت فيصـدِّع القلوب، وصـوت ضرب النَّـار يفلق الآذان، وبدأ صوت صراخ النِّسـاء ينبثق واهنًـا مـن وراء البوَّابـات الموصـدة، وأخـذ صوت بـكاء الأطفال ينسل من شقوق الجدران مصبوغًا بالهلع، وبعض رجالهم يزعقون مرتعبين من فوق أسطح البيوت:

- إحنـا مـا لنا يا نـاس.. خُدوا "جرجـس" اعملوا فيـه اللي انتوا

عاوزينه.. إحنا ما لنا احنا.

ـ حرام عليكم.. حريمنا وعيالنا ماتوا ف جلدهم.

ولم يكن هناك من رد سوى دوي الرَّصاص.

وفجأة انكب المسلمون بأكتافهم على البوَّابات، التي لم تصمد إلَّا قليلًا ثم انهارت.

وبينما عتمة ما بعد المغارب تُلقي بظلامها، لاحت أنوار مهتزَّة تتسرَّب من بين أنحاء الكنيسة، ثم بزغت منها ألسنة نيران أخذت في التَّضخُّم لتصير أذرعة أخطبوط أسطوري، تتلوَّى لتتمكَّن من فريستها.

الكنيسة تحترق.

ولم تكن الكنيسة وحدها التي تحترق، كانت بيوت المسيحيِّين تحترق أيضًا، ونساؤهم تجري إلى الخارج مذهولة، بشعور منكوشة، منهن مَن حملن أطفالهن الرُّضَّع، ومنهن مَن سحبن أطفالهن الصِّغار ممَّن لم يكن باستطاعتهم الجري بسرعتهن، ولقد خرج البقر والجاموس يفر في الأرض ككتل نيران متدحرجة.

امتزجت رائحة شواء الأجساد المحترقة برائحة الرَّصاص المنهمر، وكان رجال يقبضون على الرَّجل فيحشُّون رأسه بالمناجل،

وفرَّ من على الأسطح حمام يتوهَّج، وفر دجاج، وبط، وإوز، وسقط محترقًا، ودخان كثيف دخل جحور الأرانب فخنقها.

النِّيـران تأكل الكنيسـة، وفي أحد أقبيتهـا الكائنة تحت الأرض، كان مسـيحيون يختبئون، وكان "جرجس" جالسًا في ركن القبو وقد شـوَّه الخوف وجهه، وقس الكنيسـة يجلس بجواره يتمتم متلعثمًا، وعندما بدأت الحـرارة تلفح القبو، بدأ بعض المختبئين في محاولة الخـروج، لكنَّهم لمَّـا فتحوا الباب الضيِّـق طالعتهم النَّار السَّـعرانة فأغلقوه وهم يصرخون.

مال "جرجس" برأسه ناحية القس، وهمس:

- قبل ما ارميه عَ الحَجَر شُفت حمامه بيضه ف قرص الشَّمش.. ولمَّـا طـارت وقرَّبـت منِّي لقيت راسـها مش راس حمامـه.. كانت راس "يسـوع" يا ابونا.. وكان بيضحكلي وهُوَّ بيغمزلي بعينه عشـان ابـص علـى رِجلُـه.. كانت رِجـل حمامه.. بـس ماسـكه بضوافرها سِنجه حديد.

بدا الانبهار على وجه القس، وهمس:

- انت شُفت دا يا "جرجس"؟!

جحظت عيناه وقد هلَّت فيهما فرحة، فارتفع صوته:

- أيوه يا ابونا.

تمتم القس بصوت جليّ وقد رفع وجهًا مبتسمًا يغسله العرق:

- لا تظنُّوا أنِّي جئت لألقي سلامًا على الأرض.. ما جئت لألقي سلامًا.. بل سيفًا.

فهتف "جرجس":

- أيوه يا ابونا.. "يسوع" كان حمامه ماسكه سيف.

النِّيـران تأكل باب القبو، وكانت الحرارة تتأجَّج، وأغمض القس عينيه، ورسم علامة الصَّليب على جبهته وصدره، وهمس:

- أبانا الذي في السَّـموات.. ليتقدَّس اسمك.. ليأتِ ملكوتك.. لتكن مشيئتك كما في السَّماء كذلك على الأرض.

واندفعت النَّار إلى داخل القبو مثل ريح هوجاء.

47

ابتسم "صُنع الله" بسمة خفيفة ساخرة قبل أن يقول:

- أنا إنسـان عاش آلاف الأعوام، هل تعرف حجم الحكمة التي يمكن أن يكتسبها رجل عاش كل هذا الدَّهر؟ ما الذي يحتاجه رجل امتلك الزَّمن كي يسعى إلى النَّصب يا "حميد"؟!

فهـم "حميـد المِجَري" أن الرَّجل قد قرأ أفكاره، واسـتهجن منه تسـاؤله الذي دار فـي داخله عن إن كان نبيًّا فعـلًا أم أنَّه أكبر نصَّاب صادفه في حياته.

"إزَّاي عاش آلاف السنين؟!".

كان الليـل مدلهمًّا في سـماء "القاهرة"، لكن الشَّـوارع مكسـوَّة بالنُّور الذي ابتكره الإنسـان، والزِّحـام عَمَّال، ولا أحد يمكنه تخيُّل أنَّه في هذه العشـوائيَّة المستباحة، المسـَّماة بـ "إسطبل عنتر"، سيتم الاتفـاق الأوَّل بين النَّبي "صُنع اللـه"، والنَّصاب "حميد المِجَري"، كي يبدآ سويًّا في تنفيذ مخطط لهزيمة الموت، وبعث الخلود.

قال "صُنع الله" لـ "المِجَري":

- احكِ لي عن الذي جرى بينك وبين أخي "محمد".

صمت "المِجَري" لحظة قبل أن يقول:

- كنت عايز احكيلك قبل كدا وما رضيتش تسمعني.

اخترقت نظرات "صُنع الله" عينيه، وقال بصوت عربي فصيح، وفي منتهى الحزم:

- احكِ.

تقلُّب أحوال "صُنع الله" يُربك "المِجَري"، ففي الوقت الذي يمنح فيه الحنان كأم رءوم يستطيع أن يمزِّق القلوب بالرُّعب كأخطر قاطع طريق.

لا بد أن يحكي.

- كإنِّي كنت ف بلد أرياف وسط صحرا.. بيوتها دور واحد.. ومعموله مِ الطِّين.. وانا ماشي ف شوارعها حَيران.. بادوَّر على رسول الله.. وفجأه لقيتني جُوَّا فسحاية بيت مِ البيوت دي.. وقُدَّامي شابَّه لابسه اسوِد فِ اسود.. ما شُفتش وِشَّها نهائي.. لكن سمعت صوتها بتقوللي: النَّبي خرج من أوِّل النَّهار ولسَّه ما رجعش. شوَّيه ولقيتني قُدَّام باب بيت تاني.. بس الباب دا قُدَّامه حِتَّه كِدا مسقوفه بجريد النَّخل.. وِعَ الأرض طواجن وقعاب كِتيره.. وقُدَّام الباب واحد واقف.. سألته: رسول الله هِنا؟ قاللي: أيوه.. استنى

استأذنلك. ما غابش.. خرج وقاللي: ادخل. دخلت.. كانت أوضه كبيره أوي.. وف آخرها فِ الوِش كِدا كان النَّبي قاعد.. وعلى يمينه تلاته من صُحابه قاعدين جنب بعض.. ولمَّا هاتحرَّك ناحيته لقيت إيده جات لحد عَندي.. كان عايز يسلِّم عليَّا.. بس انا حاسس ان إيدي وسخه.. كنت مُحرج جدًّا.. دي تاني مرَّه يمد الرَّسول إيده ناحيتي.. والمرَّه دي هاتبقى عيبه كبيره.. قلت مابديهاش بأه.. ومسكت إيده بإديَّا الاتنين. بصِّيت ف عينيه.. أشوفه مضَّايق والَّا لأ.. لقيته بيبتسملي.. ففرحت أوي.. وقعدت ابوس ف إيده وابكي. ولمَّا خُفت اكون مضايقه سِبت إيده الشَّريفه، راح باصص فِ عينيَّه وقاللي بالفصيح كِدا: اقرأ. شويَّه كمان ولقيتني بَرَّه الأوضه تحت سقف جريد.. وِسط الطَّواجن والقعاب.. ببُص لقيت قعبه مليانه مَيَّه بعسل.. رفعتها على بُقِّي عشان اشرب.. لكن خُفت اضايق الرَّسول.. دا انا هاشرب من غير ما استأذنه.. سمعت صوته طالع مِ الأوضه بيقوللي: اشرب. شربت بأه.. وحلاوة اللى شربته ما تتوصفش.. كنت باشرب وانا ببكي.. مش مصدَّق إن الرَّسول راضي عنِّي للدرجه دي.. مع إني نصَّاب وبتاع نسوان.

نظر إلى "صُنع الله" وقد صمت لحظة، قبل أن يقول:

- الغريبه بأه.. أنا شفت دا كله بعد ما كنت مع "سوسن"! عيني سِهيت شويه م التَّعب.. وصحيت على ضحكتها وهيا..! أستغفر الله العظيم.

رفَّت بسمة على شفتي "صُنع الله" قبل أن يقول:

- أخي "محمَّد" يحب النِّساء.

- قاللي اقرأ!

- قال لك "الزم".. وقال لك "اقرأ".. وقال لك "اشرب".. وقال لك "صَوِّب".

كان "المِجَري" ينتظر توضيحًا، لكنَّه فوجئ بـ "صُنع الله" يقول:

- اسمع ما سأقوله لك.. فلن أقوله مرَّة أخرى.. لقد أُختِرت من قِبَل العظماء.. محاربي الموت.. كي تعمل من أجل خلاص البشريَّة.

- أنا؟!

- ستتبعني.. فمهما رأيت من أعمال لا تسأل.. واستطع معي صبرا.

- طيِّب الأوِّل ممكن أعرف مين العظماء دولا اللي بيحاربوا الموت؟

- مَن تقولون عنهم إنَّهم الرُّسل.. المتكلِّمون بالحياة عن الحياة.. الذين تركوا في كتبهم مفاتيح الفهم لكل باحث عن الفهم.

- بس انا نصَّاب! إزاي يختاروا نصَّاب؟!

- وَقود الدَّعوات العظيمة دائمًا هم الخُطاة يا "حميد".. هم المظلومون الذين إذا آمنوا بفكرة ستحقِّق لهم العدل أخلصوا لها.

الكلام الكبير يتعب عقل "المِجَري":

- طيب استأذنك.. النَّهار قرَّب يطلع.. وانا عايز أريَّح شويَّة.

هز "صُنع الله" رأسه موافقًا، وقال:

- درِّب نفسك على عدم النَّوم.. حمَّالو هموم البشريَّة لا ينامون..

اتَّجه "المِجَري" ناحية باب الغرفة للمغادرة، لكنَّه توقَّف فجأة، واستدار مواجهًا الرَّجل، قبل أن يسأله:

- إزَّاي ممكن الأنبيا يشربوا شاي "كريمه السِّيما التُّركي"؟! دي ولا مؤاخذه يعني يا مولانا!

- إنَّها خاطئة.. كما أنت خاطئ.. كما أنا خاطئ.. جميعنا يهفو إلى حياة عادلة.. وطعام الخُطاة حِلٌّ للخُطاة.

- طيِّب.. بما إنِّي مش هايكون مسموحلي أسأل بعد كِدا.. ليَّا سؤال أخير.

أومأ "صُنع الله" برأسه، بما يعني أنَّه مستعد لسماع السُّؤال، قال "المِجَري":

- إزَّاي انت نبي ومش بتؤمن لا بآخره ولا بشياطين.. وكمان بتقول انُّه مافيش حاجه اسمها موت؟! دا انت شويه وهاتقوللي ما فيش رب!

كم يكون وجه هذا الرَّجل جميلًا عندما يبتسم!؟ حتَّى إن جماله يفيض على العالم، والسَّكينة تهدهد القلوب التي حطَّمتها مشقَّات الدُّنيا، قال بصوته الشَّامخ مثل جبل:

- لا إله إلَّا الله..

48

جحظت عينا "أشرف"، وأخذ ينظر إلى لا شيء، وانفتح فمه واسعًا، ورغم أنَّه كان يَجُر بصدره شهيقًا ثقيلًا، إلَّا أن دماءً غزيرة كانت تنسال من ركني شفتيه، لقد شقَّ نصل المطواة منتصف صدره، قبل أن ينتزعه القاتل، ويجري هو ورفيقه مذعورين، ويختفيا بين عربات القطارات المركونة.

تهاوى على ركبتيه، وانتفض جسده، وسقط منكفئًا على وجهه.

كان ما حدث أكبر جدًّا من أن تتحمَّله أعصاب طفلة بالكاد استشرفت مراهقتها، وإذا كان قانون حياة الظِّل قد حتم على الولدين أن يتركا جثَّة صديقهما لمصير مجهول، فقد حتم عليها، أيضًا، أن تترك جثَّة حبيبها، وتجري في اتِّجاهٍ لا تعلم منتهاه.

تجري وهي تئن، وشمس العصاري كانت غريبة، أحرقت أمنها، وألقت بها إلى الوحدة، ليست كوحدتها الأولى، وإنَّما إلى وحدة قتَّالة، الوحدة التي بعد ونس.

هذه أوَّل مرَّة رأت فيها الموت، وفي أبشع صوره.

وكلَّما مرَّت "سوسن" بعد ذلك، بلحظة هصور طوال رحلتها في حياة التِّيه، تذكَّرت موت حبيبها في العصاري، وضجيج القطارات، والدَّم المصحوب برعب قلبها، وانطلاقها هاربة إلى لا مكان.

تكتَّل عليها ركَّاب السيَّارة "الميكروباص"، وانتزعوا منها الطِّفل، وأعطوه للمرأة لمجرَّد أنَّها أبرزت ورقة تُثبت ملكيتها له، فداهمتها نفس الحالة، العالم ظالم، واستحلى ظلمها، من يقدِّم ورقة رديئة يكسب، ومن يقدِّم اللحم بدمه الطَّازج، دليلًا، يخسر.

لم تعد تنظر إلى الطِّفل، وإنَّما مالت برأسها ناحية زجاج النَّافذة، تُتابع بعينيها الظُّلم وهو يجري إلى الوراء بسرعة السيَّارة، يأتي مداهمًا، ويرحل بعد أن يجز رقاب التُّعساء، أشجار الظُّلم، وحقوله، ونخيله، وبيوته، تنداح إلى الخلف، تدهس قلبها من غير أدنى شفقة، فانسابت دموعها.

كان "رشيد"، الجالس خلفها، قد تَرَكَ النَّظر في جريدته منذ أن بدأت المشكلة، لم يتكلَّم مطلقًا، لكن قلبه تعزَّى، ليس كافيًا معرفة أن هناك مَن يشاطرنا نفس الآلام في هذا العالم كي نتعزَّى، العزاء في أن نرى آلامه، وهو الذي عاش لأكثر من عشرين سنة يتلقَّى تربيتات الشَّفقة على كتفه، مدَّ يده، لأوَّل مرَّة، كي يربت كتفَ مقهورةٍ بفقد الضَّنى مثله، وربما فكَّر في أنَّه لو كانت "زينب" تحيا حتَّى الآن، لو أنَّها أفلتت من الجوع والعطش، لو أنَّها أفلتت من ليالي الشِّتاء، لو

أنَّها أفلتت من رعب الشَّوارع، وأصحاب القلوب الصَّخر، لصارت الآن في عمر هذه المسكينة.

أمالت رأسها نصف ميلة كي ترى الذي ربت كتفها، فرأته، من بين دموعها، يعود بناظريه مستغرقًا في جريدته.

49

ذاكرة الإنسـان، كأي عضو ملموس في جسـده، تقوى، وتشتد، بالعمل المستمر، وتخمل، وتزوي، بطول الرُّكود.

وذاكـرة العرِّيـف مجنَّـد "ياسـر المبـروك" صارت أكثـر صفاء، ونقـاء، بالعمل علـى تحويلة الفرقـة، فهو يتعامل مـع أرقام خطوط كثيـرة، تقريبًـا كل خطوط منازل الضبَّـاط في الملكيَّـة يحفظها عن ظهـر قلـب، وبالتَّالي، صـار يمتلك القـدرة على اسـترجاع أي رقم يمكـن أن يكون قـد طلبه، من غير أن يحفظه فـي أجندة ما، أو حتَّى علـى قصاصـة ورقية، طالما لـم تمر أكثر مـن بضع دقائق على طلب هذا الرَّقم.

ما قبل الفجر، الوقت الذي يسيطر فيه الصَّمت سيطرة تامَّة، درجة أن أزيـز الكهرباء، وهي تمـرق في أجهزة "التَّحويلـة"، و"ترانزات" اللمبات "النِّيون"، والذي يبقى طنَّانًا طول الليل، يختفي تمامًا.

كان قـد اسـتعاد كامـل انتباهـه، بعـد هـذه المهاتفـة الضَّالـة مع المرأة المسـيحيَّة، والتـي أيقظت فيه هذا الإحسـاس بالكره لهؤلاء

المسـيحيِّين، رغم أنَّها كانت في منتهى اللطف والشِّـياكة معه، فقرَّر أن يضايقها إلى أقصى ما يستطيع.

لقد طـاف بذهنه، وهو يدير القرص مرَّة أخـرى، بنفس الأرقام، ومن غير خطأ واحد، أن ما سـيفعله مهيـن لكرامة هذه المرأة، وأنَّه، كإنسان يقدِّر الكرامة الخاصَّة بكل شخص، يجب أن يتوقَّف، فورًا، عن هذه المحاولة.

"من امتَى كَماني كان للنَّصارىَ كرامه؟!".

الصَّوت المُميِّز لرنين الهاتف انساب متقطِّعًا من ثقوب السمَّاعة، طـنَّ طويلًا قبل أن يسـمع نفس الصَّوت الـذي يحمل هدوء صوت أمِّه، أقرب إلى الهمس:

- ألو.

- أنا بصحِّيكي عشان تقومي تصلِّي الفجر.

جاءه الصوت مبتسمًا:

- ما قولتلك يا بني أنا ست مسيحيَّه.

ولأنَّه لم يسـبق له أن تعمَّد مضايقـة الغير بكل هذه الفجاجة، لم يعـرف كيـف يواصل أطول من ذلـك، فتوقَّف عن الـكلام، لكنَّه لم يضع السمَّاعة.

جاءه صوتها حانيًا:

- حسَّاك يا بني عايز حاجه.

هزَّته هذه الجملة، التي تقولها المرأة بحنان صادق، يشبه الحنان الذي كانت تدسُّـه أمُّه في جملة كانت تقولها له لمَّا ترى حيرته لأي سبب، تشبه هذه الجملة بالضَّبط:

- حاسَّاك يا ولدي عاوز حاجه.

- انتي عارفه ان انا مسلم؟

ضحكت ضحكة هادئة:

- وهُوَّ ممكن حد فِ الدُّنيا يصحِّيني عشان صلاة الفجر غير حد مسلم؟! ومسلم صالح كمان.

ثم استدركت:

- شكلك يا بني شاغل نفسك بالموضوع دا أوي!

ارتبك:

- موضوع إيه؟

- المسيحيِّين والمسلمين.

استدركت:

- ربِّنا ما يشغلك بِوِحِش يا بني.. يعني هاقولَّك على حاجه عشان تفهمني.. أنا ست كبيره.. وباتحرَّك على كرسي بعَجَل.. عشان كدا باتأخَّر عليك ف الرَّد.. على بال بأه ما اطلع مِ الأوضه لغاية الصَّاله اللي فيها التِّليفون..

ضربت هذه الملحوظة قلب "ياسر المبروك" بالألم، إنَّه يتسلَّى بعذاب امرأة عجوز صاحبة عاهة.

استمرَّت بصوت متقطِّع، كأنَّها تبكي:

- ما كُنتش فاكره إن "ماجد".. ابني الحيله.. اللي خبِّيته مِ الزَّمن عشان اسِّنِد عليه وانا عضمه كبيره.. مش هايقدر يِهرَب من قضاه.. وانِّي مكتوب عليَّا ف العمر دا أموت بحسرته..

صوت مؤذِّن الفرقة يَسري بنداء الفجر، صوت مبشِّر بقدوم النَّهار، إلَّا أنَّه مشبع بأنين الليل.

فاجأه أنَّها أجهشت بالبكاء وهي تقول:

- يمكن لو "المسيح" خيَّرني بينه وبين ابني.. كنت اخترت "ماجد".

50

إنَّها شجرة عبرت الأزمنة بمنتهى المكر، لم تلفت إليها الأنظار، حيث بقيت تقدِّم الظِّل الوفير لكل عابر، بالمقابل كانت تتمكَّن من ضرب جذورها في الأرض ضربًا عميقًا، وتقوية جذعها حتَّى صار عصيًّا على القطع، ولمَّا صارت أعظم شجرة على ضفاف "النِّيل"، تحوَّلت إلى آية، والآية معجزة، والمعجزة تستحيل على الموت.

هنا، إلى الشَّمال قليلًا من هذه الشَّجرة، وبين أعواد الحلفاء، في أصل نبات الأحراش الذي ينمو بحريَّة، كان "صُنع الله" يقضي بعضًا من أزمنته الطَّويلة، وحيدًا، فلقد علَّمته التَّجارب أن الخلود بين الموتى مؤلم جدًّا، تمامًا مثل أن يموت الإنسان ويترك عالمًا يعرف أنَّه خالد، هناك يخسر الأحبَّة، وهنا يخسر الخلود.

ليس مستعدًّا لتحمُّل عذابات فقدٍ متتالٍ سيواجهها باعتباره رجلًا لا يموت ويعاشر الفانين، فلزم الانعزال، واستمر يدعو النَّاس، عبر الأزمنة، فرادى، يخترق حياتهم، ويدعوهم إلى اكتشاف قيمتهم الحقيقيَّة، وإلى قراءة محايدة للكتب التي يقدِّسونها، وأن يحلِّلوا

تصرُّفات أنبيائهم بعقل يستنير بعلوم حاضرهم، ليعرفوا أن الله مجَّد الإنسـان، وعلى الإنسان أن يستخرج مكامن عظمته، كي يعرف كم هو الله أعظم ممَّا يتصوَّر.

يدعوهم، فمَن يؤمن بقدرة الإنسـان على تحصيل الخلود يُرسله ليسعى بين النَّاس بالفكرة المهيبة، ومَن لا يؤمن يدفع به إلى ما يؤمن به من موت، فيدبِّر له سُبل القتل، ومن غير رحمة، فنبتة الخلود يجب أن يُنقَّى ما حولها من مُحبِّي الفناء، ومُقدِّسينه.

خرجـت الحيَّة من شَـق ضفَّة "النِّيل"، وتسـحبت إلـى وجهتها، جـذع الشَّـجرة العظيمة، فمرَّت بجواره، وألقت إليـه نظرتها الباردة المعتـادة، ثـم واصلـت صعودهـا إلـى الأغصـان، سـتأكل بضعـة عصافيـر، وتعود، مهمَّة قتل من أجل الحياة، ولقد واصلت عصافير هـذه الشَّـجرة خوفهـا الذي بدأتـه منـذ آلاف السِّـنين، فتوقَّفت عن الشَّقشقة فجرًا، وفي الغروب، لكن الحيَّة لم تتوقَّف.

الشَّجرة أقدم من الإنسان، وكذلك الحيَّة، لكن الإنسان أقدم من العصافير.

وبينما "صُنع الله" يُلقي بنظره في مياه "النِّيل" سمع أصواتًا فزعة، وأجنحة غربان ترفرف بارتباك.

51

تابـع "أبـو أميـرة" الصِّـراع الـذي جرى بيـن "سوسـن" والمرأة الأخرى من أجل الطِّفل، لكنَّه لم يتدخَّل مطلقًا، فقط كان يهز رأسه، ويمصمص شفتيه.

"إيه السَّفريه اللي كلها عجايب وغرايب دي؟!".

لكن جرحه كان قد نُكِئ، إنَّهما تتصارعان من أجل طفل موجود فعلًا، وهو يتسـول طفلًا من علم الغيب، ولدًا، أو حتَّى بنتًا يُسـميها "أميرة"، ليس مهمًّا، المهم أن ينجب، ليس هناك مانع من طرفه، هو صاغ سليم، المشكلة في زوجته، وزوجته تحبُّه، وكثيرًا ما تمنَّت أن يكون هو السَّبب في عدم الخلفة، قالت له:

- لـو طلع السَّـبب مِنَّـك حاتْكِن جَمْبـي.. ومِش حاتْـدوَّر على جواز تاني.. بس يا ويلي لو السَّبب طلع مني.

كانت واثقة جدًّا من أن المانع عنده، وكان هذا يدهشه، حتَّى كاد يصدِّق كلامها من غير كشف، لكن الطَّبيب نظر في نتائج التَّحاليل، وقال ما كسر قلبها.

خرجــت مــن العيــادة مذهولــة، مشــت وراءه حتَّــى السـيَّارة في صمت، وركبت جواره، وجلست جثَّة ميتة، وبعد دقائق، وهو يقطع طرقات مدينة "طهطا" المزدحمة، نظر إليها وزعق:

- مــا لك يــا بِت؟! ماكنتي بتقولــي ربِّنا كريم ومِــش عارف إيه! الإيمان راح وين اومَّال؟!

رأى وجههــا جامدًا، بينما خيطان ســميكان من دمــوع يتقاطران باستفاضة.

لم تحرِّك وجهها عن الطَّريق أمامها وهي تقول:

- أنــي مِش مزعِّلنــي الخلفه.. أني زعلانه عشــان انت حاتتجوَّز تاني.. صدَّقت ما حاتلاقيلك حجِّه يا واطي.

رفع صوته، وقال:

- ما تخافيش.. والله ما انا عاملها غير لو لَمِّك قبر.

ثم استدرك:

- دكاتــرة "طحطــا" بهايــم.. احنــا ندبِّــرو قرشــين ونطلعو على "مصر".

مســحت دموعها، كان كلامه يبعــث فيها أملًا جديدًا، ابتســمت أخيرًا، ونظرت إليه، وقالت:

- ربَّك كريم.. واللي يقف على بابه ما ينضامشي.

زعق وهو يضغط على آلة التنبيه:

- تاني؟! قبر امَّا يلمِّك صُح عاد.

يعود "أبو أميرة" من سرحانه، وثمَّة انقباض انتفخ في قلبه، لقد تأكَّد من أن السيَّارة "الميكروباص"، رقم "345678، أجرة أسيوط"، سيَّارة نحس، جلَّابة هموم.

وهي الآن تجري على الطَّريق بسلاسة، تحمل أربعة عشر راكبًا، غير طفل، وسائق، وتقترب بهم جدًّا من الكارثة المفجعة، بينما يغيب "أبو أميرة" ويعيد النَّظر إلى المرآة الأماميَّة، ينظر إلى "سوسن" بِحيرة.

52

بدا كقطعة من ظلام دامس تتحرَّك في بحر فضَّة، ثمَّة ريح تخبط جلبابـه الأسـود فيطيـر حوله كأجنحـة نابتـة، وكان يضع يـده على الغلالة السَّـوداء التي غطَّى بها رأسـه حتَّى لا تنفلت، وعندما وقف أمام الباب الشَّـاهق لهذه الكنيسـة المزروعة في قلب الصَّحراء قال لنفسه:

"كان أحسن لو عِملوها دير للرَّهبنه"

"يا خايب، مين انت عشان تقترح على يسوع، هُوَّ العالِم وانت جاهل".

"حقيقـي.. يمكن بشـاره بإن الصَّحـرا دي هاتعمـر.. ويملاها ناس يمجِّدو الرَّب".

طرق الباب بقبضة عفيَّة، رُغم أن الباب موارب ليترك شقًّا يكفي لدخـول ثعلب، بما يعني أنَّه مفتوح، ويمكن له الدُّخول، لكنَّه فضَّل ألَّا يفعل من غير استئذان.

ولـمَّا لـم يأتِهِ رد، طرق مرَّة أخرى.

ربما الرِّيح تمنعه من سماع مُجيب بالدَّاخل، فسلَّط أذنه نحو الشَّق وطرق ثالثة، وانتظر دقيقة، فلم يسمع أيَّة أصوات، عندئذ كان لا بد ممَّا لا بد منه.

دفع الباب، فأصدرت مفصَّلاته الضَّخمة صوت نعيق غربان محمومة بالموت، فاقشعر جلده.

دخل، ورغم أنَّه ما دخل كنيسة في حياته إلَّا ولفَّه الفرح بأنس "المسيح"، إلَّا أن هذه الكنيسة كانت على غير ذلك، ما إن وقف في باحتها حتى هزَّته الرِّعدة.

ثمَّة أضواء خافتة تهتز بالدَّاخل، لكن لا حركة لمخلوق، وفي اللحظة التي قرَّر فيها أن يُطلق صوته مناديًا، لمرَّة أخرى، على أحد ما بالدَّاخل، لمح حركة في الركن اليمين للواجهة، فدقَّق النَّظر، ليظهر له صليب ضخم في ظل القمر، وأحدهم يتحرَّك تحت هذا الصَّليب كأنَّه بخار كثيف يتماوج.

تقدَّم خطوة باتِّجاه ما رآه، وهتف:

- يا سيادنا.

وفي الوقت الذي أنصت فيه منتظرًا ردًّا من هناك، إذا بصوت طرقة هائلة، ناتجة من اصطدام قطعتي حديد، كأنه دق بمطرقة على مسمار غليظ، ثم صيحة ألم تشتِّت الصَّمت.

وقبل أن يفهم شـيئًا، سـمع الصَّوت المتألِّم يصرخ ممزِّقا الرِّيح:
"ابعد يا مسكين.."

طرقة أخرى "شَوَّت" بجوار أذنيه، ثم صرخة أعلى، كأن صاحبها يتقطَّع، فركبه الهلع، وتردَّد بين أن يستمر في التقدُّم ناحية الصَّليب، الـذي تأتـي من ناحيته هذه الأصـوات، ليحاول تقديـم النَّجدة لهذا المتألِّم، وبين أن يسـتدير للخلف، ويطلق سـاقيه للرِّيح، إلى خارج هذه الكنيسة الغريبة.

وعندما شـعر أن الكائن الذي بدا كبخـار يتماوج قد ثبت مكانه، وأنَّه يحدِّق ناحيته بجمود، ثم صكَّت أذنه صيحة المُعذَّب:

- بقولك ابعد.. اهرب بروحك أحسن لك.

استدار ببطء، قبل أن يخطو في اتِّجاه الباب الكبير، خطا ثلاث أو أربع خطوات على مهل، ثم مشـى سـريعًا، كان خجلًا من الهروب، وهو الرَّاهب المتقوِّي بـ "المسيح"، لكنَّه عندما شعر بأن أحدًا يتبعه، وأن أنفـاس هذا الأحد يسـمعها تفح، وأن قشـعريرة عظيمة ضربت كل خليَّة على سطح جلده، أطلق ساقيه للرِّيح.

الذي حدث، بعد ذلك، يماثل الكابوس تمامًا، لقد جرى، قدماه تنغرسان في الرِّمال ويخرجهما بمعاناة، لكنَّه ظلَّ يجري، والصَّوت المعـذَّب يسـتحثُّه، بصرخات مقتولة، كي يواصـل الهرب، يجري،

والعرق ينهمر من جبهته ورقبته، يلهث، وأنفاس مَن يطارده تقترب، بينما الباب لا يقترب أبدًا، كأنَّه يجري في مكانه.

وتمامًا، كما في الأحلام التَّعيسة، تلك التي تدور رحاها من غير منطق، فقط تطحن بؤسًا، وجد نفسه، بعد طول جري، يسقط من فرط التَّعب على ركبتيه، ولأن رئتيه كادتا تخلوان من الهواء رفع رأسه لينتزع الشَّهيق، فرأى الصَّليب الضَّخم في مواجهته، وإنسانًا مشبوحًا عليه، ودمًا طازجًا ينفر من المسمار الذي دُق في قدميه حالًا، كما أنَّه رأى رجلًا واقفًا تحت الصَّليب، لحيته طويلة للغاية، يعتمر عمامة قاتمة عجيبة، بالغة الضَّخامة، وقد ارتدى جلبابًا أبيض بالكاد يصل إلى منتصف ساقيه، وقف قابضًا على مطرقة، وبجواره حربة غليظة منكوتة في الرِّمال.

كان صوته عميقًا:

- أنا رسول "المسيح" إلى المؤمنين به.. يُخبركم أنَّه كره العذاب.. وضاق بالموت على الصَّليب.. وأحب نعمة الأمان.. ورضي بمتعة الحياة..

خرج الصَّوت المكسور بالألم مشحونًا بالإيمان:

- كاذب يا شيطان.. "المسيح" تمتَّع بحمل الألم عن الإنسان.. وأحبَّ صليبه.

بكل قوَّة هوي بمطرقته على أصابع قدمي المشبوح فأطلق صرخة ملتاعة.

قال الرَّجل الدُّخاني هازئًا:

- لا يصرخ متمتِّع مثل هذه الصَّرخات المعذَّبة.

- فمي يصرخ.. وقلبي يغنِّي الأناشيد.. أُمجِّد محبَّة الله لي أن وضعني على الصَّليب.

- لو أحبَّك الله لأعمل عقلك..

كان القسِّيس لا يزال جاثيًا على الرِّمال، وقد غاصت ركبتاه فيها، لا يكاد يستطيع أخذ نفس واحد من الرُّعب، لكنَّه ظل يستمع لهذا الشَّيطان الذي يمارس لعبة الألم من غير رحمة، والذي يقول بصوت غاضب:

- لقد كره "المسيح" صليبه.. وضايقه الألم حد الشَّكوى.. وزعق: إيلوي.. إيلوي.. لِمَ شبقتني؟

ثم ضرب بالمطرقة ساق المشبوح، فسمع القسِّيس بوضوح صوت تهشُّمها، ليشعر بسخونة تجتاح فخذيه، وعرف أنَّه قد بال على نفسه.

كان صوت هذا الكائن المرعب هادرًا وهو يسأل:

- هل تعرف معنى: إيلوي.. إيلوي.. لم شبقتني؟

لا يوجد قسّيس، أو راهب، لا يعرف معناها.

كان "المسيح" يصرخ، وهو مشبوح على خشبة اللعنة:

- إلهي.. إلهي.. لِمَ تركتني؟

53

سمع الشَّيخ "غريب"، كثيرًا عن كرامات أولياء الله الصَّالحين، المُريدون يفرِّقون بينهم على حسب عظمة هذه الكرامات، وقدراتهم المختلفة على الكشف، ودرجة كل منهم على سلَّم العارفين بالله، عاش يسمع عن هؤلاء في مجالس الذِّكر والسَّمر، يقرأ عنهم في كتب الدِّين والتَّقوى، لكنَّه لم يرَ أحدهم وجهًا لوجه مطلقًا غير اليوم.

إنَّه هو هذا الرَّجل، صاحب العمامة الخضراء، الذي وقف بجواره في الصَّف لصلاة الظُّهر، وهمس بنفس الآية التي كان تفسيرها الشَّعبي يشغل باله:

﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

وقتها اندهش الشَّيخ "غريب"، وسرت رعشة في جلده، لكن سرعان ما دخل كلُّه في السَّكينة، وشعر بأن الله لم يغضب عليه كونه استمع لكلام فاسق مثل "شوقي"، وإلَّا ما كان هذا الولي قد قبل الوقوف بجواره بين يدي الله.

ثمَّ فكَّر في أن هذا الولي ربما يكون الوحيد الذي يمكن أن يقدِّم له تفسيرًا لهذه الآية الملغزة..

"دولا بيشغَّلو قلوبهم.. واللي يشغَّل قلبه يشوف بعين البصيرة.. واحنا قلوبنا عميا".

لكن ما إن انتهت الصَّلاة حتَّى فوجئ بما أذهله، لم يكن الولي يجلس على يمينه، وبحركة تلقائيَّة نظر إلى يساره فلم يجده أيضًا، دار برأسه إلى الوراء ينظر بين الصُّفوف المقعيَّة على ركبها، لم يكن هناك أي أثر لهذا الرَّجل.

"مش معقولة يكون بيتهيَّألي!".

كان الشَّيخ "محمود"، فور انتهائه من إمامة الصَّلاة، قد دخل إلى حجرته المخصَّصة له في المسجد، فدلف الشَّيخ "غريب" وراءه، وقال:

- ها يا شيخ "محمود".. إيه رأيك في اللي قولتوهلك؟

وقبل أن يفتح الرَّجل فمه، استدرك الشَّيخ "غريب":

- خدت بالك مِ الرَّاجل ابو عمه خضرا دا؟

ولمَّا رأى علامات استفهام كبيرة نضحت على وجه الشَّيخ "محمود" قال:

- اللي كان واقف على يميني فِ الصَّلا..

قال الشَّيخ "محمود" بنبرة مُستغلقة لا تُشجِّع على مواصلة الحوار:

– ما شُفتِش حد بعمَّه خضرا.. ولا حد بعمَّه حمرا.. وانا تعبان وراسي واجعاني.

فهم الشَّيخ "غريب" معنى الكلام، فألقى السَّلام ومضى، وذهب إلى المقهى، أخذ حاجياته، وركب الأوتوبيس، كان قلبه منقبضًا، فليس سهلًا أبدًا أن يُعيد الإنسان النَّظر في فكرة نشأت معه منذ طفولته، فما الحال وهو يُعيد النَّظر في آية مقدَّسة؟

شعر أن وجوده كلَّه يتزعزع، وأنَّه قد ارتكب خطأً حقيقيًّا، فما يأتي من عند الله حق، والباطل هو العقل الذي يتكبَّر.

ومع ارتجاجات الأوتوبيس المتهالك على مطبَّات الطَّريق الملتوية بين الحقول الواسعة، وتحت أشجار نخيل السِّكك المهملة، كانت نفسه قد أخذت مسارها نحو الاستقرار الرُّوحي، عائدًا إلى قناعة غابت عنه في السَّاعات القليلة الماضية، مفادها أن كل هذه الملابسات العقائديَّة ليست إلا أسئلة اختبار لإيمان المسلم، وأن المؤمن الصَّادق هو الذي يُصدِّق الغيب، والتَّفاسير التي تناسب هذا الغيب، حتَّى لو شعر بأنَّها تستهجن عقله، فما الإيمان غير صراع دام بين القلب والعقل، والرَّابحون فيه هم أهل "استفتاء القلب".

ثمَّ إن ظهور صاحب العمامة الخضراء، وولي الله الصَّالح، له في توقيت الشَّك، بهذا الشَّكل العجائبي، غير العقلاني، ليس إلَّا دلالة على انتصار القلب.

"ملعون أبوك يا عقل"

نزل من الأوتوبيس عند أوَّل الطَّريق الضَّيقة المحاذية لترعة صغيرة، الطَّريق التي غالبًا ما تكون مقطوعةً في مثل هذا الوقت من الظَّهيرة الحارقة، النَّاس يستكينون لنوم القيلولة في بيوتهم، والعفاريت هي التي تمرح بنشاط.

وما إن توغَّل قليلًا بين الحلفاء وجذوع النَّخيل حتَّى ظهر صاحب العمامة الخضراء أمامه، منحنيًا، يلتقط بلحًا أخضر لم يكتمل نضجه، تساقط تحت نخلة سامقة، ضربت بشواشيها عاليًا.

لأوَّل وهلة، شعر الشَّيخ "غريب" بأنَّه أمام عفريت من عفاريت الظَّهيرة، فأخذته الرِّعدة، قبل أن يستعيد رباطة جأشه بسرعة، فالرَّجل هو نفسه مَن صلَّى بجواره، ولي الله الصَّالح الذي اطلع على ما في صدره.

ضبط نفسه يرتعد مرَّة أخرى، لكنَّها رعدة ذات طعم آخر، إنَّها نتاج الإحساس بمهابة هذا العارف بالله، المتعاظم بالله ورغم ذلك يطأطئ من أجل حفنة بلح قد ترفض الماعز أكلها.

هدأ خطوه، وأظهر الإجلال على محيَّاه، وعندما صار محاذيًا له ألقى عليه السَّلام، فلم يبادله التَّحية، وإنَّما جلس القرفصاء، في ظلٍّ هشٍّ لسعف نخيل تخترقه أشعَّة الحر.

قرَّر أن يواصل طريقه في صمت، وتذكَّر أن الرَّجل، منذ ساعتين أو أقل قليلًا، كان واقفًا في الصَّف بجواره قبل أن يختفي، وأنَّه من الممكن أن يكون مجرَّد وهم، فخبطت الرِّعدة، هذه المرَّة، كل جسمه بقوة زلزال.

- قف!

عندما صكَّ أذنيه هذا الصَّوت الآمر لعبت الطمأنينة في صدره مرَّة أخرى، فالعفاريت لا تتكلَّم، وليس للوهم أصوات، وإن كانت فليس بمثل هذه الرَّوعة.

توقَّف فورًا، وبينما يستدير لينظر إلى ولي الله الصَّالح، لم يكن يعرف أنَّه يستدير لمواجهة الرُّعب.

54

- النصَّابون أذكى البشر..

- ...... !!

- يستلبون عقول النَّاس.. فيأخذون منهم الغالي بكامل رضاهم.. وإذا كنت قد قضيت حياتك تنصب عليهم.. فمنذ الآن انصب لهم لتعطيهم.

- .... !؟

- "الزم" عقلك كي يعلِّمك.. و"اقرأ" بقلبك كي تفقه.. و"اشرب" صمتًا طويلًا من كأس الحكمة كي يقول لسانك قولًا ثقيلًا.. ثم "صَوِّب" إرادتك نحو الغاية الجليلة.. خلافة الله على الأرض..

- .... ؟!

- يا "حميد".. منذ اللحظة أنت نبي.

55

كانت السَّـاعة قد تجاوزت الثَّانية بعد منتصف الليل عندما سـار "زياد" في شـارع "شـريف"، بعد انتهاء السَّهرة في الـ"كاب دور"، عائدًا إلى شقَّته في "السَّيدة زينب".

الشَّـارع خـالٍ مـن الحركـة، بعـض السـيَّارات مركونـة محاذية للأرصفة، المباني القديمة منقوشة بالجمال المعتَّق، وأعمدة الإنارة تصبغ اللوحة بلون ذهبي ساطع.

كانـت هناك فكرة قصَّـة تُقأقئ في عقله، عن شـمعة عمياء ملقاة بإهمال داخل صدر رجل يائس، وبينما هو مستغرق في البحث عن مدخـل لصياغة هذه الفكرة، اعترضته فكرتـه الجريئة، تلك التي لم يُكمل شرحها لـ"زهر المستكي"، فكرة أن الرَّجل أجمل من المرأة، وكم أن هذه الفكرة، في حد ذاتها، فاضحة جدًّا لعقل الإنسان.

كل شـيء فـي العالم يؤكِّـد أن الذَّكر أجمل من الأنثـى، الدِّيك، الأسـد، الطَّاووس، الثَّـور، ذكر الوعل، كل ذكر مـن كل طير، وكل ذكر من كل حيوان، ورغم ذلك يتغنَّى الذَّكر من كل نوع بأنثاه.

إنَّه يتعامى عن الحقيقة، ويتغنَّى بالغريزة.

الحقائق واضحة، وفي متناول الفهم، لكن يفضِّل الإنسان أن يكون أعمى.

استدار "زياد" في اتِّجاه قصر "عابدين"، فصارت بناية "استراند" إلى يمينه، ورأى المعتوه، المتَّسخ، الذي لا يكف عن الكتابة في مكانه بالممر الذي أسفل البناية، ما زال منكفئًا على الورق، يكتب بانهماك، وقد سبح في بحر من القصاصات المسوَّدة.

أجمل المشاهد الإنسانية على الإطلاق هو مشهد يد تمسك بقلم، وتسوقه على ورقة، وإذا كان من الممكن توقُّع ما يكتبه العقلاء، فإن ما يكتبه المجانين فوق سقف التوقُّعات.

مرَّت مجموعة من الكلاب، لا تقل عن عشرة، متَّجهة ناحية "التَّحرير"، تجري الهوينى، ناصبة آذانها، فاردة صدورها بثقة، ووقف "زياد" خلف جذع شجرة مقابلة لبناية "استراند"، وظلَّ ينظر إلى الكاتب المعتوه، كان عبير الليل قد تفاعل مع "البيرة" التي شربها، فشعر بانتعاش.

رغبة ملحَّة تدفع به نحو معرفة ما يكتبه هذا الرَّجل، ومحاولة المعرفة تهيمن عليه، فقرَّر التَّوجه إليه، لكن في اللحظة التي خرج فيها من وراء جذع الشَّجرة رأى بائعة المناديل تحمل الطِّفل على

كتفها، وقد أراح رأسـه الصَّغير على رأسها مستغرقًا في النَّوم، تتَّجه ناحية الرَّجل المعتوه..

وقفـت فـوق رأسـه، فرفـع وجهـه إليهـا، ليتـرك القلـم ويعتدل جالسًـا القرفصاء، عندها أخرجت المرأة شيئًا من كيسها، وألقته في حجره.

كانت لفافة بها سندوتشـات، وبينما انهمك في التهامها، سارت المرأة في عمق الممر، قبل أن تستدير إلى اليمين، حيث ظلام كثيف دامس، وتختفي.

دقائـق قليلة وانتهـى الرَّجل من طعامـه، ليقف بعدهـا تاركًا كل أوراقـه، ويسـرع إلى عمق الممـر، قبل أن يختفي فـي نفس الظَّلام الدَّامس الذي اختفت فيه المرأة.

لقـد لاحت فرصة طيِّبة لــ "زياد" كي يطَّلع على الأوراق الملقاة من غيـر ترتيب، فتحرَّك بسـرعة عابرًا الشَّـارع، وفى لحظة أمسـت كومة الأوراق في متناول يده، انحنى وأمسك بإحداها، رفعها ناحية النُّور السَّاقط من أعمدة الشَّارع، فأعجبه الخط العربي المنمَّق.

تنسـيق الكلام المكتوب لا يـدل، أبدًا، علـى أن كاتبه معتوه، أو أن بعقله أدنى درجات التَّشـويش، فالسُّـطور معتدلة تمامًا، بداياتها ونهاياتها متسـاوية بالمِلِّيمتر، بحيـث بدت الورقة وكأنَّها مخطوطة عتيقة.

تناول "زياد" أكثر من ورقة، وبسرعة، كان يخشى عودة الرَّجل، ولم يحب فكرة الاستيلاء على بضع ورقات، من غير إذن صاحبها، وقراءتها في البيت.

كل الأوراق تحمل نفس التَّنسيق الجميل، وكان بعضها قد كُتب فيه سطر واحد، وبعضها فيه ثلاثة أسطر، وقليل جدًّا امتلأ بالأسطر.

"الدَّليل الدَّامغ على أن الخلود موجود على الأرض هو وجود عين الحياة في القصص الشَّعبي الإنساني".

"سنقهر المنغلقين ونتخلص من الموت".

"انبشوا قبورهم كي تُدركوا أن الدَّاعين إلى الحياة لا يموتون.. كل الأنبياء سيَّاحون الآن في الأرض.. يتخفَّون عن الناس في انتظار اللحظة المناسبة للظُّهور.. لا أجساد في قبورهم المزعومة".

"آدم فكرة إلـٰهية.. الله لا يُميت أفكاره".

"معمل متطوِّر جدًّا تقنيًّا يعني الحصول على معادلة خلود لا تحتمل الخطأ".

"ضع علامة أمام الاختيار الصَّحيح:

أي الإلهين أعظم:

• إلـه الكهنة، والأحبار، والرُّهبـان، والأئمَّة، الذي خلق "آدم" عاجزًا عن تدبير أمر نفسـه، لا يكف عن تعليق أسـباب خيبته بإرادة الله.

• إلـه أصحـاب العقل، الـذي خلـق "آدم" قويًّـا، يتعلَّم، يصل إلـى الخلود، يحقِّق خلافـة الله على الأرض، ويتحمَّل مسـؤوليَّاته كاملة".

نسـي "زيـاد" العالم مـن حوله، فما يقـرأه كان عبقريًّـا، إنَّه أرقى أنواع الجنون، سيلتهم الأوراق.

وبينما يتناول أخرى سمع صوت آهة أنثويَّة مخطوفة، انبثقت من عمق الممر، آهة غنجاء.

وَشَّـت سـيَّارة تقطع الشَّارع بسـرعة، وعلا صوت أجنحة طائر، قمريَّـة فزعـة طارت فـي فضاء الممر، قبل أن تسـتقر علـى بروز في أعلى الجدران.

تحـرَّك "زيـاد" ببطء ناحية مصـدر الآهة الأنثويَّـة، وبينما تتعالى دقَّـات قلبه كان يفكِّر في جدوى ما هو مُقـدم عليه، وما الفائدة التي ستعود عليه من تتبُّع غنج امرأة.

لا يفعل الإنسـان كل شيء من أجل فائدة ما، وحماقاته المتتالية تؤكِّد أن الجدوى ليسـت دائمًـا هي أهم اعتباراتـه، وكثيرًا ما يكون مجرد إشباع الفضول هو أسمى الغايات.

لقد اقترب من منطقة الإظلام الدَّامس، تلك التي اختفى فيها كل مـن بائعة المناديـل والرَّجل غريب الأطوار، وصار يسـمع بوضوح تنهُّدات محمومة تنفلت من صدرين يعانيان من تقافز قلبين ككرتين من حديد متوهِّج بحمرة النَّار، تتخبَّطان في ضلوعيهما.

شـعر "زيـاد" بأنَّه قـد انفصل عـن الواقع، وتحوَّل إلى شـخصيَّة متطفِّلة في رواية مغامرات كُتبت خصِّيصًا للمراهقين والمراهقات.

ومـزَّق السُّـكون صوت طقطقات ماسـورة عادم "موتوسـيكل" مجنون، اخترق الشَّـارع كالبرق، ثمَّ سـمع صرخة مريعة تتفجَّر في الظَّـلام الحالـك، الكامن في مواجهته كقنفذ، أسـفل الدَّرج الأيمن للبناية:

- عاااااااااااااااااااااا.

كان مصدر الصَّرخة يقترب منه بسرعة عاصفة، ولم يستلزم الأمر أجزاء من الثَّانية قبل أن يقع هذا المصدر في حدود الضَّوء الشَّاحب الهـارب من الشَّـارع، فيرى "زيـاد" هذا المعتوه عاريًـا تمامًا، يندفع باتجاهه كقطار هادر، ولم يستلزم الأمر أجزاء أخرى من نفس الثَّانية كـي يعمل الآخر الذي يسـكن روح الإنسـان، ذلك الـذي يتصرَّف تلقائيًّا عندما يعجز الفكر عن مواجهة اللحظة الخطيرة الطَّارئة.

انطلق "زياد" يجري بكل سرعته، ولكن في الاتِّجاه الخطأ، متعمِّقا في الممر أكثر، ليفاجأ بعد ثوانٍ بباب حديدي، مُغلق بسلسلة صدئة، يسد عليه طريق الهروب، وقبل أن يسعفه تفكيره باتِّخاذ أيَّة خطوة أخرى كانت يد غليظة تُحيط رقبته بقوَّة وعنف، حتَّى إنَّه شعر بأصابعها تكاد تخترق حنجرته.

لا مفر من الاستسلام التَّام، أن يمشي طائعًا إلى حيث تقوده هذه اليد الطَّاغية، فصاحبها موصومُ بالجنون، وغير مستبعد أن يقتله إن هو قاومه، ثمَّ المسألة كلها لا تعني، في النِّهاية، سوى أنَّه أخطأ خطأً مركَّبًا، وعليه أن يتحمَّل النَّتائج بشجاعة.

دفعه الرَّجل حتَّى مكانه الأثير عند الدَّرجة الرُّخامية، التي لا يكف عن فرد أوراقه عليها والاستغراق في الكتابة، حيث كومة الأوراق مبعثرة في مكانها، ثمَّ ضغط على عاتقه ليُجلسه على الدَّرجة عَنوة.

استجاب "زياد"، فجلس، كان الرَّجل يدور حول نفسه، يجمع أطراف كومة أوراقه بقدميه، يدفعها إلى أسفل الدَّرجة الرُّخامية، وأخذ "زياد" يتأمَّله مليًّا، كان عاريًا تمامًا، جسده متناسق جدًّا، ورغم اتِّساخه كان يشع جمالًا، ولو تهيَّأت لهذا المعتوه خمس دقائق في حمَّام دافئ، وخمس دقائق أخرى يتأنَّق فيها أمام مرآة مصقولة، فإن أجمل الرِّجال الخمسينيِّين لن يمكنهم منافسته في روعة محيَّاه، على أن المنطقة القبيحة منه كانت صلعته، وزادها

قبحًا أنَّها في الوقت الذي كانت تلمع فيه، من فرط نعومتها، انسدل الشَّعر الغزير فيَّاضًا من لحيته إلى ما يقارب سرَّته.

انكفأ على صدره، ثم انتزع ورقة من كرَّاسة بجواره، وأخذ يكتب، لم يُطل، وألقى بالورقة في اتِّجاه "زياد"، قبل أن ينتزع ورقة أخرى، ويُجري فيها سِنَّ قلمه.

قرأ "زياد":

"الله ليس سبب المشاكل".

56

أَحبَّها جدًّا.

أحبَّها حدَّ الخطورة.

درجة المغامرة.

والحماقة عنوان الحبِّ الصَّادق.

تنقضـي ليالي الخدمة العسكريَّة على "التَّحويلة" سـريعًا طالما "نـوال" تؤنس لياليه عبر الخط السَّـاخن، لكـن "نوال" حزينة، إنَّها فـي حكم المتزوِّجة، مكتـوب كتابها على واحد مـن أهل بلدها في "الصَّعيد"، رجل من عائلة تشتبك مع عائلتها بخيوط قرابة بعيدة.

بنبرة صوت مندهشة للغاية قال:

- كنت فاكرك مصراويِّه! من فين فِـ "الصَّعيد"؟!

- من "سوهاج".

- كماني!؟ من فين فِـ "سوهاج"؟!

- مـا كُنتِـش حابَّـه اقولَّك انا من فيـن بالظَّبط.. لكـن انت مَلِيت

عليَّا دُنيتي.. وبقيت حاسَّه معاك بالأمان أوي.. وعيب انِّي ما ابقاش واثقه فيك.. من نجع اسمه "الصَّوالح" تَبَع "جهينه".

جاءها صوته محمَّلًا ببالغ الاستغراب:

- إِه.. مِ "الصَّوالـح"!؟ دا انتـي بلديَّاتـي خالـص.. ومِـش بَعيد تكوني قريبتى كَمَاني.. أنا من "جهينه" برضو.. من نجع "الطُّوال".

- مُش معقوله!

ثم استدركت بصوت أسيان:

- بِجَـد أنـا زعلت أوي دلوقتي.. كان نِفسـي تكون من حتَّه تانيه بعيده.. ما باحبِّش البلاد دي نهائي.

- ليه؟! هُوَّ انتي تِعرِفي حاجه عنها عشان تحبِّيها ولا متحبِّيهاش؟! مش انتي عايشه ف "مصر"؟

- أنـا اتولـدت وعشـت عمري كلُّـه فِ البـلاد المتخلِّفـه دي.. وبالعافيـه وافقـوا أكمِّـل تعليمـي فِـ "القاهـره".. ولـولا إن ليَّا جد فوقاني عايش هُوَّ ومراته فيها ما كانش ممكن أكمِّل تعليمي.. الكلِّيه فـ "سـوهاج" أقرب.. لكن عشـان هاعيش فِ بيـت الطَّالبات هناك رفضوا.. ووافقوا على "القاهره" اللي ف آخر الدُّنيا عشـان هاعيش مع قرايبنا دولا!

ثم استدركت بحزن شديد:

- والدِّراسه خلصت خلاص.

وصوتها تضعضع:

- والدُّخله بعد شهر.

ثم بكت:

- وانت بتظهر فِ الوقت الضَّايع.

التزم "ياسر" الصَّمت، كانت السمَّاعة على أذنه، بينما عيناه ناحية الشبَّاك المفتوح، يتابع شريحة هلال صفراء، تنحدر في أفق معتم، بعيد.

- "ياسر"!

- نعم.

- إنت ساكت ليه؟

- بافكِّر فِ الدِّنيا الصغيَّره دي.. أطلب رقم عشوائي.. ومن بين مِيت مَليون تليفون تُرد عليَّا بِت بلديَّاتي.. الظُّلم عاد انِّي رغم القُرب دا كلُّه.. تطلع البِت بعيده قوي!

لم ترد على كلامه، وصمت غاشم أصاب السمَّاعة بثقل، نبح كلب في الصَّحاري المحيطة، وهمس "ياسر":

- "نوال"!

- نعم.

- ما بترِدِّيش ليه؟

سمع نشيجها، ثم همست:

- نفسي اترمي ف حضنك.

لم يستوعب هذه الجملة الأخيرة، فلقد كانت تحمل من المعاني ما هو أكبر ممَّا تخيَّله، كانت أسمى أمانيه أن تكون له زوجة متفهِّمة، تعرف كيف تضحك في وجهه، وتستطيع أن تفهمه، امرأة يَشُق بها طريق الحياة بجلد وصبر، لكن أن تكون له حبيبة تهمس في أذنه بأنَّها تريد أن ترتمي في حضنه!

ارتعشت كل خلايا جسده، وشعر بالدَّم يتدفَّق ضاربًا عروقه، ونشوة تجتاحه، أربكت لسانه وهو يقول بصوت خافت:

- يُقْبا لازم نتقابل.

57

المقهى يصنع الضَّوضاء، "الرَّاديو" يبث أغنية لـ "أم كلثوم"، و"التِّلفزيون" ينقل مباراة كرة قدم، وضربات أحجار "الدُّومينو" بخشب المناضد، مع صيحات اللاعبين المتشاحنة، وعربة بائع البطاطا، وعربات "الكارو"، و"الموتوسيكلات"، و"كلاكسات" السيَّارات وهي تزحف في الشَّارع الضَّيق بين بشر يتحركون كالنَّمل، و"إسطبل عنتر" رغم كل مآسيه مكان يضج بحياة عامرة، لكنَّها عشوائيَّة، تشبهه.

أوَّل الليل السَّاهر، و"حميد المِجَري" يجلس مهمومًا إلى منضدة جلس إليها رجل في سبعينيات عمره، نحيف جدًّا، أقرب إلى القِصر، يضع عمامة خفيفة على رأسه، يلبس جلبابًا إسكندرانيًّا، التَّجاعيد نحتت وجهه، رغم ذلك كانت عيناه لامعتين، وقد قبض على لَي الشِّيشة، ونكت المبسم بين أنقاض شفتيه، يشد الدُّخان بقوَّة، ويطلقه من أنفه مثل قاطرة تعمل بالفحم.

لَوَح عينيه إلى وجه "المِجَري"، المهموم، قبل أن يقول:

- جيل ابن وسخه.. غاوي نكد..

كان صوته نحيفًا مثله، نبراته عفيَّة بسلام داخلي، أطلق زعابيب دخان قبل أن يستدرك:

- دا انت حتَّى نصَّاب محترم.. والدُّنيا لاعبه معاك.. وبتحبَّك.. والآشيه معدن.

- قوللي يا عم "شبانه".. انت عايز تموت واللا لأ؟

أطلق "شبانة" قهقهة حشَّاشين ماجنة، وزعق قائلًا لنادل المقهى:

- هات كمان حَجَر..

لم تكن قهقهته قد انتهت، بعد، عندما قال:

- هُوَّ في حد ف الدُّنيا دي عايز يموت؟!

- يعني لو جالك عرض انَّك تعيش وماتموتش أبدًا.. توافق؟

شدَّ نفسًا شاحبًا من الحجر القديم، وقال:

- لو عرض مجَّاني أوافق..

"المِجَري" هو الذي انطلق يقهقه كالمجانين هذه المرَّة، ولم يتوقَّف عن القهقهة، واستمر يقهقه رغم أن "شبانة" استدرك:

- ما انت صنعتك نصَّاب يا "مِجَري".. ومافيش دين عند أهلك..

وممكن تنصب على أبوك ذات نفسه لو كان عايش عشان تلهفلك منه عشره جنيه.. ومِش بِعيد تكون جاي تنصب عليَّا وتبيعلي الخلود بخمسه جنيه.

أخذ "المِجَري" يمسح دموعه من زوايا عينيه، وقال:

– في ناس لو تِملِك تدفع ملايين عشان تشتري سنه واحده.. مش الخلود كلُّه.

– ناس عبيطه.. وإيه لازمة الخلود فِ دنيا مش هايكون فيها أحبابك معاك.. غريب كدا وسط ناس مش تبعك.

– لا يا عم "شبانه".. أنا باعرض عليك الخلود ليك ولكل حبايبك معاك كمان.. وبخمسه جنيه بس!

شد "شبانة" نفسًا طويلًا، ونبحت الشِّيشة بالكركرة، قبل أن ينفث الدُّخان على أقل من المهل، وشعر "المِجَري" بأن الرَّجل يفكِّر، فقال:

– الكلام هايحلَو.. والزُّبون شكله هايقع.. كدا طلبت معايا شيشه.

رفع صوته:

– واحد شيشه هنا.

قال "شبانة" بنبرة هادئة، كأنَّه يستجلبها من نهر تفكير يجري أمام عقله في هذه اللحظة:

- وحتَّى لو معايا كل النَّاس اللي باحبهم.. إيه لازمة خلود مليان أسى ووجع قلب.. الموت أرحم.

- وييجي من فين الأسى ووجع القلب طول ما هو ما فيش موت يا عم "شبانه"؟! البلاوي دي كلَّها موجوده عشان الموت موجود.

ركن "شبانة" لَي الشِّيشة، ومال بصدره ناحية "المِجَري"، وحدَّق في نقطة وهمية فوق كتفه، وقطَّب جبينه، وقال:

- البلاوي دي مش موجوده عشان الموت موجود يا راجل يا طاسه.. دي موجوده عشان البني آدم موجود.. إحنا يا بني ربِّنا خلقنا من طينه معجونه بالظُّلم والطَّمع.. واذا كُنَّا يا دوب عشان هانعيش خمسين أو ستِّين سنه القلق راكب قلوبنا وخايفين مِ اللي جاي.. هانعمل إيه فِ نفسنا بأه لو عرفنا انِّنا مش هانموت أبدًا؟

كانت ملحوظة صاعقة لـ "المِجَري".

أمعن النَّظر في وجه "شبانة" مبهوتًا، كأنَّه ينظر إلى شبح، بينما استدرك الأخير:

- لازم نموت عشان ربِّنا يعجن الطِّينه من جِديد.. على نضافه.

58

- ماتقولّيش ازّاي عِمِلتي كِدا..

كانا جالسين في شرفة الغرفة الفاخرة بالطّابق الخامس عشر من فندق "سميراميس"، "النِّيل" شريط واسع من دكنة تلتمع عليها أضواء "الكورنيش"، ومباني الضَّفة الغربيَّة، ولوحات الإعلانات الضَّخمة التي تعتليها.

ليلة صيفيَّة بديعة، و"سوسن" تجلس براحتها في الكرسي الوثير، متخفِّفة من كل ملابسها، ما عدا "كومبليزون"، و"سوتيان"، و"كلوت"، وخصلات شعرها رقَّاصة على نغم العبير.

"حميد المِجَري" يجلس بمواجهتها متخفِّفًا أيضًا، من كل ملابسه، ما عدا "شورت" قصيرًا.

- لمَّا تكون شوارعي.. يبقى قانون الشَّارع هايحكمك غصب عنَّك.. الإخلاص لغريزتك وبس.. لو جُعت بِتدوَّر على طريقه تشبع بيها.. مُش عندك بيت فيه تلَّاجه تطلَّع منها وتاكل.. يبقى مافيش قدَّامك غير انَّك تشحت بأه.. تسرق.. مش مُهم.. المهم

تاكل عشـان تقدر تاخد نَفَس الهوا.. مش عشان تعيش.. بس عشان تقدر تسـحب نَفَـس الهوا.. السِّـكس كـدا برضه.. جسـمك بيغلي عليـك وحـش أوي.. ولو مـا ادِّيتوش اللـي هُوَّ عايـزه هايحرقك.. ومش عندك بيت فيه راجل يخصَّك.. ولا حتَّى في أمل بِكِدا.. تقوم تدوَّر بأه على أي راجل يريَّحك وخلاص.

سكتت لحظة قبل أن تقول:

– تعـرف يا "مِجَري".. عيشـة الشَّـوارع خلِّتني اكتشـف إن كل حاجه حلوه أساسها الأربع حيطان.

بديـا في جلسـتهما اثنين من أثرياء العالم، طائر السَّـماء المُحلِّق فوقهمـا لـن يفكِّـر فـي أن هذين الجالسـين في شـرفة أفخـم فندق إنَّمـا يتكلَّمان عـن الفقر المدقع الذي دهسـهما، وفتَّـت روحيهما، ولـو أن عامـل القمامة، الـذي يكنس رصيـف "الكورنيش" في هذه اللحظة، رفع عينيه، واستطاع أن يراهما، لما فكَّر لحظة في أن هذين الجالسـين، يتمرَّغـان فـي بحبوحة السُّـمو، حالهما أسـوأ من حاله بمراحل.

الدُّنيا تسخر من الجميع.

أشـارت إليه، وشـوق عارم بـدأ يجتـاح عينيها فيكسـر نظراتها، همست:

- قرَّب..

وعندما زحزح كرسيه مقتربًا منها، مدَّت يدها، وقبضت على معصمه، وجذبته إليها:

- أنا عايزاك هنا.

جعلته يركع على ركبتيه، بحذاء صدرها، قبل أن تخرج ثديها الأيمن وتئن بشبق.

أحاط ثديها بكفِّه، والتقم حلمته، وأخذ يمص مثل طفل جائع، وضمَّت رأسه إلى صدرها بذراعيها ضمَّة أم حنون.

- ما انساش أوِّل مرَّة عملت فيها كِدا بمزاجي.. يومها سِبت "الحسين" وقعدت اتمشَّى لغاية "العتبه".. كنت حاسَّه بشوق للحاجه اللي كانت بتحصل لجسمي لمَّا كان "أشرف" الله يرحمه بينام معايا.. الحاجه دي مُش نوِّمتني الضُّهريه.. ومأثَّره كِدا على مزاجي ومخلِّياه طينه خالص.. ومش عارفه أعمل إيه.. شِويَّه لقيت نفسي مشيت شارع "كلوت" بيه كلُّه...

ميدان "رمسيس"، والصَّنم الشَّاهق يتوسط الوسع الكبير، تتدفَّق مياه الحياة من أسفل قدميه، والسيَّارات البرَّاقة تزحف حوله، ومبنى محطَّة السِّكة الحديد في النَّاحية الأخرى من الميدان، واهتز قلب "سوسن"، هذا المشهد لا يمكن أن تنساه، رغم أنَّها رأته منذ سنين

طويلة، عندما نزلت من القطار بصحبة والديها، وانبثقت من داخلها نبرات صوت مداعب، صوت أجش ملآن أبوة:

- آدي عمِّك "رمسيس" يا ستِّي.. واقف بيحرس محطة "مصر".

اخترقت المحطَّة، المسافرون عيونهم مرتبكة، عبرت الأنفاق التي تتجاوز باطن الأرض باتِّجاه الأرصفة، آخر رصيف، بوابات أخرى كبيرة، دلفت منها إلى النَّاحية الأخرى، فرأت العالم الآخر.

موقف "أحمد حلمي"، مُنطَلق سَفري ضخم، مئات من عربات "الميكروباص"، مئات أخرى من عربات "البيچو"، صفوف أوتوبيسات، وبشر لا يُحصى ولا يُعد، ونداءات محمومة عن وجهات السَّفر.

- كنت تعبت بأه مِ المشوار.. وجُعت أوي.. لطشت باكوين بسكوت من كشك.. وخدتلي جنب وقعدت آكلهم.. التَّعب والجُّوع نشُّوني اللي كنت خارجه عشانه.. لكن عينيَّا وقعت فِ عينين شاب واقف مسنود على كبُّوت عربيه وبيكلِّم حد مِ السَّواقين.. شِويَّه والسَّواق مِشي.. ولقيت الواد دا بيغمزلي.. والنَّار بأه قادت فِ جسمي تاني.. ولمَّا كسرت عيني بدلع فِهم انِّي عايزاه برضه..

قطعت كلامها، وضغطت على رأس "المِجَري" برفق، وهمست:

- أوي.

أشـار الشَّـاب برأسـه كي تتبعه، ومضى باتِّجـاه الكوبري، حيث توجد منطقة معزولة، نوعًا، في خلفيَّة الموقف.

ثمَّة "ميكروباص" قديم مغطًّى بالمشـَّمع، رفع طرفًا منه ودخل، فدخلت خلفه.

وعندما سـحب المشـمع ليغطي الباب ساد السَّواد الغطيس، مع أن نور المغارب لم يزل بخيره، والسُّكون فرض نفسه على كل هذه الضَّوضاء التي ترتع في "أحمد حلمي"، واستلقت "سوسـن" على إحـدى الأرائك، تاركة جسـدها يتلظَّـى بحممه، يُلهبها جسـد آخر علَّهـا تفـور وتعلو إلـى حافَّة الفوَّهـة، حيث تفيض، وتنسـكب إلى الخارج، فترتاح.

رفع فمه عن حلمة ثديها الأيسر، وسألها بالشَّبق:

- إنتي اسمك إيه؟

بالكاد خرج صوتها واهنًا من بين احتدامات الشَّهوة:

- "زينب".

- بلاش "زينب".. ما توسَّخيش اسم السِّت الطَّاهره دي.

أنَّ من فرط اللذة، وتكلَّم بصوت مشوي:

- خلِّيه "سوسن" أحسن.

كانت تُبرز ثديها الأيسر، بينما تُحدِّق في شريط العتمة الذي تبرق فيه أضواء مرتعشة، ونسيم العبير فيَّاض بجمال ليالي الونس الصَّيفيَّة، قالت:

- دي كانت المرَّه اللي غيَّرت اسمي فيها.. وكمان كانت المرَّه اللي عرفت فيها انِّي باعمل حاجه وسخه.

وضغطت رأس "المِجَري" إلى صدرها بقوَّة، الذي شعر بنقطة ماء ساخنة تسقط على جبينه، وسمعها تهمس من بين النَّشيج:

- كل ما ابكي افتكر الوليَّه اللي شِحتت بيَّا زمان.. نفسي أعرف هيَّا كانت كل فجر بتبكي ليه بدل الدموع دم؟

59

شرط من أهم أشراط الحصول على جريمة قتل متكاملة: الكتمان.

"تغانة"، أم "خميس"، لم تكن شرِّيرة على الإطلاق، وليس لأنَّها تدفع ابنها دفعًا نحو التَّخلص من زوجته الفاجرة أن يعني هذا وجود شيطان يتلبَّس روحها.

أبدًا. هي فقط متَّسقة مع بيئتها التي اتَّفقت على أن المرأة العاشقة ليس من حقِّها الحياة، ليس لأنَّها عشقت، وإنَّما لأنَّها خانت رجلًا أصبحت مسؤولة عن شرفه منذ أن قبلت الزَّواج به، ولأنَّها خانت عائلة تربِّيها تحت وطأة هذا العُرف.

وكانت قد قضت الليالي الطَّويلة، والنَّهارات المديدة، تحاول أن تُثني "خميس" عن الزَّواج من هذه البنت التي أخضعت رؤوس رجال عائلتها، فسمحوا لها بالسَّفر بعيدًا، نحو بلاد ربِّنا المجهولة، فقط كي تتعلَّم.

فَهِمَت من هذا أن "نوال" رأسها حجر، ولن تكون طيِّعة لزوجها، ولا لها، وبيوت القرى طوبها طين أخضر، لا تتَّفق مع الصَّخر، وإن اتَّفقت صارت مشوَّهة.

كما فَهِمَت ما هو أخطر بكثير، أن البنت "الرَّيَّادة" عاشقة في أصلها، وإن لم يظهر عليها هذا المرض قريبًا، فسيظهر آجلًا.

وقلب الأم نبَّاء، يطَّلع على الآتي بعين عمياء، لكنَّها حسَّاسة وترى، ولقد أفزع "تغانة" أن "خميس" يريد "نوال"، فالرَّايد عاشق، والعاشق لا يُقيم بيوتًا، آخره يمسك ربابة ويغنِّي، والمعشوق يركب الأكتاف ويُدلِّي رجليه، ستتدفَّأ "نوال" بقلب ابنها، بينما الجدران ستبرد حولها هي، حتَّى يصل الصَّقيع إلى لب عظامها، وينخرها.

المصير له دخل، إذن، في هذه القسوة التي تُبديها "تغانة"، وليس الشَّيطان أبدًا.

ما توقَّعته كله جرى، مع فارق واحد، لم تعرف إن كان يستحق أن تَسعد به أم تحزن منه، "نوال" جاءت البيت حزينة، لا ينضح جبينها بأي دليل من دلائل العشق لزوجها، وإنَّما قرفانة، لا تطلع من غرفتها، وإن طلعت تكون زهقانة، لم تحاربها في ابنها، لم تهتم بأن يكون بين أحضانها، وإنَّما تركته لغرفة أمِّه طويلًا، كي تتفرَّج على حزنه، وتتدفَّأ بنار تعاسته.

- بِت الكلب كاسره نفسي من كل ناحيه.

لم يشـارك "خميس" أمَّه أي لفظ يحط مـن قَدر "نوال" في قلبه، كان هذا يغيظها فتقول له:

- قلبك خِرِع.

وكان ما يجري كله، رغم قسـوته، في حدود ما يمكن أن تتحمَّله "تغانة"، فقلبُ "خِرِع" أخف وطأة على نفسها من ابن "خِرِع".

لكـن أن تخونه، وتقلب حـال كرامته، وبدلًا مـن أن يقتلها يفك قيدهـا، ويطبِّب جروحها، ثـم يحن عليهـا بالشَّـراب والطعام! بل ويسـمح لها بمقابلة الأضياف، وأن تشتري من الباعة المتجوِّلين ما تطلـب وتحـب، أن تعود إلى حياتها الطبيعيَّة وكأنَّها لم تمرِّغ شـرفه فـي الطِّين، فهذا ما أوغر قلب "تغانة"، ليدب فيه المرض، وصارت تكلِّم نفسها في خلوتها كالمجانين:

- الخرع بيحن عليها أكتر مِ الأول!

ورغـم أنَّه كان يـرى ذبول أمِّـه، إلا أنَّه أصرَّ علـى أن تنتهي حياة "نوال" مجَّانًا، لذلك كان لا بد من أن تكون عمليَّته نظيفة، لا خطأ فيها، ولا يحقق هذا غير الكتمان، ولو كانت أمُّه مَن سيدفع الثَّمن.

60

ربمـا كان الوقـت يقتـرب مـن منتصـف الليـل عندمـا نـزل من "البيـچو" أمام بوَّابة الفرقة، على طريق "القاهرة – السويس"، قادمًا من "الإسماعيلية".

القمر سـاطع، والصَّحراء مترامية، وريـح خفيفة رطبة تدعو إلى النَّشـاط، ما زال بينه وبين مكان الفرقة بضعة كيلو مترات سيمشـيها على قدميه.

عمومًـا، أخطر يوم في حياتـه انقضى على غير ما ظن، وهو الآن سعيد للغاية، ومستعد لمشي مائة كيلو متر كاملة.

يعلـم أنَّه سيمشـي في مكان قـال الجنود عنـه إنَّه ملـيء بأرواح العسـاكر الذيـن قضـوا أثنـاء تصفية ثغـرة "الدِّيفرسـوار" في حرب "أكتوبـر"، قُتلـوا نتيجة الأخطـاء الفادحة التي ارتكبهـا بعض قادة ألوية الجيش أثناء مواجهة خُبث العدو، ولأنَّهم قُتلوا بالأخطاء فهم يخرجون ليلًا ليعبِّروا عن غضبهم لدمهم الذي أُهدر، يَسـيحون في الصَّحـراء فرادى وجماعات، يتعمَّدون قطـع الطَّريق على العائدين

ليلًا إلى وحداتهم المنثورة في هذه المنطقة، ويعوون مثل الذِّئاب، لقد وُجد أحد الجنود، من رفقائه، ميتًا في منتصف المسافة ما بين البوَّابة والفرقة، وأكَّد موته صحَّة الكلام.

لم يكن "ياسر" يخاف من العفاريت، وحتَّى إن داهمته رعشة خوف، فليس أسلم من ادِّعاء عدم الخوف كي يتَّقي ظهورها، لقد شرب ما قالته النَّاس في نجع "الطُّوال".

"اللي يخاف مِ العفريت يطلع له".

مخلَّفات المعسكرات، من براميل مغروسة في الرِّمال، وعروق خشبيَّة، وقطع ضخمة من مواتير مدرَّعات ومجنزرات، وأكوام من لفائف البطاطين المتهرِّئة، كل هذا يبدو في الليل، للقلب الخائف، مرعبًا للغاية، تبدو فعلا كجنود يجلسون في مجموعات صامتة، أشباح لا تتكلَّم، ثم يظهر فجأة ما هو متحرِّك، كتل سوداء تنطلق كسهام نحو الماشي، قبل أن يسمع عواءها الغاضب، المسعور، إنَّها كلاب الجبل الجائعة، وصاحب القلب المرعوب، إن لم يمت فسيصاب بالخرس لمدَّة أسبوع على الأقل، كما حدث لجندي آخر.

لم يكن هذا اليوم هو الأخطر في حياة "ياسر المبروك"، فالمحاكمة العسكريَّة، في النِّهاية، مجرَّد محاكمة، ستحكم عليه

بالسِّجن أشهر، أو سنين، سيتألَّم من الحبس، لكنَّه سيحترم نفسه، وسيحترمه الآخرون؛ لأنَّه يدفع، بشرف، ثمنًا مقابل كرامته.

كان هناك اليوم الأخطر، واللحظات الأخطر.

انتزعه السَّرحان من صحراء الخوف إلى هذه الحالة المرعبة التي عاشها منذ أسابيع قليلة، عندما اتَّفق مع "نوال" على زيارتها، ولم يلحق بها في "القاهرة"، وكانت قلَّة المكالمات، ومُدَدها الخاطفة، بسبب وجودها في "الصَّعيد"، قد أشعلت نار الحب درجة تفجير السَّعير، وشَطَح اللهب ليلسع عقليهما فيوقف عملهما تمامًا، ليقرِّرا المقامرة بلقاء عاطفي في قلب هذه البيئة الصَّخر، إمَّا أن يكسِبا اللحظة الحُلم بالنِّسبة لأي عاشقين، لحظة اللقاء وتبريد القلب، رَشْف الأنس بالحبيب، وإحياء الرُّوح المحترقة برضاب الغرام، أو يخسرا الحياة كلها.

المكاسب تستحق المغامرة، والخسارة تستحق الخوف، لكن جنون الهوى إذا عصف لا توقفه الجبال الشُّم.

المقامرة خطر منذ أوَّل دقيقة، وابتداءً من الخطوة الأولى، فلقد خرج متسللًا من الفرقة، فجرًا، بدون أيَّة تصاريح من شؤون أفراد الفرقة، لا تصريح بإجازة، أو حتَّى مأمورية ما، فهو في انتظار محاكمة عسكريَّة، والمفروض أن تمامه السِّجن، والمساجين لا يُصرح لهم بأيَّة إجازات من أي نوع، إلَّا لظروف استثنائيَّة ليس من بينها مقابلة

الحبيب، ورغم ذلك سيخرج من فرقته، التي في أقصى شمال شرق "مصر"، إلى وسط الجنوب، سيسافر سبعمائة كيلو متر، مسافة طويلة جدًّا، تسمح بالوقوع في يد الشُّرطة العسكريَّة، المنتشرة في طول البلاد وعرضها، ولو حصل وضبطته، فسيكون وقتها هاربًا من تحت التَّحفظ، وهي جريمة مرعبة، ستودي به، وبالمقدِّم "عمرو"، وببعض المجنَّدين من حراسة سجن الفرقة، إلى هاوية ليس لها قعر.

تتحرَّك قدما "ياسر" على المدق، الذي صنعته أقدام الجنود في ذهابها وإيابها من وإلى وحداتهم العسكريَّة، لم يعد مباليًا بما حوله من أشباح المخلَّفات الرَّابضة على مدى الشَّوف، فقط كان قلبه يدق بقوَّة في هذه اللحظة، إن فكره يجرُّه إلى تفاصيل الحدث المريع.

لقد غيَّر ثيابه العسكريَّة في البيت، وارتدى جلبابًا عاديًّا، الليل مدلهم، يمشي على حدود الحقول غير المطروقة، البيت المنعزل يقترب الهوينى، والخوف يقترب من قلبه بسرعة بُراق، لكنَّه ظلَّ يتقدَّم إلى الأمام، الحب أقوى.

وَمَضَ الخاطر، في ذهنه، وميض نجمة تسقط من السَّماء.

"على فكرة.. اللي بتسَوِّيه دا ما يسوِّيهوش واحد عنده كرامة".

لـم يُلقِ بـالًا لهذا الخاطـر، ظل يتقـدَّم، خطواته لـم تتأثَّر حتَّى، العاشق مُنقاد بالحب كدابَّة بلجام، والمنقاد لا يملك من أمر كرامته شيئًا، الحب غشيم.

اخترق صفَّ الأشـجار خلـف البيت، ورأى النَّافـذة المفتوحة، يهتـز داخـل إطارها تكويـنٌ أنثوي، كان يعـرف ما الـذي عليه فعله الآن، كل شـيء خُطِّـط له في الهاتف، سيتسـلَّق جذع هذه الشَّـجرة حتَّى النَّافذة المفتوحة، وحمد الله أن النَّافذة ليست مرتفعة، وعندما صار بمحاذاتها، وبينما يدخل بجسده عَبْرها، لمح شبحًا يتحرَّك في زاوية البيت البعيدة من الخارج، شـبحًا هزيـلًا، كأنَّه لامرأة عجوز، لم يعرف إن كانت رأته أم لا، ولم يدقِّق في الأمر؛ لأن اللحظة كانت جارفة، إنَّه أخيرًا يقف أمام حبيبته، بعد أن قطع مسـافات طويلة من عذابات الشَّوق، والخطر.

كانـت لمبـة نمـرة عشـرة تضـيء الغرفـة بنـور هادئ، سـبحت فيـه "نـوال" الواقفـة أمامـه بملابس نوم خفيفة، سـبحت مثـل جنِّية مسـحورة، فمهمـا شـط خيال "ياسـر" لم يكـن يتصـوَّر أن الحقيقة أروع، وأنَّهـا سـتفقده القدرة على التَّصرف في هـذا الموقف، الذي لم يصادفه في حياته من قبل، ولا ظن أنَّه سيصادفه.

كان قد أعدَّ ترتيبًا لهذه اللحظة، مبنيًّا على مشاهد من أفلام رآها في تلفزيون "ميز" عساكر الفرقة.

سيأخذها في حضنه فور رؤيتها، سيعصرها بين ذراعيه، سينكب عليها بتقبيل شفتيها، سيأكلهما، ثم يُلقي بها على السَّرير.

ما حدث كان مُختلفًا تمامًا.

هي مَن اقترب، هي مَن أراحت على وجهه كفَّين باردتين مثل ماء العطشان، هي مَن أخذت تنظر في عينيه طويلًا، قبل أن تحوط خصره بذراعيها، تضمُّه إليها وقد أراحت صدغها الأيسر على ضلوع قلبه، على الشِّق الموجوع من صدره، وهو لم يفعل غير أنَّه رفع ذراعين، شعر بهما وكأنَّهما ليسا له، وأحاط بهما أعلى ظهرها.

وهي تنفك منه برفق همست:

- ما لك؟!

لم تنتظر إجابات، وإنَّما اتَّجهت إلى اللمبة، سحبتها من على الجدار المُعلَّقة به، نفخت في أعلاها فأطفأتها، أعادتها إلى مكانها مرَّة أخرى، وعادت إلى حيث يقف هو كتمثال من شمع، سحبته من يده إلى السَّرير، اضطجعت فيه، ثم جذبته إليها ليسقط في حضنها.

هي النَّار اللظى، وهو البرد المتجمِّد، تركت جسدها للرَّكض في فلوات الشَّهوة، بينما جسده ارتبط بعقله، وبينما أنفاسها تُلهب رقبته، كان هو يفكِّر في سبب بروده.

هل هو الخوف؟

"لو الخوف ما كُنْتِش وَصَلت لحد سَريرها".

الكرامة؟!

الكرامة تستلزم، في هذه اللحظة المفصولة عن الزَّمن، مع حبيب فائر، أن يخترق من غير هوادة، والنُّكوص عن إطفاء حريق يأكل كل خلية من خلايا الحبيب هو الغدر، والغدر لا يليق بالكرامة.

ربما هي طزاجة اللحظة، مفاجأتها، بكوريتها.

لا حل غير أن يفتح باب القفص للحيوان الذي بداخله، وأن يغلق باب العقل في وجه التَّفكير. وإلا خسر ما قطع المسافات من أجله.

بدأ يشم أنفاسها، إنَّها برائحة الهوس، وطعم النَّار، فأدخل ذراعه تحت رقبتها، وضم رأسها إلى رأسه، سحب شهيقًا طويلًا من هذا الهوس، قبل أن ينطلق مارده انطلاقة غير متوقعة، حتَّى إنَّه فوجئ.

فردت عليهما ملاءة خفيفة، صنعت حيِّزًا مخصوصًا لهما، حيِّزًا بدا ضيِّقًا للغاية، لكنَّه في الأصل، عند العشَّاق، من أوسع الأكوان، وأخذا يركضان بالصَّهيل، وأحيانا يُحلِّقان.

وفي تحليقة علت إلى ذُرا الشَّبق ، وبينما يضرب بجناحيه عفيًّا، سمع شيئًا لا يعرف له وصفًا، هل هو انفجار قنبلة؟! هل هو تشقُّق السماء؟! هل هو زلزال طيَّره من فوق السرير؟!

في كل الأحوال، تصرَّف الآخر الذي في داخله، وألقى به إلى النَّافذة. ثم منها إلى الخارج.

61

هل البرد هو الذي ينخر عظامه، أم إنَّه الخوف؟

بينما هو راكع يرتجف، رأى الصَّليب أمامه يرتجف مثله، يكاد يلفظ هذا المُعلَّق عليه، الذي صمت في غيبوبة آلامه، وهذا الشَّيطان، ذو العمامة الخضراء، ينصب صليبًا آخر، لا شك سيشبحه عليه، كما شبح هذا الرَّفيق الصَّالح.

في مثل هذه الأوقات الفارقة، المحمَّلة بالعذاب والموت، تتَّضح هشاشة الإيمان عند الإنسان، إذ إنَّه، وهو مُقدم على الموت المقدَّس، الموت بالتَّضحية، لا يكون باش الوجه أبدًا، لا يثبت قلبه أبدًا، وهو الذي لا يكف عن الصُّراخ، في كل ساحات العبادة، بأن لقاء الله هو الأروع على الإطلاق، وأن ما أُعدَّ للصَّالحين، بعد الموت، لا سمعت أذنٌ بفخامته، ولا رأت عينٌ مثيل جماله، ولا قلبٌ تخيَّل أحوال السَّعادة فيه.

لماذا لا نبتسم إذًا في لحظاتنا الأخيرة، تلك الفاصلة بيننا وبين روعة الملكوت؟!

لماذا نستقبل هذه اللحظات حزانى؟ ولماذا يُشيِّعنا الأهل إلى القبور بالدُّموع؟ وكأنَّنا مسافرون إلى الفقد، أو إلى العدم، إلى حقيقة ليست هي ما ظلوا يؤمنون بها، حقيقة يكشفها موت الأحبَّة، حقيقة مفجعة.

كان الشَّيطان، ذو العمامة الخضراء، يردم الحفرة، التي ركز فيها أصل الصَّليب، بمسحاة قديمة، ليُثبِّته جيِّدًا، عندما قال:

- لماذا تخاف الموت أيها القس؟

ما أبسط إجابة هذا السُّؤال وهو يُلقي موعظته في الكنيسة:

- لا يخاف الموت إلا أصحاب الآثام والخطايا، هؤلاء الذين سيدينهم "المسيح"، ويلقي بهم حيث الدُّموع والنَّدم، الصَّالحون يفرحون بأنَّهم بعد الموت يكونون في الملكوت، حيث لذَّة النَّظر إلى وجه الله.

"أنا خايف من الموت عشان كلِّي خطايا وذنوب".

انتهت الرُّوح الشِّريرة من نصب الصَّليب، وها هي تتقدَّم باتِّجاهه، متلبِّسة جسد إنسان مجنون، يُحطِّم عظام الصَّالحين من غير أن تهتز له شعرة، ولقد اقترب منه حتَّى رآه جليًّا، واستغرب أن شيطانًا يمكن أن تكون ملامح وجهه جميلة إلى هذه الدَّرجة، كرَّر سؤاله:

- لماذا تخاف الموت أيُّها القس؟

التجم لسان القسِّيس؛ لأنَّه كان، بالحقيقة، يفكِّر في أنَّه ليست الآثام، ولا الخطايا، بالقوَّة التي يمكنها أن تُعطِّل محبَّة الرَّب ورحمته، ما إن نقف بين يديه حتَّى يتجاوز عنَّا، نحن صنائع يده، وهو أرحم بنا من أمَّهاتنا الرَّءومات.

بذل مجهودًا كبيرًا ليستخرج الكلمة من حلقه الجاف، قال:

- ما اعرفش.

- لأن الموت فناء أيُّها القس.

- الموت مش فناء.. الموت بوَّابة الخلود.

- فلتقسم على أن ما تقوله حقيقة لا تشك أنت فيها.

صمت القسِّيس، بينما صرخت الحيرة في عينيه.

استدرك الرَّجل الدُّخاني:

- هل يقبل عقلك أن تكون بوَّابة الخلود ليست سوى قبر؟! وأن البقاء الأبدي يبدأ بتحلُّل مهين؟

لم تكن مثل هذه الأسئلة قد جالت في خاطر القسِّيس من قبل، فالحقائق الكبرى مُسلَّمات لا تطرح أسئلة، على أن الحياة كلها تدور أمام عينيه على دواليب الموت، فما المانع إذن من أن يكون

القبر بداية الخلود؟ أو التحلُّل مطلع التَّكوين؟ والعفونة بشارة الأريج الخالد؟

انسل صوت المُعذَّب فوق الصَّليب، واهنًا، لكنَّه يحمل عزم المناظرة:

- كما كانت النُّطفة المذرة بوَّابة وجودك أيُّها الشَّيطان.

رفع صاحب العمامة الخضراء مطرقته، وهوي بها على السَّاق الأخرى فدمَّرها، قال:

- وجود ينتهي بموت وجود غير مكتمل.. وستمضي البشريَّة إلى خلود الفناء طالما جماجم القدِّيسين مَحافِظ العقول الغبيَّة..

طقطقة تهشُّم العظام، والشَّهقة المريعة للمُعذَّب، انتزعتا خلايا جلد القسِّيس، كأن ملقاطًا من نار نهشه مرَّة واحدة، وتأرجح الصَّليب الخالي أمام عينيه، فتمنَّى لو أنَّه يستطيع الخروج من هذه الكنيسة، ليترك هذه الصَّحراء الملعونة كلها، ويعود من حيث أتى.

وعندما رأى هذا الضَّوء الأحمر، الذي ينبعث من عيني الشَّيطان، قد انغرس في عينيه، علم أنَّه لو لم يقل شيئًا فسيُشبح.

همس بصوت ذليل:

- طيِّب انت عاوز تقول إيه؟

- "أنا هو القيامة والحياة.. مَن آمن بي ولو مات فسيحيا.. ومَن كان حيًّا وآمن بي فلن يموت".. أتؤمن بهذا؟

قال:

- أؤمن.

ثم شقَّت صدر القسِّيس آهة عصفت بحنجرته، وانطلقت في وسع الصَّحراء ترج سكونها، بينما صوت هذا الشَّيطان يتقوَّى بكلمات "المسيح" الحَي، ولسانه يعزف بالإيمان.

- "أنا هو الطَّريق.. والحق.. والحياة".. أتؤمن بهذا؟

قال:

- أؤمن.

ثم فلقت قلبه آهة أخرى، فقلبت رمل الفلاة، وتفجَّرت دموع في عينيه، إنَّه يرى الآن معجزة، ولا بد له من أن يترك الصَّحراء، ويعود لشعب "المسيح" كي يكرِّز بينهم بأنَّه قد رأى الشَّيطان نفسه، وأنَّه آمن أخيرًا بـ"المسيح"، وردَّد كلمات آياته.

- "أنا هو خبز الحياة".. أتؤمن بهذا؟

قال:

- أؤمن.

وسبل عينيه، وانتفضت شفتاه بتراتيل هامسة، بينما تقافزت أنامله على جانبي صدره، وجبهته، ترسم مثلَّث الصَّليب.

لقد رسم هذا المثلَّث مرَّة واحدة مكتملة، وفي المرَّة الثَّانية لم يكتمل رسمه، إذ إن صفعة مدوية رنَّت في أذنيه مثل طلقة رصاص صُوِّبت نحو جرس نحاسي، قبل أن يشعر بلسعها الكاوي على صدغه الأيسر، ودارت الصَّحراء، للحظة، قبل أن تعود إلى ثبات مفاجئ أفقده توازنه، فهوي على جنبه.

وجلجل صوت الشَّبح الدُّخاني:

- يُكلِّمك "المسيح" عن الحياة فتشير أنت بعلامة الموت! يُكلِّمك "المسيح" عن بركة الخبز فَتُشرع في وجهه صليب اللعنة؟!

ما يحدث له بشع، لقد دُقَّ المُعلَّق على الصَّليب بالمسامير، وهُشِّمت عظامه بالمطرقة، لكنَّه لم يتعرَّض لمهانة الصَّفع على الوجه مثله.

لكن ما تعرَّض له من ارتباك فكري كان أشد بشاعة، فهذا الشيطان لا يمكن أن يكون مهتديًا، لو أنَّه اهتدى لما مارس كل هذه القسوة ضد رعاة شعب "المسيح"، كما أنَّه لا يمكن أن يكون شيطانًا!

"الشَّياطين ما بتحبِّش ربِّنا.. ولا بتحب تسمع كلامه اللي بيحرقهم.. مستحيل شِيطان يِجري على لسانه كلام ربِّنا".

لـم يحـاول الاعتدال من سـقطته، كأنَّه ارتاح للرُّقـاد في ظل كل هـذا الرُّعب، وعندما نظر إلى الشَّـخص الغريب بدا رأسـه، بعمامته القاتمـة، مُطـاولًا فـي العلـو برجـي الكنيسـة، بـل ويُزاحـم نجـوم السَّماء.

"الكائن دا مؤمن بالمسيح.. بس بطريقه أنا مش فاهمها".

- إنت مين بالظبط؟!

تحـرَّك الرَّجـل الدُّخانـي ناحيـة الحربـة المرتكـزة فـي الرِّمال، انتزعها، قبل أن يقول:

- أنـا "صنـع الله".. المتنبِّـئ من قَبْل إخوتي "نـوح" و"إبراهيم" و"عيسـى" و"محمَّـد".. قَبـل كل مَـن ذُكـر.. ومَـن لم يُذكـر.. في الكتب المقدَّسة.. أنا مُعلِّم أخي "موسى".

ثم هزَّ حربته، واتَّجه بصدره ناحية المشـبوح على الصَّليب، رفع ذراعه وصوَّبها نحو الصَّدر الغارق في مياه العرق.

قال:

- أنـا مُعظِّـم اللـه الـذي منحنـا الحيـاة.. ومُـذل الدَّاعيـن إلـى اسـتعذاب المـوت.. منحني اللـه نبع الخلـود.. وأذن لي في سُـقيا المتنوِّرين بالعقـل.. ووهبني قلبًا من حديد.. أقسـو به على كل مَن لا يؤمن بقدرته على الخلود.

وبينما يفتح القسّيس فهمه اندهاشًا ممَّا يسمع، كان ذراع الشَّبح الدُّخاني قد ضرب الهواء مثل خطفة جناح خفَّاش، فانطلق الرُّمح يلتمع بضوء القمر، في سرعة شعاع شمس، ليخترق قلبًا مرتعدًا، نافذًا منه، فيهتِّك مسام خشبة العذاب، فتقفز من فم المُعلَّق شهقة ميِّتة، أخيرة.

ثمَّ سمع صرخة الدُّخاني مجلجلة، حادَّة كصيحة فيل غاضب، شقَّت أذنيه قبل أن تخترق صدره، لقد هزَّت القمر، وتخبَّطت النُّجوم من عنفوان صيحتها، حتَّى إنَّه رأى نجمة تسقط، ورأى عيني هذا الكائن بئرين من ظلام، لقد صرخ قائلًا:

- أتؤمن بي؟

هز رأسه لفوق وتحت بسرعة جناح عصفور، وبلع ريقًا يابسًا جرح بلعومه، وهمس بصوت لم يسمعه هو نفسه:

- أؤمن.

قالها وسقط مغشيًّا عليه.

62

نطق "زياد" بصوت أحس به غريبًا عنه:

- أنـا عـارف ان ربِّنا نفسـه مش سـبب المشـاكل.. سـببها اللي بيتكلِّموا نيابة عنه.. من أول الأنبيا ولحد كل متشدِّد.

انهمـك الرجل العاري في الكتابة، ثم رفـع وجهه، وطيَّر الورقة باتِّجاه "زياد".

"الأنبياء ليسـوا سبب المشاكل.. الأنبياء عُظماء نسَّقوا الحديقة كي تُزرع فيها ملكة الورود".

بُهت "زياد"، الرَّجل يكتب بروح شـاعر، ثم، لأوَّل مرَّة، يلاحظ أن اللغة سـليمة تمامًـا، ولا حتَّى خطأ إملائي واحـد، فأيقن أن هذا الرَّجل محل سـر من أعظم الأسـرار، فانتوى الفهـم إلى آخر مدى، وأن يتعلَّم من هذا السيِّد المتَّسخ.

- إزَّاي الأنبيا مش سبب المشاكل؟! إذا كان كل واحد فيهم جِه عشـان يدعو لنفسـه.. ويعمل أمَّه تتعصَّب له.. تِعـادي اللي قبلها.. واللي ممكن تيجي بعدها..

"زياد" يتكلَّم، وهذا الرَّجل ينظر في عينيه باهتمام شـديد، كأنَّه ينتظر ملاحظاته كي يجيب عنها بمنتهى السُّرعة، وفور أن انتهى من كلامـه، انكب يكتب، و"زياد" أدهشـته هذه السَّـكينة التي طلَّت من عيني هذا الرَّجل، ودار برأسـه ناحية نباح متشاكس، كانت مجموعة الكلاب قد أخذت طريق العودة، ولكنَّها لم تكن في حدود العشـرة هذه المرَّة، لقد تضاعف عددها.

طارت الورقة باتِّجاهه:

"إذا أردت الحقَّ حقًّا حرِّر عقلك من الفكرة المُحتلَّة.. ثم اقرأ بـرأس حُر.. الأنبياء لم يدعوا لأنفسـهم.. ولقـد آمن كل منهم بفكر السَّـابق.. وبشَّر باللاحق.. وكلُّهم دعا إلى الحقِّ والخير والجمال.. وحَّـدوا الجماعـات الضَّالـة.. وكلٌّ منهم رَقي بالبشـريَّة درجة نحو خلودها".

– كل نبي اتَّهم اللي قبله بإن دينه ناقص.. وان الكمال فِ الدِّين اللي هُوَّ جاي بيه وبس.

كم هي عجيبة هذه اللوحة العجيبة المفرودة أمامه، عارٍ متَّسـخ، منسـدح علـى الأرض، في عتمـة ممر بنايـة قاهريَّة شـاهقة، يكتب بانهماك. وعندما تأمَّل فحواها، وهذا المجنون الذي يناقش بالعقل، قرَّر "زياد" أن ينسـى قصَّته عن الشَّمعة التي في أعماق إنسان بائس،

ويكتب رواية عن هذا السَّيد الذي لم ينتبه لعريه من فرط ما اهتم بالحكمة.

تلقَّف الورقة:

"لو أنَّهم كانوا كاذبين ما اجتمعت الأمم تحت ألويتهم.. لا تجتمع الأمم حول كَذَبة.. ولو اجتمعت حولهم لما نهضت لتشييد الحضارات.. حتَّى انظر.. لقد انهار نقاء فكرهم عندما تولَّى الكلام عنهم أحبارُهم وكهنتُهم وأئمَّتُهم".

صرخة قِط مفاجئة دوَّت في الممر، ارتفعت على إثرها صرخة طفل، صرخة حادَّة كأن أحدهم التهم ذراعه، ققفز شعر "زياد" مثل الحراب، ونفر جلده كأنَّه يُقلى في زيت مغلي، وللحظة برق في ذهنه كلام "زهر المستكي" عن المرأة، وأنَّها مخاوية، فرفع بصره عن الورقه ووضعه في وجه هذا الرَّجل الغريب.

بدا له أن الرَّجل قد ابتسم ابتسامة مخطوفة، ثم عاد إلى جمود وجه "مانيكان"، المانيكانات مُرعبة في مثل هذا المكان، وفي هذا التَّوقيت.

"يخرب بيت أمِّك يا مستكي.. ما قولنا مافيش عفاريت".

ارتعد، كأن ثعبانًا غرس نابيه في سمَّانة ساقه، عندما سمع صوت هذا الرَّجل:

- أنا رجل لا أموت.. والحَي يعاني بين الأموات.. لا يصلح له السَّكن بالسَّكن في السَّكن.. فينتقي من البرية المرأة الرَّحالة.. المخلصة لفرجه.. مُطعِمة فمه.. هذه المرأة تُطعِم فمي.. وأسدُّ فرجها.

"دا بيتكلم! وصوته رهيب كمان.. فيه شمخه كدا مش عاديَّه.. سحر البيان الفصيح".

- إيه السَّكن والسَّكن والسَّكن.. وكِدا يعني؟!

- الاطمئنان بامرأة في بيت.

استدرك الرَّجل:

- أدعوك للخلود.

- الخلود بتاع ربنا؟

- لا يحلم الإنسان بشيء إلا وحقَّقه.. ولقد حلم بالخلود في قصصه.. وتكلَّم عن عين الحياة.. وسيحقِّق أبناء "آدم" هذا الحلم، إنَّهم يقفون الآن على بوَّابته.. فتعالَ نهيِّئ الشَّعب.. النَّقلة واسعة للغاية.. وأثناء هذه الأوقات التي تجري فيها التحوُّلات المصيريَّة الفارقة يحتاج العلماء إلى تهيئة الشَّعب.. كي يواصلوا عملهم بثقة وبسرعة.

- أنا لاسع حقيقي.. ومتغاظ من ربِّنا أوي.. بس مش لدرجة

اصدَّق إن البني آدم المعفِّن دا يقدر يخلِّد نفسه.

رأى "زياد" احمرارًا في عيني هذا المتَّسخ، وسمع صوته العربي الفصيح:

- الاستنساخ بوَّابة الخلود.. ومفتاح الصُّندوق الذي فيه سر الأسرار.. لقد فُتح المستغلق.

"الرَّاجل دا مين؟!".

- أنا مُعظِّم الله الذي منحنا الحياة.. ومُذل الدَّاعين إلى استعذاب الموت.. منحني الله نبع الخلود.. وأذن لي في سُقيا المتنوِّرين بالعقل.. ووهبني قلبًا من حديد.. أقسو به على كل مَن لا يؤمن بقدرته على الخلود.

وقف "زياد"، وتحرَّك ناحية الشَّارع، مفزوعًا من روعة الكلام، ومن غرابة هذا الرَّجل الذي يتكلَّم وكأنَّه نبي، بينما هو عارٍ ومتِّسخ، مزيج غير واقعي بالمرَّة، وغير الواقعي مخيف، وربما كل ما يراه ليس أكثر من وهم في منام.

كان الرَّجل قد عاد لانكفائه على الأوراق، لكنَّه رفع صوته ليسمعه "زياد" الهارب:

- اكتب قصَّة الشَّمعة التي في أعماق الرَّجل البائس.. وآمن بها.

63

كانت كل تصرُّفاته تثير اشمئزازها.

فما أبشع الرَّجل إذا حرص على مظهره، وزوَّق رونقه، بينما داخله يتسيَّد القبح.

لقد وَجَّهت له طعنة نجلاء، تُردي صاحب النَّخوة قتيلًا، أو سجينًا، بينما هو يُطعمها ويسقيها، يتودَّد لها أمام النَّاس، لا لشيء سوى عدم إثارة البلبلة حوله لحين تطليقها، يُريد أن يبدو رجلًا حقيقيًّا، في حين يعرف أنَّه رجل قد أُهين فراشه، واتَّسخت ملاءته ببقعة لا يُزيلها سوى الدَّم.

يجلس بجوارها في عربة القطار المكيَّفة، الرَّجة الخفيفة يُمكنها أن تُلقي برائقي البال إلى مملكة النَّوم، لكنَّها لن تؤثِّر في اثنين قاتلين، أحدهما قَتَل بالخيانة، والآخر سيُقتل بسبب الخيانة.

قاسية كأي عشيقة، تستمر في تشويه زوجها، مع أنَّها مَن بدأ الخيانة، وحجَّتها لها مائة ألف رأس، فقط لتُقنع نفسها بأنَّها لا تزال شريفة، وأن العاشق أشرف من الشَّرف المصفَّى.

قالت لنفسها:

"ياريتـه كان قتلني.. كنت حسّيت انّي اتجوِّزت راجل.. حتَّى لو ماحبِّيتوش".

الظَّلام بالخارج يحوِّل زجاج نافذة عربة القطار إلى مرآة رخيصة مشوَّهة، انعكست عليها ملامح "نوال"، فرآها "خميس" وهو يعدل جسده الذي ضج من الجلوس الطَّويل، ملامح جميلة، رقيقة.

"خساره".

اضطـرب قلبـه اضطرابًا عاتيًا، وشـعر بصدره يتطبَّـق إثر اختفاء النَّفـس، وحدَّقت عيناه في الرَّف الذي يعلوه، حيث حقيبته الجلديَّة الكبيـرة، وحاول، إلى أقصى مـدى، أن يُخفي ما يحدث له، لا يريد أن يفشل وهو على مشارف النِّهاية، لكن..

"أنا هاقدر صُح ارفع الطُّوريَّه واحش بيها رقبتها؟".

أشـاح بوجهه ناحية النَّافذة المقابلـة، لمبات الكهرباء تمرق إلى الخلف كشهب صغيرة، بينما الظَّلام لا يتحرَّك.

"مهما كان دي روح.. وكانت حبيـ...".

صوت أمِّه فجَّ في أذنيه:

ــ قلبك خِرِع.

سخر من نفسه:

"حبيبتك!؟ دي عملت فيك اللي ما عَمَلوش عدوَّك.. دي مِش كسرتلك دِراع ولا رِجل.. ولا حتَّى كسرتلك رقبتك.. دي كسرتلك نَفْسك.. هاتعيش طول عمرك مِلَخْلَخ.. لا هايفرَّحك فرح.. ولا هاتتهنَّى بلُقْمَه.. اقتلها وعيش ملخلخ.. أحسن ما تبقى مفكوك خالص".

وصل القطار إلى "القاهرة" في الحادية عشرة مساءً، ومنذ هذه اللحظة سيبدأ تنفيذ الجزء الأصعب من الخطة، ولقد رتَّب الخطوات بمنتهى الدِّقة، وسينفِّذ جريمة قتل مكتملة.

أخذها إلى مقهى في بداية شارع "الجلاء"، من ناحية "رمسيس"، كان الطَّقس شتويًّا باردًا، والشَّاي الدَّافئ سيكون له مفعول السِّحر في إعادة الدِّفء إليه، والتَّمهيد للخطوة القادمة.

لاحظ أن كل شيء حوله يبدو كابوسيًّا، والشَّارع، على اتِّساعه، في ضيق خُرم إبرة، وصورة رأس "نوال" وهو يطير، مفصولًا عن رقبتها، تربكه تمامًا، ويتمنَّى لو يستطيع أن يفعل ذلك بضربة طوريَّة واحدة، فهو يشعر أنَّه لن يستطيع أن يضرب الثَّانية.

"إوعى يا خميس! لازم يكون قلبك ميِّت.. افتكر اللي عَمَلته فيك..".

و"نوال"، رُغم أنَّها اقتربت من الخلاص، إلَّا أنَّها لم تكن سعيدة، ربما عندما يغادرها "خميس" إلى الأبد، وتسمع صوت "ياسر" في التِّليفون، ستعود إلى مرحها الأوَّل، أيَّام أن كانت في الجامعة، تعيش حياتها بعيدًا عن هذه الوجوه الثَّعلبيَّة.

جاءت الصِّينية عليها كوبان ملآنان بالسَّائل الغامق، يشعَّان البخار الرَّمادي الكئيب، وبينما يضع السُّكر فيهما، كأي زوج متفهِّم ومُحب، كانت حبَّة المخدر قد أخذت طريقها إلى شاي "نوال" الفائر بالسُّخونة.

"حاجه خفيفه.. تدوِّخها وما تنوِّمهاش".

في "التَّاكسي"، كانت "نوال" تشعر بثقل في رأسها، كأنَّها تُدفع إلى النَّوم، ورأت العمائر تنتهي، وشعرت بالسَّيارة تسبح في متَّسع من ظلام، وتطير بين سرب من أسراب البط المهاجر، كأنَّها تحلم، ولاحظت أنَّها تريد أن تحرِّك لسانها لتقول إن هذه ليست هي الطَّريق التي تؤدي إلى بيت جدِّها، لكن لسانها لا يطاوعها، كأنَّه قد مات، ودُفن تحت أطنان من التُّراب.

توقَّف "التَّاكسي"، والتفت السَّائق حوله، قبل أن يقول:

- دي حتَّه مقطوعه.. خلِّي بالك من نفسك يا حاج.. كنت خلِّيت حد يستناك.. انت معاك حريم ولا مؤاخذه يعني.

كان يدفع إليه الحساب عندما قال:

- وعلى إيه؟ الحكايه مِش مستاهله.. كلّها مِيتين تُلتميت مِتر ونوصلو استراحة الشركه.

نزلت "نوال" بصعوبة، كانت قد أحسَّت بالخطر، وتُريد أن تصرخ، لكن الثِّقل ضرب كل خلية في جسدها، حتَّى إنَّها استندت متعلِّقة بذراع "خميس" كي تستطيع الوقوف، بينما كان يتناول حقيبته من داخل "التَّاكسي".

تحرَّك "التَّاكسي" مبتعدًا، الصَّقيع مؤلم مثل وعورة لهب، وريح الصَّحراء برِّية، وسكون فاقع، وبدءًا من هذه اللحظة، سمح "خميس" لغضبه أن ينفلت منه.

أمسك بيدها، وسحبها خلفه، وهي تمشي تتمايل، يتعمَّقان في الصَّحراء، وصوت نحيف لأقدام تخطو منغرزة في الرَّمل، تتوجَّه نحو مصير أسود، يمتزج بصوت لامع لارتطام شفرات آلات حادَّة داخل حقيبة "خميس"، صوت راقص، كأن هذه الآلات استشعرت خروجها من محبسها بعد قليل.

خلفهما، وبعيدًا في الأفق المعتم، تلوح أشباح أبنية إحدى مدن "العبور" الجديدة، إنَّه يحفظ هذه المنطقة، ويعرف أن ثمَّة مسافة آمنة تفصل بينه وبين أماكن إقامة العُمَّال، لكنَّه التزم الحذر، يجر "نوال" في صمت.

يحتاج إلى أن ينفخ قلبه بالغضب درجة بلوغ انفجار يكفي للقتل بنجاح، فعاد بذاكرته لاجترار اللحظة الأثيمة، فيرى الخائنة وقد تعشَّت من طعامه، وتعطَّرت بعطر هو مَن اشتراه لها، ولبست قميص النَّوم الذي يحبه عليها، و"الكلوت" الذي يعشقها فيه، لتنام مع واحد غريب.

هذا الغريب الذي سيظل يعلم سرَّه، وأنَّه مجرَّد بقايا رجل.

توقَّف فجأة، واستدار باتِّجاهها، وهوي على وجهها بصفعة كالصَّخرة، سقطت على إثرها في الرَّمل البارد، و اقترب من أذنها، وهمس:

- أنا مش دلدول.. وانتي ما كونتيش تستحقِّي لُقمه واحده بعد اللي عملتيه.. ولا حتَّى نَفَس واحد من هَوَا ربِّنا النَّضِيف.. بس كان لازم تغوري فِ سِتِّين داهيه ببلاش.. أنا هاقطع رقبتك دلوقتي.

يبدو أن إدراكها قد شوَّشه المخدِّر للغاية، أو ربما حدَّة الصَّفعة، فلم يرَ "خميس" على وجهها أيَّة ملامح ذُعر، أي خوف، رأى فقط ملامح بؤس.

رفعها على كتفه، ودخل عميقًا في الصَّحراء.

64

- كِيف بيجيكُم نِفس؟!

- والله يا صِعيدي ما بتفهم فِ النِّسوان خالص.

كان "أبـو أميـرة" يجلـس مـع أحـد أصدقائـه، مـن السَّـائقين، علـى مقهى صغير فـي موقف "أحمـد حلمي"، وكانـا يتكلَّمان عن "سوسـن" التي جلسـت على أحد الأرصفة تأكل ساندويتشًا، وقد بـدت علـى وجهها ملامـح التَّرقُّب، مُتربـة كسـيَّارة مركونة، وتضم شعرها بإيشارب شحبت ألوانه، وتلبس عباية سوداء كالحة.

- إنت مُش ليك فِ الفرز من أصله.

- فـرز ايه بس!؟ ما هي باينه قدَّامك اَهَـه.. حاجه آخر عَفَانه فِ الدِّنيا.

الوقـت يَدخل حيِّـز المغارب، و"الموقـف" خليَّة نحل، وبعض المحال بدأت في إضاءة أنوارها الخارجية.

- يا صِعيدي يا قِفل.. الواحده من دول وهِيَّا فِ الشَّارع حاجه..

ولمَّـا تكـون معـاك فـي الأوضـه ومتوضَّبـه كِـدا بتبقى حاجـه تانيه خالـص.. البت دي آخر حلاوه.. ناعمه وتِسـحب معاك.. ومن غير ما تحس تلاقي نفسك ملقَّمها الرَّابع.. هِيَّ بَس دِيِّتها تخُش المغسله وتلاقيها بَرَقِت.. واركب بأه وادعيلي.

- أستغفر الله العظيم.

الكلام دخل في منطقة الإثارة، ودم "أبو أميرة" أثيري، حسَّاس.

- وهُوَّ انت فاكرها سـهله؟! دي بنت صاحبة مزاج عالي أوي.. مابتروحـش مـع أي حـد والسَّـلام.. ولا ف أي وقـت وخلاص.. إن مـا كانتش طالبه معاها يبقى انسـى.. ولمَّـا بتطلب معاها وتكون مسـتجدعاك تترصَّـد لـك.. تسـتنى فرصـه تكـون عربيتـك فاضيه وتلاقيهـا ركبـت جَمبك.. بس إيه يا قِفل.. يخـرب بيت كدا.. أهو انت مِجَّوِّز وعامل نفسـك بتفهم في الـنسوان! دي بأه بعدها تحلف انَّك ما عرفت مَرَه ف حياتك قبل كدا.

دم "أبو أميرة" تطاير في عروقه، فارتبك جسده، لكنَّه قال:

- واللـه مِتهيَّـأ لـك.. كل الحريـم زَي بعـض.. دي هاتزيـد إيه يعني؟! شوية وَحْوَحَه!؟

خبط صديقه كفيه ببعضهما، وصاح:

- يا واعر.

ثم مال برأسه ناحيته وهمس:

- علـى فكـره.. قعدتها دي بتقول المسـائل طالبـه معاها.. ربِّنا يجعلك مِ الموعودين.. انت جرَّب.. مُش هاتخسر حاجه.

- أستغفر الله العظيم.. طب ونروح فين من غضب ربِّنا؟!

- ربَّك حليم وكريم.. تِبقى استغفره بعد ما تخلَّص.

هب "أبو أميرة" واقفًا:

- يخرب بيت ابوك يا "حوسا"..

ولـم يكـن يتخيَّـل أن "حوسـا" مـن مسـتجابي الدعـوة، وبهذه السُّرعة.

عندما توجَّه إلى سـيَّارته المنتظرة دورها، مرَّ أمام هذه المتسـولة العاهـرة، وكان قد اقتـرب منها، فخطف نظرة إلى وجهها عن قرب، والتقت عيناه بعينيها، لكنَّه أشـاح بوجهه بعيدًا، واستمر بالمشي في اتِّجاه سيَّارته.

وبينما يُشـغِّل محرِّك السيَّارة حدثت المفاجأة، فلقد فُتح الباب المقابـل، ودخلـت "سوسـن"، ودخل معها عبـق عطر فتَّـان، فنظر إليها مبهوتًا، عيناها واسـعتان، وأنفها منتصب، وشـفتاها مكتنزتان، وبشرتها مغبَّرة.

همست بصوت يفتن الملائكة التي لا تُفتتن:

- خُذني عشِّيني.

هنـاك لحظـات مُقتطعة مـن الجبـروت، تمر بالإنسـان فتدهس قِيَمَه، وثوابته الأخلاقيَّة، ولو كانت راسـخة في يقينه رسوخ الجبال الشَّاهقة.

ومع امرأة تملك مثل هاتين العينين، وهاتين الشَّـفتين، مضمَّخة بالعطـر، وصوتها عزف الرَّباب، نَسـي "أبو أميـرة" قيمة الإخلاص لزوجة حبيبة، وقيمة الحرص على رضا الله، وقيمة الكرامة، وتذكَّر أن اللوكانـدة، التي يأخذ السـائقون "سوسـن" إليها، تقع في شـارع "كلوت" بك.

قاد السـيَّارة، كان الإحسـاس بأن كل من في "أحمد حلمي" يراه قد جعله يفقد احتدام الرَّغبة، ورغم ذلك اسـتمر مندفعًا في التَّحرك نحـو وجهته، سـاق السـيَّارة في عماء، لم يكـن يرى، إنَّهـا أوَّل مرَّة سيرتكب فيها الفاحشة، وأوَّل مرَّة دائمًا ما تكون مُخيفة، يُسيطر فيها حبُّ الاكتشـاف، كما أن حالة عدم الحصافة في التَّعامل مع المنكر تتجلَّى، ويربـو الخوف الفطري، فتضيع لذَّة التَّمتع بالطَّريق المؤدِّية إلى تحقيق الرَّغبة.

لقد بقي غريبًا، خائفًا، حتَّى وصل إلى غرفة اللوكاندة.

الغرفـة ضيِّقـة، وحقيرة، ومظلمـة، لمبتها محروقة، و"سوسـن" عادت من الحمَّام، وشهقت:

- اللمبه محروقه يا اسمك إيه!

- محروقه محروقه.. كِدا كِدا كُنَّا هانطفُّو النُّور.

استلقت بجواره على السَّرير الضيِّق، ودارت بذراعها على كتفه، وكفُّها تتحسَّس ظهره، وغنجت:

- كنت عاوزاك تشوف جمالي الأول يا اسمك إيه.

استدركت بصوت جاد مائع:

- انت اسمك إيه بِجَد؟

"أبو أميرة" داخ، فالدَّم الفوَّار ضرب عقله من غير رحمة، حتَّى إنَّـه فشـل في التحكُّـم بأي عضو من أعضاء جسـده، فـلا تفكير، لا قـدرة على الكلام، حتَّـى التَّنفُّس صار يؤدِّيـه بصعوبة، ولا خلاص إلَّا بالحركة فورًا، وإعطاء "الرَّكوبه" الغيار الأول.

فحَّ مثل ذكر البط الهائج:

- "درديري".

همست مثل كمنجة تتدلَّع:

- "داارديييريي".

وماس صوتها وهي تقول:

- "ديدِّي".

وانسدحت على ظهرها فتهيَّأت له، وتهيَّأ لها، والدِّماء عربدت، والعالم غاب، والانسطال حضر، والعيون المغمضة ترى وسعًا فضائيًّا صبَّه السِّحر، لكن الجسدين فرسان تركضان من غير راحة، النَّار تخرج من منخاريهما، ووحوحت "سوسن" من غير حساب، وتأوَّهت بزيادة، وفي لحظة تخلع القلب الحزين، تغسله بنفخة حياة نقيَّة، ثم تُعيده إلى ما بين الضُّلوع مرونقًا بوهج الحب الغريزي، أحاطت "سوسن" خصر "أبو أميرة" بساقين تعانيان من رعشة زلزال، وضغطت على ظهره وهي تئن، تقول الكلام مُقطَّعًا بالشَّخر:

- أوي.. أوي يا "دِيدِّي".. هاحبل مِنَّك يا حبيبي.. أوي.

ضربته كلمة "هاحبل مِنَّك" في طبل أذنيه، سمعها جيِّدًا، وأرَّقته لثانية، لكنَّه الآن في لحظة الانفلات التَّام. وسيشخر.

65

مشهد مستحيل، لم يرَه بشر من قبل، منذ خلق الله "آدم"، وحتَّى هذه اللحظة.

"صُنع الله"، بجسده الضَّخم، يتسلَّق جذع نخلة ضاربة في السَّماء، يدور حول خصره حبل من ليف، يتدلَّى منه ليلفَّ حول إبطي الشَّيخ "غريب"، الذي ينعر بالصُّراخ في حقول الظَّهيرة البكماء، ظهره يتخبَّط في حراشف جذع النَّخلة، فيشعر به وكأنَّه يتمزَّق، ومع كل سنتيمتر إلى أعلى، ومع إحساسه الطَّاغي بأنَّه سينفلت من الحبل ليسقط وتندك رقبته، وعدم فهمه لما يجري بالأساس، كان الرُّعب يتناوشه مثل ذئب جائع، فينعر.

وتحت الشَّواشي الخضراء، وبينما يُعلِّق الشَّيخ "غريب" بين سباطات البلح الأخضر، ويُحكم وثاقه متأرجحًا في الهواء، قال:

– الرُّعب يُخرج الحقائق من دهاليز العقول.. مثل النِّيران.. تُخرج الأفاعي من شقوقها المظلمة.

الإصرار، الذي يؤدِّي به هذا الكائن عمله، أكَّد للشَّيخ أنَّه لا أمل في الفكاك من هذا الوضع بمجرَّد التذلُّل والمسكنة، فأخرج صوتًا لا يختلف كثيرًا عن مأمأة ماعز هزيلة:

- إنت عاوز إيه منِّي؟

- أنا أريد أن أرى سُرَّتك.

"صُرِّتي!؟"

ما قاله هذا الإنسان أدهش الشَّيخ، حتَّى إنَّه نسي خوفه الرَّهيب للحظات، فما الذي يريده من رؤية سُرَّته؟! وهل يستلزم رؤية سُرَّته كل هذا الجهد، أن يصعد به جذع نخلة سامقة، ويُعلِّقه بين جريدها؟!

- طَب دَلِّيني وشوفها..

- كيف أراها وأنت ترتدي كل هذه الثِّياب؟!

نظر الشَّيخ "غريب" إلى الفراغ العميق أسفله، ومأمأ:

- راح اقلعلك هدومي كلِّها.

- وهل سنجد السُّرَّة حقيقة تحت الثِّياب؟

- أومَّال إيه؟! هُوَّ في بني آدم من غير صُرَّه؟!

الهواء السَّاخن في العلالي يُطوِّح جلباب الشَّيخ "غريب"، الذي اختلط برأسه التَّفكير في إجابات لأسئلة حمقاء بالتَّفكير في ماهيَّة هذا الكائن المريع، الذي لا يمكن أن يكون وليًّا من أولياء الله الصَّالحين.

"دُوكْهُم قلوبهم مليانه رحمه وشفقه.. ودا باين عليه قَتَّال قُتَلَه مجنون".

قال اللسان العربي الفصيح:

- "آدم" وحده الذي من غير سُرَّة.

خطر في وجدان الشَّيخ "غريب" أن هذا الكائن ربما يكون عفريتًا حقيقيًّا، فأخذ يتمتم:

- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

آية "الكرسي" التي تحرق الشياطين، أو على أقل تقدير، تطردهم.

لكن العفريت لم يحترق، ولم يغادر، وإنَّما استدرك:

- قل لي أيُّها الشَّيخ.. أين الجنَّة؟

الحـق أن الحقول الممتـدَّة بخضرتها، والنَّخيـل المنتصب، في كل مكان، مثل زهور أسطوريَّة، زرقة الماء الجاري في التُّرعة أسفل منه، مكوِّنات أرضيَّة أصلها الجنَّة، لكن الشَّيخ "غريب" كان مُعلَّقا، مُهدَّدًا بالسُّـقوط في أي لحظة، هو يشـعر الآن بأنَّه يتعذَّب في أسفل درك من دركات الجحيم.

- العِلم عند الله يا سِيدي.

امتـدت يد "صُنع اللـه" إلى عقدة الحبل، ولن يؤدِّي شـدُّ طرفها سوى إلى حلِّها، وإذا حُلَّت على هذا الوضع الذي يعاني منه الشَّيخ "غريب"، فلن يكون مصيره سـوى السـقوط إلى الأرض بسـرعة نيزك.

وَلْوَل:

- لَـهْ لَهْ لَهْ.. طَب قوللي انـت مكانها وِين وانا أصدِّقك.. وحياة حبيبك النَّبي لترحمني وتدلِّيني.

وبينمـا يواصـل "صُنـع اللـه" مدَّ يـده ناحية طـرف العقـدة كان يقول:

- حبيبـي "محمـد" قال لك: اقـرأ.. وقال لك إنَّه بُعـث مُعلِّمًا.. ولَعَـن الذيـن يمجِّـدون المعتقـدات لا لشـيء غيـر أنَّهـا معتقدات

الآباء.. وأمرك بالتَّفكُّر والتَّدبُّر.

اندهش:

"بيقول حبيبي محمَّد!؟".

أمسك "صنع الله" بطرف العقدة فعلًا، وفي الحين الذي سرسع صوت الشَّيخ، يُطلق أنينًا تتخلَّله كلمات غير مفهومة، قال:

- هل تفكَّرت وتدبَّرت أيُّها الشَّيخ؟

خرج كلامه مخلوطًا بلعابه الذي سال من شدقيه:

- اتفكَّرت واِدَّبَّرت يا سِيدي.. اتفكَّرت أيوه.

طرف العقدة مضغوط بين إبهام "صُنع الله" وسبَّابته ووسطاه، قال:

- وماذا فهمت؟

تردَّد الشَّيخ "غريب" في ذكر ما يفهمه، فهو يخشى أن يكون فهمًا لا يُرضي هذا الكائن، كما لا يعرف ما الذي يجب أن يقوله بالضَّبط كي يأمن شرَّه، لكن كان لا بد من أن ينطق:

- فهمت أن الله حق.. وسيدنا "محمَّد" حق.. والموت علينا حق.. و..

وشهق شهقة طويلة إثر تَهاوٍ مفاجئ لجسده.

لقد شعر بأن يدًا أسطوريَّة قد سحبته من قدميه، لتفلته من قيده، إلى حيث السُّقوط، الرِّيح انخطفت من جانبي صدغيه، ووَشَّت في أذنيه كصرخة قتيل، وصار الهواء أثقل من أن يتنفَّسه، أسرع من أن يلتقطه.

وفي اللحظة التي أيقن معها بالهلاك، واستشرف فيها الجسد مرحلة الغيبوبة الأولى قبل الموت، شعر بآلام عظيمة تشرخ ما تحت إبطيه، وأسفل صدره، هل ارتطم بالأرض وانتهى الأمر؟

لم يرتطم بالأرض. ولم ينتهِ الأمر.

ما زال الشَّيخ "غريب" مُعلَّقًا في الهواء، لكن في وضعيَّة أسوأ من الأولى، التي كانت فيها أطراف شواشي النَّخلة تُدانيه، تصنع فوقه سقفًا قُبَويًّا أخضر، حيث احتواء، ما، كان يحس به، لكنَّه الآن، ورغم اقترابه من الأرض، يشعر بأنَّه يعوم في الفضاء، الوضع صار مرعبًا، ومؤلمًا بدرجة أشد.

جاءه الصَّوت الفصيح يرعد من فوْق:

- الموت ليس حقًّا عليك.. هو تحدٍّ لك يا إنسان.. أرسلك الله إلى الأرض كي تمارس ربوبيتك.. تسعى إلى هزيمة موتك.. وإقامة خلودك.. وقتها فقط تحقق قيمة استخلافك على الأرض.

هذا كلام جديد على أذني شيخ اعتاد على فهم أن مجد الإنسان هو في التَّقرب إلى الله بالتَّذلل وفقط، عبد يتحقَّق وجوده كلما زاد

فـي التذلُّـل، وأنَّه خُلق وليس له من الأمر شـيء، شَـرَفُه في أن يبقى دومًـا صريع المقادير، وها هو يسـمع، الحين، مـا يُنقِص من عظمة اللـه العالي المُتعالي، السَّـامي المُتسـامي، فأي عظمة سـتكون له، سـبحانه، إلَّم تكـن مصائر خلقه بيديـه، يُميتهم مثلمـا يُحييهم؟ أي عظمة سـتكون له، عز وجل، إلَّم يكن قادرًا على تعذيبهم، وقتلهم، وإتعاسهم، مثلما يمنحهم الهناءة، ويسعدهم؟!

وعلـى الرُّغم من أنَّه التزم صمتًا، إلَّا أن الصَّوت العربي الفصيح جلجل:

- آمـن الله بالإنسـان.. قبل أن يؤمن الإنسـان باللـه.. أتظن أيُّها الجهـول أن اللـه خلقك ليلهـو بك، لتكـون دُميته التي يُسـعدها إن أطاعته.. أو يُشـقيها إن تمرَّدت.. هذا شـيء لا يفعله الوالد بولده.. لا يفعلـه الحيوان بخلفته.. أهذا هو قَدْر اللـه في عقلك أيُّها الظَّلوم الغشـوم؟! أيُطلِع عليك المُمجَّد شمسَـه لآلاف السِّـنين فقط ليلهو بـك؟! أيُرصِّع لـك هذه السَّـموات بالكواكـب والنُّجـوم كي تزرع لتأكل.. وتأكل لتخرأ.. وتبني للهدم.. وتُسلِّم روحك للفناء؟ أوَكل هدف الله العظيم من خلقك أن يمنحك في النِّهاية جنَّة.. أو يُمحِنك باللظى؟!

خرج صوته محترقًا بالزَّفير المختنق:

- يا سِيدنا الجنَّه والنَّار مذكورين فِ القرآن.

صرخت الآلام، مجددًا، تحت إبطيه، وأسفل صدره، وهو يشعر بنفسه يرتفع مثل دلو ماء داخل بئر، تسحبه يدان رعناوتان، حتَّى عاد إلى مكانه الأوَّل، تحت قبَّة السَّعف الأخضر، ودفعته يد العفريت ليستدير في الهواء ويواجهه، لقد كان قريبًا منه لدرجة أن خصلات هذه اللحية، مُفرطة الطُّول، لامست جبينه الغارق في عرق المأزق.

جلجل اللسان العربي الفصيح:

- ذُكرا في القرآن كي يُوجدهما الإنسان..

همس كعصفور جريح:

- يا مولانا.. البني آدم بالعافيه بِيخَضَّر فدَّان صحرا.. يُقْبا كِيف يِقدَر يعمل جنَّه ونار؟! إذا كان المتكلِّم مجنون يبقى السَّامع عاقل برضه.

مدَّ "صُنع الله" يده، وأراح كفَّه الضَّخمة على صدغ المُعلَّق قبل أن يقول:

- إذا غَلَب ابن "آدم" الموتَ سيتطوَّع له المستحيل.

"سبحان الله! إيه الطَّراوه اللي ف يدُّه دي؟!".

- يا مولانا.. البني "آدم" شويَّة زُكام بيرقِّدوه فِ فرشته شهر.. تقوللي يغلب الموت! يغلبه كِيف وهُوَّ حاجه بإيد ربِّنا؟!

- كل شيء خُلق للإنسان.. الله هو الحَي.. والموت في "آدم".. وفيه من الحَي.. بالحَي يغلب "آدم" موته.. ويَخلُد في الأرض.. يُنشئ فيها جنَّته.. ليمدَّها إلى الكواكب.. فيصير عرضها السَّموات والأرض.

قرَّر الشَّيخ "غريب" أن يصرخ، وليكن ما يكون، إنَّه في لحظة إيمانيَّة فارقة، يواجه شيطانًا ماكرًا، شيطانًا عتيدًا، لم تُؤثِّر فيه آية "الكرسي" نفسها، يُريد أن يستلب قدرات الله، فليقل إذن الحقَّ ولو أدَّى إلى موته، ليستشهد أفضل.

- وأين الله؟ أين الله يا لَعين؟

وبينما "صُنع الله" يُطلق إجابته، أطلق أيضًا كفَّه بصفعة مدوِّية على صدغ الشَّيخ "غريب"، ما جعله يسمع الكلام مخلوطًا بصوت انهيار جبل من حديد أجوف:

- "ما وسعتني سمائي ولا أرضي.. ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن".. الله في الإنسان يا غِرِّير.

أذهلت الصَّفعة الشَّيخ "غريب"، ألجمته تمامًا، لكن أذنيه كانتا تلتقطان ما استمر "صُنع الله" في قوله:

- يتمجَّد الله كلَّما عزَّ الإنسان.. وتتحقَّق إرادته عندما يُحقِّق الإنسان شرط استخلافه.. هزيمة الموت.

- بِتُضرُبني على وشِّي؟! اقتلني ياخِي ولا تهينِّي.

- "وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَه مِن مُّكْرِمٍ".

الذُّهول السَّاطع على وجهه، من أثر الصَّفعة، لم يمنح الذُّهول الجديد أيَّ فرصة للاتِّضاح.

"دا بيتكلَّم بالقرآن! الشَّياطين لو سمعت القرآن بتتحِرق.. لو سمعته بس.. لكن دا بيقراه كماني! مستحيل يكون شِيطان.. أومَّال صنف ابو قَالِع مَيْتِين أهله إيه؟!".

- إنت إيه؟!

كان جسد الشَّيخ "غريب" يتأرجح في الهواء كذبيحة، واستطاع أن يلمح عيني "صُنع الله"، وفيهما الغضب، ثم سمع صوته الآمر يرعد:

- اتلُ عليَّ ما تقرأه في جلوسك الأخير من الصَّلاة.

ولأن الشَّيخ "غريب" في ذهول مفرط، بسبب غرابة وقسوة ما يجري عليه، فلم يُدرك ما يطلبه هذا الكائن المخيف، رغم أنَّه يؤدِّيه بإتقان خمس مرَّات يوميًّا على الأقل.

ثم أدرك فجأة ما يُراد منه، فأخذ يكر ما يحفظه:

- التَّحيَّات لله.. والصَّلوات والطَّيِّبات.. السَّلام عليك أيُّها النَّبي ورحمة الله وبركاته.. السَّلام علينا وعلى عباد الله الصَّالحين..

أشـهد ألَّا إله إلا الله.. وأن محمَّدًا عبده ورسـوله.. اللهم صلِّ على "محمَّد".. وعلى آل "محمَّد".. كما صلَّيت على "إبراهيم".. وعلى آل "إبراهيم".. اللهم بارك على "محمَّد".. وعلى آل "محمَّد".. كما باركـت على "إبراهيم".. وعلى آل "إبراهيـم".. في العالمين.. إنَّك حميد مجيد.

وأخيرًا، لاحت له النَّجاة.

رجل نحيـف، مكروب بحرارة الجـو، يركب حمارًا دلدل أذنيه، يتقدَّم به على الطَّريق في لا مبالاة.

وقبـل أن يفكِّر فـي الصُّـراخ، كان "صُنع الله" قد أمسـك رقبته، وأدارها باتِّجاهه، وأشار له بالصَّمت وإلَّا....

ورسم علامة الذَّبح على رقبته.

"قتَّال قُتَلَه ابن هِرمِه".

كان علـى الشَّـيخ "غريـب" فَهـم أنَّه ليـس بمقدور رجـل، بهذه النَّحافة، ومعطوب بالخمول مثل حماره، تقديم أيَّة مساعدة لإنسان علَّقه جنِّي أزرق في قمَّة نخلة، فآثر السُّكوت، حتَّى عدم التنفُّس.

لكـن الرَّجل الهمدان بالفقر، وحرارة الجو، لمح، في لحظة فتح فيها عينيه نصف فتحة، ما نشَّـطه تمامًا، فلكـز جنبي الحمار، بعقبي قدميه، لكزة عنيفة، ليُسرع الخُطى باتِّجاه ما رآه.

إنَّها أكياس مشتريات الشَّيخ "غريب"، الموضوعة أسفل جذع النَّخلة، المُعلَّق بأعلاها.

وما إن خطف الرَّجل الأكياس، وقفز إلى ظهر حماره، حتَّى حثَّه بكل جسده على الإسراع، خشية عودة صاحب هذه الأشياء، فنهق الحمار، ورفع أذنيه، وانطلق ذائبًا في خضار الطَّريق الضَّيق.

قال بصوت هادئ، وبلسانه الفصيح:

- سُرقت أشياؤك يا شيخ.

مأمأ:

- راجل واطي وابن كلب.

- أنت تقرأ "التَّحيَّات" خمس مرَّات على الأقل كل يوم.. وتزعم أنَّك تتفكَّر وتتدبَّر.. فماذا فهمت منها؟

حاول الشَّيخ "غريب" أن يستجمع عقله، ربما يقول شيئًا يمكن أن يعجب هذا الغريب فيتركه وحاله.

- توحيد ربِّنا.. وتعظيم لسيدنا "محمَّد" وأهل بيته.

- وأخي "إبراهيم"؟ أليس له نصيب من هذا التَّعظيم؟

- دا أبو الأنبيا كلُّهُم.

بان الرِّضا في صوت هذا الغريب القاسي، فانشرح صدر الشَّيخ "غريب"، وأمل في الخلاص:

- مع كل إجابة صحيحة سأقرِّبك من الأرض بضعة أذرع.. اجتهد لنفسك.

وبالفعل، شعر الشَّيخ "غريب" بجسده وهو يتدنَّى قليلًا، وسمع السُّؤال الثَّاني:

- أكان "إبراهيم" نبيًّا عاديًّا أم رسولًا من أولي العزم؟

فرح الشَّيخ "غريب"، فالسُّؤال إجابته سهلة للغاية:

- دا كان نبي عادي.. ما خَصُّهوش ربِّنا برساله.. ولا نزَّل عليه كتاب.

- ها هي أذرع أخرى تقرِّبك من النَّجاة.

الأمل في النَّجاة رفع نسبة القلق في دمه، وتمنَّى لو أن كل الأسئلة التَّالية تكون بنفس هذه الدَّرجة من السُّهولة، أمنية صعبة التَّحقُّق، فالكائن الذي يمتلك كل هذا الجنون، وكل هذه القسوة، لا بد له من أن يُوجِّه السُّؤال المُعجز، الذي سيقف حائرًا بحياله، ممَّا يُعيد سعير النِّيران إلى ما تحت إبطيه، وحول صدره، أثناء خطفه إلى أعلى مرَّة أخرى.

سمع الصَّوت الذي صار يكرهه، رغم طلاوته:

- وأي رجلٍ من رجُليِّ الله أعلى درجة.. النَّبي أم الرَّسول؟

قـرَّر أن يُفكِّر بصوتٍ عـالٍ، ليُقدِّم مبرِّره إن أخطـأ الإجابة، ربما تكون هناك رحمة ما في قلب هذا المعتوه:

- النَّبي نبي وبس.. لكن الرَّسول بِيُقْبا نبي كماني.. يعني الرَّسول أعلى شويَّه.

لم يتكلَّم الرَّجل، لكن الشَّيخ "غريب" شعر باقترابه مسافة إضافيَّة باتِّجـاه الأرض، فحمد الله، ورقص قلبه قلقًا؛ لأن الأمل يزداد، حد أنَّه يحس بقدميه تتشمَّمان رائحة الأرض القريبة.

- لماذا إذن اختار أخي "محمد" أن يبارك نبيًّا في "التحيَّات" ولم يختر رسولًا من أولي العزم؟

السُّـؤال لولبي، إجابته ليسـت فـي احتمال من احتمالين، وشـر الأسـئلة، في ظرف مثل ظرفه، هي هذه التي تحتمل أكثر من إجابة، فلجأ إلى نفس الحيلة، أن يعرض ما عنده وكأنَّه يفكِّر بصوتٍ عالٍ.

خرج صوته لنور الدُّنيا محتارًا:

- خايـف أقول عشـان سِيدنا "إبراهيم" هُـوَّ أبو الأنبيـا.. أصله ممكن نقول برضه إن سِيدنا "نوح" أبوهم بعد الطُّوفان.

انتظر برهة مترقِّبًا، قبل أن يستدرك:

- ويمكن عشان رَفَع قواعد البيت الحرام.. طيب ما سِيدنا "آدم" أوَّل واحد رفعها مع الملايكه ذات نَفْسِيها.

للحظة شعر بأنَّه هو من سُيرفع خطفًا، وأن هذا السُّؤال سيكون سبب حتفه، لكنَّه قال:

- يمكن طَيِّب عشان هُوَّ سبب عمار "مكَّه"؟

انخطف إلى أعلى، فشعر بأن تحت إبطيه قد شُق، وأن الحبل فات في اللحم، وتعلَّق بعظام مفاصله، وفي ثوانٍ كان قد عاد إلى مكانه تحت قبَّة الشَّواشي الخضراء، والجو نار، فعوى:

- قول وانا مصدِّقك.. أنا مش معترض على حاجه.

- لماذا لا تضربون بعقولكم في عمق المعاني؟ لماذا أنتم على الضِّفاف الآمنة دائمًا.. ليس هنا سوى حبَّات الرَّمل.. بينما هناك حبَّات اللؤلؤ.

جأر ببحَّة توسُّل:

- مش كل النَّاس تِعرف تعوم عومك.

- مَن لا يستطيع العوم لا يتقدَّم لقيادة السُّفن.

برجاء:

- طَبْ عَلِّمني.

- وإذا علَّمتك تتَّبعني؟

هزَّ الشَّيخ "غريب" رأسه كثيرًا، كدليل على الموافقة غير المشروطة، فما يعانيه من ألم لا يمنحه ترف الرَّفض، سيوافق الآن على أي شيء، حتَّى لو طُلب منه أن يقبِّل يد "إبليس".

- لقد اختار أخي "محمَّد" مباركة أخي "إبراهيم" في صلواته الخمس لأنَّه الوحيد الذي اهتدى إلى الله بعقله.. لم يَرث معرفة مشوَّهة عن الله فأصلح تشوُّهها.. وإنَّما وَرِث كفرًا قراحًا.. فظلَّ يبحث عن الله بعقله حتَّى وجده.. لقد بارك "محمَّد" العقل.. وسأل الله أن يُصلِّي على العقل.

استمر في هز رأسه موافقًا، متصنِّعًا الإدراك، ومأمأ:

- اللهم صلِّ على العقل.

- الدُّنيا تُقدِّم للعقل الآن معطيات جديدة.. تُثبت أن الإنسان يُمكنه أن يهزم موته ويقوم.

ثم زعق هذا الإنسان الغريب زعقة كادت تُدَشدِش رأس هذا المُعلَّق المسكين:

- آمِن بي.. وبما أتيتك به.

لقد ارتعب:

- حاضر.. حاضر.. آآمن.

- آمِـن بمُعظِّـم الله الـذي منحنـا الحيـاة.. ومُـذل الدَّاعين إلى استعذاب الموت.. أنا "صنع الله".. منحني الله نبع الخلود.. وأذن لي في سُـقيا المتنوِّريـن بالعقل.. ووهبني قلبًا من حديد.. أقسـو به على كل مَن لا يؤمن بقدرته على الخلود.

ثم استدرك:

- أتؤمن؟

- أؤمن.

وامتـزج نحيب الشَّـيخ "غريب" بوشـيش ريح ضربت شواشـي النَّخيل ضربة مفاجئة.

66

إنَّه يمضي في الصَّحراء، في عتمة ضوء القمر، يخطو بسرعة علَّ المسافة الطَّويلة تُطوى في أقصر وقت، يريد أن يرمي بجسده في فراشه "الميري" الهزيل.

كان عقله قد انفصل عن تلك اللحظة المذهلة، حيث في الوقت الذي كانت روحه قد هدأت بسكونها في حضن الحبيب، إذا بالفزع ينتزعها انتزاعًا، وموت بطعم الفضيحة يحاول مداهمته من ناحية باب الغرفة المغلق، تلك اللحظة التي عجز فيها عن اتِّخاذ أي قرار، فتناول دفَّة التَّصرف هذا الآخر، الكامن داخل الإنسان، مَن تتجلَّى فعاله في أوقات الخطر، بقدرات خفيَّة مدهشة جدًّا.

إنَّه يمضي في الصَّحراء، لا يزال مكان الفرقة بعيدًا، وعلى عقله أن يجد حادثة أخرى، يتلهَّى باجترارها عن التَّفكير في هذه الأجرام الشبحيَّة الدَّاكنة، الرَّابضة في وسع الرِّمال، كأنَّها تتربَّص به، فمهما كان الإنسان شجاعًا، إلَّا أن المسير ليلًا، في بحر رمال تعصف به شائعات عن أرواح معذَّبة، لا تكف عن السِّباحة فيه، أمر يهز القلب الشُّجاع.

ولقد اهتز قلب "ياسر"، وانتصب شعر رأسه، وبدأ سريان القشعريرة في جلده، فثمَّة شبح، فعلًا، يسير بمحاذاته، إلى يساره، يبتعد عنه بما لا يقل عن ثلاثين مترًا، وفي نفس الاتِّجاه، ناحية الفرقة.

الإيهام هو خط الدِّفاع الأوَّل الذي يُنشؤه العقل في مواجهة المُخيف المُفاجئ، ولقد قال عقله:

"تِلاقيه واحد من زمايلك راجع لوحدته زيَّك".

خط الدِّفاع الثَّاني: يُبرز العقل ذكرى حدث جميل، مُريح للقلب، على سطح مخيِّلة الخائف.

"ساحة المحكمة، المنصَّة الطَّويلة العالية، مُدرَّج خشبي يجلس عليه عدد قليل من أهالي المتَّهمين، القفص الحديدي الشَّبيه بقفص القرود في حديقة الحيوانات بـ"الجيزة"، وهو يقف خلف القضبان، قابضًا بكفَّيه على اثنين منها، وقد أخذ يتأمَّل كل ما حوله بأناةِ مذهول، غير مصدِّق لما يحدث.

"أنا حقيقي جوَّه قفص محكمه وباتحاكم؟!".

صوت مخطوف مثل نبحة كلب مذعور:

- محكمه.

هبَّ النَّاس وقوفًا، في حين دخل القاعة ثلاثة يرتدون البذلات العسكريَّة، تُومض أكتافهم بنجوم ونسور نحاسيَّة، جلسوا إلى المنصَّة، فجلس النَّاس، ونُودي على المتَّهمين، كان "ياسر" يسمع الأسماء، ويسمع صوت المتَّهمين وهم يؤكِّدون وجودهم:

- أفندم.

وسمع اسمه:

- "ياسر مبروك خليل".

- أفندم.

لن يهتم العقل، في مثل هذه اللحظات الفارقة، باجترار التَّفاصيل، وإنَّما سينبض بالمانشيتَّات.

- معاك محامي؟

- لا يا فندم.

نظر في الأوراق أمامه، وخرج صوته شبيهًا بصوت عجلات قطار سريع تصطك بفواصل قضبان سكك الحديد، قال:

- أنت متَّهم بالسُّلوك المُضر بالضَّبط والرَّبط.. ومقتضيات الأمن العسكري.. حيث إنَّك تحدَّثت بشكل غير لائق مع العقيد "هاني علي الدِّين".. رئيس فرع مركبات الفرقة العاشرة مشاه ميكانيكي.. التَّابعة للجيش الخامس الميداني.

توقَّف القطار فجأة، ورفع عينيه عن الورق، ونظر في عيني "ياسر":

- حصل؟

- ما حصلش يا فندم.

نظر القاضي العسكري إلى الكاتب عن يساره وقال:

- أنكر الادِّعاء.

ثـمَّ اتَّكأ بكوعيه إلى المنصَّة، وصوَّب بصره، مرة أخرى، إلى "ياسر"، قبل أن يقول:

- أومَّال إيه اللي حصل؟

أخذ يحكي ما جرى بالتَّفصيل، ولم يكذب في حرف واحد، بينما القاضي يستمع باهتمام المشغوف، فما يقوله "ياسر" كان الحقيقة المدهشة، يقولها بأحاسيسه، بينما الأوراق باردة برود الكذب.

أنهى "ياسر" الحكاية، وقبل أن يعود القاضي بظهره إلى الخلف كان قد قال:

- براءه يا بني.. ومن غير مداوله.

ثم مطَّ رقبته ناحية "ياسر" وقال:

- من هنا ورايح لو رُتبه شتمتك تروح تتظلِّم الأوِّل.. مش تشتمها

سعادتك.. وشرف أمِّي لو جِتني تاني هاحبسك وافأَّدك دُفعه".

الشَّبح لا يزال يمضي بمحاذاة "ياسر"، ملتحفًا بضوء قمر ليس كافيًا للكشف، فبدأ الخوف يشتد، ويهاجم قلبه بقوة، ليسقط الخطَّان الدِّفاعيان، فيشرع عقله في بناء الثَّالث بسرعة، ومن غير إتقان.

لقد دَفعه عقله إلى أن ينادي على هذا الشَّبح، فربما كان أحد رفقائه في الفرقة:

- يا دُفعه..

صَمْت، ورجيع ندائه فقط هو ما ظلَّ يتردَّد في صِوانَيِّ أذنيه، بينما طبل بدأ يقرع بين ضلوعه.

رفع صوته متوتِّرًا:

- يا دُفعه..

الخوف يهاجم بقوَّة أعجزت العقل عن مواصلة بناء خطوط الدِّفاع، فأمعن "ياسر" النَّظر في هذا الظِّل الأخرس، الماشي بمحاذاته.

"دا مش شكل عسكري.. دي راس كَبيره.. عمِّه.. جلابيِّه!".

انتصب شعر رأسه، شعر به مثل نصال نبتت من فروة جمجمته فمزَّقتها.

فجأة، ينبلج صوت هرير لاهث عن يمينه، وعندما أدار رأسه ناحية هذا الصَّوت، رأى بضع بُقع داكنة على الرِّمال، تقترب منه بغاية السُّرعة.

كلاب الجبل الجائعة.

وقف مكانه، فهو كقروي يمتلك خبرة التَّعامل مع الكلاب، وإذا كانت كلاب الجبل تهاجم بشكل أعنف، لا تستنفد قواها في النُّباح، فقط هرير غاضب يخرج من صدورها القاسية، لكنَّها في النِّهاية كلاب، طبعها طبع أي كلب في الدُّنيا.

"أُوقَف مكانك وما تِجريش".

هذه أوَّل خطوة لمقاومة هجوم كلب، أو عدَّة كلاب.

الخطوة الثَّانية: "مَهْمَن قرَّب مِنَّك.. ولو كان فاتح بوزه بَوَّابه.. خلِّيك ثابت مكانك.. بس اقعد على قرافيصك".

أمَّا الخطوة الثَّالثة، والتي ستنهي حتمًا أحلام أي كلب في عض أي إنسان.

"لو جَمبَك أي طوب اضربه بيه.. هايدِّيك ضهره.. ويحط ديله بين رِجلِيه.. ويقول يا فَكِيك".

لقد أحاطت الكلاب به، سبعة، أو ثمانية، ربما تسعة، واقتربت جدًّا منه، ومن بين هريرها كانت تصعق أذنيه نبحات خاطفة،

وإصرارهـا علـى الاقتـراب منـه بهذا الشـكل، رغـم أنَّه قـد جلس القرفصـاء، جعلـه يتيقَّـن من أن الأمر ليس بالسُّـهولة الّتـي ظنَّها في بدايـة هجومها، وأن تُحيط به في حلقة ضيِّقـة فهذا يعني أنَّها كلاب تعرف ماذا تفعل.

ليست مجرَّد كلاب جبل، إنَّها كلاب الجوع الصَّحراوي.

ومع أنَّه بدأ يقذفها بما وجده حوله من حصى، إلَّا أنَّها اسـتمرَّت تحاصره، ونباحها وهريرها عبَّأ قلبه برعب أسود.

اقتربـت للغاية، حد التناوش، فأحدها نهشـه من الخلف، وبينما يستدير ليقاوم هذا الهجوم الخلفي، نهش آخر ذراعه، فلمَّا ارتد، في حركة سريعة، لمقاومة هذا الهجوم الجديد، لم يستطع الحفاظ على توازنه، فسقط على ظهره.

تذكَّر المشـهد الذي عصف بذهنه عندما أخذ العقيد "هاني علي الدِّين" يسبّه بأمِّه، وكيف رأى الكلاب تنهشها، كان ما رآه فظيعًا، كان جسدها يتمزَّق، ودمها يتفجَّر، وجثَّتها بدت مثل زهرة متوحِّشة.

في هذه اللحظة، هو الضَّحية، وبالحقيقة.

ولقـد تراقـص القمـر في عينيـه، وعلت سـحابات غبـار طيَّرتها المخالـب المسـعورة، وها هي الأنياب أُشـرعت حمـراء، تتراقص بجنون على أنغام النُّباح والهرير.

فجأة، سمع صوتًا جميلًا.

سمع النُّباح بِرنَّة الخوف، قبل أن يشعر بلسع ذرَّات الرِّمال يُلهب وجهه، تلك التي دفعتها مخالب الكلاب باتِّجاهه وهي تندفع هاربة في غير نظام.

ثم رأى الشَّبح، ذا الرأس الضَّخم، يقف فوق رأسه.

إنَّه ليس رأسًا ضخمًا، وإنَّما عِمامة كبيرة، ورجل طويل عريض يرتدي جلبابًا قصيرًا، ولحية مهيبة، وظن "ياسر" أنَّه في حلم، وليس في واقع ملموس.

تَبدُّل أحوال الواحد من النَّاس، في هذه الدُّنيا، يُدهش الألباب، فالمبرِّرات المتناقضة كلُّها في قلبه، يُبرز العقل منها ما تحتاجه اللحظة.

لقد كان "ياسر"، منذ قليل، مرعوبًا من هذا الشَّبح، وتمنَّى لو يغور إلى بعيد، بينما الآن، يتمنَّى ألا يتركه حتى يصل إلى فرقته، فلقد أنقذه من الموت، ويريد أن يقوم معه بواجب ضيافة، خاصَّة وأنَّه بدا غريبًا جدًّا عن المكان، لا يسير في هذه الصَّحاري سوى الجنود.

قام، وأخذ ينظر إلى جسده، يبحث عن إن كانت الأنياب قد اخترقت جلده أم لا، وهل هناك دماء؟

لـم تكـن هناك جـروح قطعيَّة، فقط خـدوش، لقد أنقذتـه البدلة "الميري" الثَّقيلة، وتمزَّقت نيابة عنه.

أي صوت مهيب، رائق، فتَّان، هذا الذي سَمِعه:

- خِفتَ من الموت؟

- خُفت من نياب الكلاب وضوافرها.. مِ الألم.

- لو جاءك الموت من غير ألم لن تَخَاف منه؟

- هاخاف منِّه برضُه.

- لِمَ؟

- فُرْقِة لَاحْباب و.. الدِّنيا حلوه برضُه.

- لقاء الله أحلى.

- أيوه.

- لِمَ تخاف الموت إذن وهو سبيلك للقاء الله الذي تحبُّه؟

لم يفكِّر "ياسر المبروك" في مثل هذا الأمر من قبل، فبدا السُّؤال مربكًا جدًّا.

"مين الرَّاجل دَهَه؟!".

- معارفشي! بس النَّاس كُلِّها بتخاف مِ الموت.

- فطرتهم تعلم أن الموت فناء ليس بعده حياة.. إنَّهم يخافون الفناء.

كانا قد بدآ في التحرُّك باتِّجاه الفرقة، وكان الخوف قد عاد يدب في قلب "ياسر"، فالرَّجل يتكلَّم بلهجة غريبة، ويمشي جواره وكأنَّه لا يمشي، لا يسمع له وقع أقدام، ولا يستشعر له وجودًا بشريًّا، كأنَّه سحابة، ثم جاءت كلمته الأخيرة مُريعة، كلمة كُفر.

- كِيف مافيش حياه بعد الموت؟! ربِّنا قال فِ القرآن انُّو فِيه بعث ونشور وحساب وعقاب!

- القرآن كتاب الأزمنة المتعاقبة.. يخاطب كلَّ قوم بفكر زمانهم.. وفكر زماننا يتواءم مع إرادة الله في أن يكون الإنسان خليفته.

- إيه يعني؟!

- تَقرَّب إلى الله بتحقيق إرادته.. كن خليفة لا يموت.

- البني "آدم" ما يقدرش يغلب الموت.

- بل استطاع.. هل كان بالإمكان تصوُّر أن النُّطفة المذرة.. التي تموت فور خروجها من الإنسان.. يُمكن أن تبقى محفوظة حيَّة لعشرات السِّنين؟

صمت "ياسر"، بينما واصل هذا الغريب:

- النُّطفة إعجاز الله.. ولقد قدَّم الإنسان بإبقائها حيَّة أول دلائل استحقاق الخلافة.. الأعمى لن يُبصر.. وعلى قلوب أقفالها.

- بتقول كلام أنا مِش فاهمه.. بس حاسُّه مُهم.

كانت قد لاحت مباني معسكر الفرقة، فتوقَّف هذا الإنسان الغريب عن الحركة، قال:

- آمِن بأن الإنسان سيُحقِّق خلوده.. حتَّى إذا مِت أحيوك عند التَّحقيق.

- كمان هايحيو الميِّتين؟!

- أحيا أخي "عيسى" الموتى.

- "عيسى" مين؟!

- "المسيح".

- دي معجزه إلهيه!

- المعجزات أحلام الإنسانيَّة وأهدافها.. لقد شُقَّت البحور.. وطار الحديد.. وتكلَّم الجماد.. وسيُحقِّق الإنسان خلوده.. فآمِن حتَّى لا تكون من الفانين أبدًا.

وبدأ الرَّجل يتحرَّك عائدًا، كانت عينا "ياسر" تعكسان استغرابًا لا حد له، لكنَّه زعق:

- مين انت يا عم؟!

توقَّف الرَّجل، ونظر باتِّجاه "ياسـر"، الـذي رأى في وجهه نورًا يشع بصفاء قمر يتسامى في المشارق، ما أكَّد له أنَّه في حضرة شبح، ربما شبح ليس له في الشَّر، لكن وجوده لا بد وأن يُرعد الجلد.

صفا صوته جدًّا وهو يقول:

- أنـا مُعظِّـم اللـه الـذي منحنـا الحيـاة.. ومُـذل الدَّاعيـن إلـى استعذاب المـوت.. منحني اللـه نبع الخلـود.. وأذن لي في سُـقيا المتنوِّريـن بالعقـل.. ووهبني قلبًا من حديد.. أقسـو به على كل مَن لا يؤمن بقدرته على الخلود.

ثم استدار، وسار كسحابة بيضاء في اتِّجاه الظَّلام العميق.

67

إنَّها تجري بأسرع ما يكون، فالطَّريق ناعمة، ومرتاحة، ومعتدلة، وفي الأفق بدت زرقة تتخلَّل بيوت القرى والنَّخيل التي تقترب لاهثة، إنَّها زرقة "النِّيل".

السُّرعة عالية لدرجة تسمح للأفق بالقفز من البعيد إلى مواجهة السيَّارة "الميكروباص"، بشكل خاطف، خاصَّة مع ميل الطَّريق ميلًا خفيفًا باتِّجاه "النِّيل"، فبدا بتمامه على يمين الركَّاب واسعًا، وممتدًّا، تسبح فيه بعض جزر صغيرة، يرعى البقر، والجاموس، حشائشها البريَّة.

مشهد بديع، يَفُك عقدة النَّفس الحزينة، ويتَّسع له الصَّدر الضَّيق، لكن ليس بإمكانه حل عقدة نفس ارتكب صاحبها جريمة قتل، كاملة، بقلب من حديد حطَّم بعنف كلَّ ضلوع صدره.

لم يكن "خميس" يرى "النِّيل" المُتلألئ تحت نور الشَّمس النَّاضجة، وإنَّما كان سارحًا في عتمة صحراء "العبور"، يستشعر ثقل جسد "نوال"، وقد حملها على كتفه، يضرب بها إلى ما بعد أبعد

نقطة يمكن أن يصل إليها عامل من عُمَّال انشاءات البِنَى التَّحتية للمدن الجديدة.

وصل إلى المكان المُراد، فألقاها على الرِّمال، ونظر حوله، لا أثر للحياة في الآفاق.

فتح حقيبته، أخرج عصا خشبيَّة غليظة، وشفرة "كوريك"، دقَّ العصا في فجوتها، فصارت مسحاة كاملة صالحة للحفر.

بدأ يحفر.

كانت "نوال" تستفيق، فاعتدلت جالسة، ونظرت إلى سحابات التُّراب، انتبه "خميس" لاستفاقتها فترك الحفر، واتَّجه إلى حقيبته، أخرج الحبل الذي كان قد قيَّدها به ليلة الفجيعة، وتقدَّم ناحيتها.

نظرت في عينيه، فلم تجد فيهما غير سواد.

أحكم وثاق يديها إلى قدميها، وتركها جالسة ترى قبرها وهو يُحفر لها، فتموت ميتة مع كل ضربة مسحاة تفج الرَّمل.

لم تفتح فمها بأي كلمة، ففي مثل هذه اللحظة لا فائدة من أي كلام؛ لأنَّه لم تُقطع كل هذه المسافات، ولم تُدبَّر كل هذه التَّدابير، لتنتهي باسترجاء يتبعه السَّماح، علمت أن هذا لن يكون.

فتح القبر أحضانه بالوَسَع، والعمق، اللازمين للضم، وحتَّى الانتهاء من هذه الخطوة ظلَّ "خميس" متحكِّمًا جدا في أعصابه،

لكـن، وهـو يتَّجه إلى حقيبته لاسـتخراج شـفرة الطُّوريـة لدقِّها في العصا، كي تصير أداة قتل فعَّالة، شعر بقلبه يغوص إلى بطنه، فوقف مكانه، رفع رأسه، وأخذ شهيقًا طويلًا من هواء دامس الحلك.

سَيقتُل.

سـيهدُّ جبالًا على وديانها، وسـيكب أنهارًا في سهولها، سيُطبق سـماءً على أرض، شمسٌ ستسقط، وقمرٌ لن يكون، ونجوم ستُطفأ، وظـلام كثيف طويل، سـينتزع حياة ويُلقمها فَمَ الموت، وسـتموت "نوال" التي أحبَّها كما لم يُحب امرأة من قبل.

ارتبك تمامًا وهو يضع العصا في فتحة رأس شفرة الطُّورية.

سمعها تهمس:

- أنا غلطت فِ حقَّك.. سامحني.

دفع كتفها بقدمه فأسـقطها على جنبها، وسحبها من ساقيها حتى حافة الحفرة، بينما كانت تهمس بصوت متوسِّل:

- سامحني قبل ما اموت.

رفـع الطُّورية إلـى أعلى ما أمكن لذراعيـه، كانت صفحة جانب رقبتها الأيسـر مزنوقة ما بين الرأس والكتف، وعليه أن يُسدِّد ضربة واحدة تخترق بها الشَّفرة هذه المسافة، بالغة الضِّيق، لتفصل بينهما إلى الأبد.

- سامحني.

صرخ:

- عاااااااااااا.

وجرى بعيدًا رافعًا فأسه، ترددت صرخته في الصحراء المفتوحة، ليس صدًى، وإنَّما هو من بقي يصرخ بجنون.

وكان الطَّائر المتوَّج بعشر ريشات خضراء، ويتدلَّى من أسفل منقاره، عند ابتداء الرقبة، شعر ناعم كأنَّه لحية، جسمه المسحوب لونه أبيض، وساقاه طويلتان صفراوان، يحلِّق في السَّماء المعتمة تحليق النَّسر، عندما رأى بعينيه حادَّتي الإبصار، هذا الرَّجل الذي يصرخ من قلبه، يعود مهرولًا إلى امرأة مُلقاة على الأرض تطلب الغفران من قلبها، رافعًا فأسه إلى أعلى مدى يسمح به ذراعاه، ثم يهوي به بكل قوة القهر الجبَّارة، فتنفذ الشَّفرة من المسافة الضَّيقة بين الرأس والجسم، فتفصلهما فصلًا نهائيًّا، مُحرِّرة الدَّم المخنوق من حبسه، فينطلق نحو الحرِّية بمنتهى الفُجر.

68

الأمَّة الإنسانيَّة تتقدَّم على سُلَّم الرُّقي بمنتهى الجدارة، لكن هذا لا يمنع أن الإنسان، كفرد، فُطِر على ارتكاب الحماقات.

و"سوسن" بنت شوارع، عمرها ما ملكت أربعة جدران تنام في حيازتها، ولا حتَّى استطاعت أن تستأجر فراغًا بينها، وغاية حُلمها جداران يصنعان زاوية تقيها برد الشِّتاء، أو تمنحها ظلًّا في صهد الصَّيف، سواء تحت كوبري، أو بالقرب من أي مسجد، وَتَود لو أن كلاب الشَّوارع لا تؤذيها، ورغم كل هذا البؤس تسعى إلى الحَبَل، لتجلب إلى هذا العالم بائسًا جديدًا.

الأنانية باسم الأمومة.

وبطنها كبر، وصارت تتساند على الجدران كثيرًا، وفقدت، منذ أن بدا حملها، كلَّ الهبات التي كان يمنحها لها زبائن المتعة الرَّخيصة، خاصَّة هبات سائقي موقف "أحمد حلمي"، الذين تحاشوها تمامًا، خشية أن تنسب منتج الخطيئة إلى أحدهم.

ورغـم أن واحدًا، مثل "أبو أميرة"، استغفر ربَّه مـن الزِّنى الذي أجرمه معها، وتاب من أوَّل مرَّة، إلَّا أن الأمر أزعجه جدًّا؛ لأن كلمة "هـا احبـل منَّك" التي قالتها "سوسـن" بصوت يُقطِّعه الشَّـخر، لا تـزال تُدوِّي جُوَّاه، لكنَّـه يُفقد هذه الكلمة مفعولها من القلق بمنتهى البساطة، عندما يهمس لنفسه:

"دي عاهره.. وتلاقيها بتقول نفس الكلمه لكل واحد معاها".

ومع أنَّه كان يُمكنه أن يسـأل "حوسا"، صاحبه، عمَّا إذا كانت قد قالت له هذه الكلمة أثناء إحدى معاشـراته لها، إلَّا أنَّه كان قد سـمع من أحد المشايخ، في إذاعة القرآن الكريم، أن القرآن طَالَب المؤمن ألَّا يسأل عن أشياء إن بدت له إجاباتها سوف تسؤه، ففضَّل أن يبقى مؤمنًا صالحًا، وألَّا يسأل.

وفي ليلة ظلماء...

هكذا البؤس مبدأه، غالبًا، الليالي الظَّلماء، كما أن الموت، لسبب مجهول، يهاجم ضحاياه، وهم في فرشهم، في الليالي الظَّلماء.

وحيدة، وفي زاوية من الزَّوايا المجهولة تحت كوبري "الأزهر"، والليل يستشـرف الفجر، وكل شيء نعسان عدا آلام طلقها، تتلوَّى، وتمـوء مثل قطة، وتشـعر بانسـلال الـرُّوح، وأنَّها أخطـأت في حق نفسـها، وأن أنوار أعمدة الإضاءة تخبو، والدُّنيا تغيم، وشـبح يتقدم ناحيتهـا متلصِّصًـا، ملامحـه ملامـح امـرأة، اقتـرب منهـا، والطَّلق

يُجبرهـا علـى أن تحزق، كان الشَّـبح لامرأة بالفعل، لـم تتمكَّن من رؤيـة تقاطيـع وجهها، كان ظلام الألـم قد خيَّم علـى عينيها، لكنَّها أحسَّت بالمرأة وهي تعمل بين فخذيها، تعمل بفهم ونشاط، وما إن أضاء غبش الفجر حتَّى سمعت صرخة وليدها.

- بســم الله ما شـاء اللـه.. ولد زيّ القمر يـا امُّ الرِّجال.. رضَّعيه وشبَّعيه.

اختفـت المـرأة اختفاء الأشـباح، بينمـا راحت "سوسـن" تفتح حدقتيهـا على آخرهما، تتأمَّل جمال الولد البازغ رغم وهن الضوء، وتفكِّر بِمَ تسـميه، وانتبهت إلى هذه الدَّكنة التي تسـرَّبت من أسـفل إبطه فرفعت ذراعه، ورأت وحمة في حجم حبة التين، فابتسمت.

وكان النُّور يملأ المكان عندما شعرت بوليدها يترك حلمة ثديها ويغطس فـي الإغفاء، فوضعتـه بجوارها، وأحسَّـت بالرَّاحة تلفُّها، وجسدها يهمد ويريد النَّوم، فنامت.

وعندمـا فتحت عينيها، وحياة الضُّحـى ذاخرة، فوجئت بالخواء لصيقًـا بهـا، ولا أثـر لوليدها، ليكشـف لها نور الصَّبـاح عن جريمة جديدة من جرائم الليالي الظَّلماء.

كان الخلاص ملقًى بجوارها، وبقع من دماء أسفل منها، ولا أي مواليد بجوارها.

69

صـوت آلـة تنبيه، قادم من الخلـف، متقطِّع بمـرح، ردَّ عليه "أبو أميرة" بكلاكس راقص، قبل أن تتخطَّاه سيارة "ميكروباص" منطلقة كالبرق.

الشَّـمس في الظَّهيرة، وشـجرة عملاقة واقفة بإباء، منغرسـة في ضفـاف "النِّيـل" ولا تميل نحوه، تبعد عن حافَّـة الطَّريق بما يتجاوز الأمتار السِّتة، تدنو مع الأفق بسرعة السيَّارة.

ما حدث كان خارقًا، يمزِّق الأفهام البشريَّة، فلا تستطيع احتواءه، ولقد رآه كل من "أبو أميرة"، والشَّيخ "غريب"، والقسِّيس، بوضوح، ليس لسببٍ غير أنَّهم يجلسـون في المقدِّمة، وعيونهم تكشـف كل مـا هـو في مواجهة السـيَّارة، فمـا كان منهـم إلَّا أن فتحـوا أفواههم وأعينهـم، ترتعـش شـفاههم، وأجفانهم، علـى دقَّـات قلوبهم التي ضجَّت بالفـزع، غير أن "أبو أميرة"، المعتـاد على مفاجآت الطُّرق، بِحُكم مهنته كسائق "ميكروباص"، هو الذي استطاع أن يزعق:

- يا ستَّار استر.

لقد حادت السيَّارة، فجأة، إلى أقصى يمين الطَّريق، قبل أن تطير في الهواء، متَّجهة إلى جذع الشَّجرة، ليرتطم جانبها الأيمن بحافَّة هذا الجذع الغليظ، وتكمل طيرانها نحو "النِّيل" وقد انحرفت، بسبب قوَّة الارتطام، لتتَّجه إلى المياه بمؤخِّرتها، فتُحطِّم الموجات الصَّغيرة تحطيمًا بشعًا، قبل أن تشق المياه شقًّا مهولًا، وتأخذ طريقها نحو الغرق.

وقبل أن تعود القوافل الجديدة من الأمواج الصَّغيرة للمرح على سطح هذا الجزء من "النِّيل"، التمعت أشعَّة الشَّمس على صاج واجهتها الأبيض، والإطار الفضِّي، وخط الدُّوكو البرتقالي، الذي يوازي حدَّها الأسفل، وكشَّافاتها.

في هذه اللحظة الأخيرة، وقبل أن تصير حوافُّها تحت مستوى سطح النَّهر، فتتحوَّل إلى إناء كبير، تندلق فيه المياه بقوة فيضان لتتعبَّأ به، وتثقل، ثم تغوص، لتختفي اختفاءً تامًّا، التمعت لوحتها المروريَّة بأرقام تشابكت، بسبب طرطشة المياه العائدة للسُّقوط في النَّهر، إثر انبثاقها منه نتيجة الاصطدام، لكن كانت كلمة "أجرة أسيوط" واضحة تمامًا.

﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِين﴾

كانت واضحة أيضًا.

ورغـم هول مـا جرى أمامه، أفلح "أبو أميـرة" في أن يتمكَّن من السَّـيطرة على سيَّارته بضغطات خفيفة متتالية على دوَّاسة مكبحها حتَّى توقَّفت، بالضَّبط، أمام جذع الشَّـجرة العملاقة، حيث السـيَّارة المنكوبة لـم تكن قد غرقت بالكامل بعد، وخلال هذا لم يتوقَّف عن الزعيق:

- يا ستَّار استر.

كان صـوت ارتطام السـيَّارة بهذا الجذع مروِّعًـا، حتَّى إن جميع مَن في السـيَّارة رفعوا رؤوسـهم انتباهًا، من مفاجـأة الصَّوت النَّاتج عن الارتطام، لذلك لم يكن غريبًا هذا التوقُّف المرتبك.

نظر "رشيد" إلى "زياد" وقال بهدوء:

- هُوَّ في إيه؟!

- مش عارف.. تلاقي عجلة ضربت منُّه..

يعوي "أبو أميرة" وهو ينزل من السيَّارة:

- يا حول الله يارب! خمستاشر نَفَر يروحو فِ غمضة عين!؟

كان هـذا الـكلام مباغتًا لبقية الـركَّاب، الذين لم يـروا الحادث، وفـور نزول الشَّـيخ، والقسِّـيس، خلـف "أبو أميـرة"، توالـى نزول البعض، وبقي "حميد المِجَري" جالسًا بجوار "صُنع الله"، الذي لم يرفع رأسـه حتَّى هذه اللحظـة، و"خميس"، وكذلك بائعة المناديل،

وطفلهـا الذي لـم يكف، ولو لدقيقة واحـدة، عن الحركة والتَّنطيط، و"رشـيد" الـذي عـاد للاسـتغراق بصـورة "زينـب" فـي جريدتـه المتهالكة.

لـو أن هذه الحقائب، المبعثرة بين حشـائش ضفَّة النَّهر، لم تكن موجـودة، وهـذه الشَّـظايا، مـن الزُّجاج، لـم تكن تبرق في مسـاحة واسعة بين الشَّجرة و"النِّيل" والطَّريق، ما كان لأحد أن يصدِّق وقوع حادث رهيب منذ ثوانٍ، وأن كتلة بشريَّة فاعلة في تصاريف الدُّنيا قد اختفت بسرعة لمحة، وبسهولة همسة.

هتف العرِّيف مجنَّد "ياسـر مبروك"، وهو يشير بيده إلى أحراش الضَّفة:

- إلحقوا..

حيَّـة مهولـة الحجـم، تنسـاب بسـرعة فـي اتِّجـاه النَّهر، شـلَّت ضخامتها عقول النَّاظرين، فوقفوا يحملقون ناحيتها وهي تختفي.

غير أن صرخة مخطوفة، أطلقتها "سوسـن"، أضفت بُعدًا عميقًا للخـوف الذي ضرب القلـوب، لتتحوَّل إليها الأنظار بسـرعة صقر خطَّاف.

اتَّضح سـبب صرخة "سوسـن"، فهتف "أبو أميـرة" بكل ما يكنُّه للدُّنيا، في هذه اللحظة، من ضيق:

- يا شيخه ارحمي دين أبوي.. هِيَّا نقصاكي انتي كماني!؟

زعقت محتدَّة:

- ما لك؟! في إيه؟!

الرَّجل المحترم لا يرد على امرأة غاضبة، حتَّى لو شتمته، فصمت "أبو أميرة"، لكنَّه قال في نفسه:

"أقطعِ دْراعي ان ما كانت هِيَّ سوسن".

ونفخ قبل أن يستدرك التَّفكير:

"بس برضه مش متأكِّد قوي"

واصل الهمس لنفسه، وهو يُدير رأسه نحو المكان الذي اختفت فيه الحيَّة العملاقة:

"لـو سوسـن كات جـات قعـدت علـى حجـري.. دي مَـرَه ما تِختِشِيش".

كان الارتطام عنيفًا درجة أنَّه دمَّر جزءًا من لحاء الجذع الضَّخم، فبدا وكأن أسـنانًا عملاقة قد قضمته، كما أدَّى إلى ارتعاش الشَّـجرة كلِّهـا، فسـقطت أعشـاش عديـدة للعصافيـر، بعضهـا كان عَمرانًـا بأفرخهـا، منها ما نبت له ريش، ومنها الصَّغير جدًّا حد العري، مات بعضها من عنف اصطدامه بالأرض، وكان سـبب صرخة "سوسن"

أن أحدها لقي مصرعه، منفجرًا، تحت ضغط حذائها.

قال "زياد"، وقد اقترب من القسِّيس الواقف ينظر إلى البقعة التي غرقت فيها السيَّارة مبهوتًا:

- هُوَّ إيه اللي حصل؟!

نظر القسِّيس إلى "زياد" بوجه ممتقع، سطع اصفراره، وهمس:

- ولا حاجه! العربيَّه كانت ماشيه قدَّامنا زي الفل.. فجأه كَسَرت يمين جَامد.. كإنَّها بِتْفَادي حَد.. طِلْعِت بأه مِ الطَّريق.. وخبطت فِ الشَّجره دي.. ونِزْلِت البحر...

ثم صمت، قليلًا، قبل أن يقول:

- متهيَّأ لي شُفت فيها قسِّيس!

عرضًا، جاء صوت الشَّيخ "غريب"، الواقف بحذاء "النِّيل" يكاد الماء يخبط قدميه، عاليًا:

- وحياة عزِّة جلال الله أنا شُفت فيها شيخ شبهي.. تُقولوش انا بشحمه ولحمه؟! وقاعد جَمْب الشُّباك من قدَّام.. زي قعدتي بالظبط.. وغرقان دم!

أُخذ القسِّيس بِزيادة.

لكن "أبو أميرة" قهقه، وهو يضرب كفًّا بكف، وقال:

- ماشفتوش "أبو أميره" قاعد جَمْبِيكُم؟!

ثم قطع قهقهته، فلقد تذكَّر أنَّه لاحظ التَّشـابه الكبير، بين سيَّارته وهذه السيَّارة المنكوبة، عندما تخطَّته. الإطاران البرتقالي والفضِّي، حتَّى نفس الجملة مكتوبة أسفل الزُّجاج الخلفي.

"حلوه صلاة النَّبي".

استدرك، بصوت ذاهل، وهو يتوجَّه إلى السيَّارة:

- ياللا يا عرب اركبوا خَلُّونا نِتِّكل على الله.

كان "زيـاد" يُنقِّـل نظره بيـن الحقائـب واللفائف المبعثـرة، لقد اختفى أصحابها، وبقيت هي جثثًا بديلة، قنصها الموت.

قال "زياد":

- نمشي ونسيب النَّاس اللي غرقت دي كدا؟!

قال "أبو أميرة"، ساخرًا بمرارة، وهو يفتح الباب:

- لَهْ.. نِقْلَعو ونِنْزِلو نْطَلَّعُوهم.

واصل كلامه:

- احنا ما بْيَدِّيناش حاجه نعملوها غير ان احنا نُقرولهُم الفاتحه.. ونُدعولهُم ربِّنا يبشـبش الطُّوبه اللي تحـت رُوصَانهُم.. ياللا يا بوي خلِّينا نشوفو مصالحنا.

وبينما يهم "أبو أميرة" بركوب السيَّارة انتبه إلى العمامة الخضراء المنكَّسة على الذِّراعين المتعلِّقين بمسند الكرسي الأمامي، فعادت الرَّاحة إلى قلبه، ونظر إلى "حميد المِجَري" وقال:

- حتَّى وهُوَّ نايم ماشيين ببركته.. شي لله يا اهل البيت.

لم يُبدِ "المِجَري" أي رد فعل حيال كلام "أبو أميرة"، فلقد كان غائرًا بفكره فيما جرى أمامه منذ دقائق وقد تملَّكه الفزع.

إنَّه يستعيد لحظة مرور "الميكروباص"، المنكوب، متجاوزًا سيَّارتهم.

"كلاكس متقطِّع، الميكروباص يمرق عن يسارهم، يلمحه، يلفت نظره وجه ينظر إليه من خلف زجاجه، وجه يُشبه وجهه، وصاحبه يجلس "هناك" في نفس الموقع الذي يجلس فيه هو "هنا"، إنَّه يشبهه تمامًا، نظر إليه وابتسم، ثم لوَّح له ببلاهة، كأنَّ بينهما معرفة سابقة".

همس "المِجَري" لنفسه:

"دا زَي ما يكون انا!".

كان القسِّيس يحاول ركوب السيَّارة، رِجل قُدَّام ورِجل وراء، كأنَّه مُسيَّر بقوى غير مرئيَّة تدفعه إلى الرُّكوب على غير رغبة منه،

وكان الشَّـيخ "غريب" كذلك، ينتظر أن يسـتكمل القسِّيس صعوده، بينما العرق يَشُر منه، وجلد جبهته يرتعد.

فوجئ الشَّـيخ "غريب" بالقسِّيس، وهو لم يزل أمام الباب، ينظر إليه بعينين خائفتين، ثم يهمس له:

- أنـا مِـش مرتاح للرَّاجل ابـو عمَّه خضرا اللي قاعـد ورانا ده.. حاسُّه مش طبيعي.

كلمة القسِّيس أراحت الشَّيخ، مع أنَّها أدهشته، لكنَّه ساق المكر، وقال:

- مِش طبيعي كِيف يعني؟!

للحظة شعر القسِّيس بأنَّه قد وقع في مأزق، فلن يفهم أحد سبب قلقه، فأراد أن يغلق ما فتحه، فقال:

- أبدًا.. ما نزلش مِ العربيه يشوف اللي حصل.

- طب ما هو في ناس تانيين مانزلوش برضه!

وخشي الشَّيخ "غريب" من أن ينهي القسِّيس الكلام، فقال:

- بس انا برضه مش مرتاحله زيَّك.

انشرح قلب القسِّيس بعض الشيء، لكنَّه تغابى:

- وانت مش مرتاحله ليه؟

الشَّـيخ "غريب" شـعر بأنَّه تعرقل في مطب، فمن أين للقسِّـيس إدراك حال هذا المفتري المجنون؟

- قلب المؤمن دليله يا ابونا.

ضغط القسِّيس:

- طيب قلبك بيقولَّك إيه؟

- أنـا قلبـي لِعب فيه الفار من أوَّل ما السَّـواق قـال انُّو في واحد بعمِّه خضرا كان راكب على اكصدام التِّريلّه اللي كنَّا حانلبس فيها.. وبعد كده ألاقيه راكب فِ العربيِّه ورانا.

ارتفع صوت "أبو أميرة":

- ياللا يا مولانا.. يا ابونا.

رفع الشَّيخ "غريب" صوته مخاطبًا "أبو أميرة":

- ما النَّاس بتركب لسَّـه أهه.. رجلينا اتكسَّـرت من طول القعده وصدَّقنا ما فرطناها.. اصبر حتِّه.. الدِّنيا مَطَاريتشي.

مال القسِّيس أكثر باتِّجاه الشَّيخ "غريب"، وهمس:

- الشِّيطان دا وَرَا كل اللي بيحصل لغاية دلوقتي.

الشَّيخ تصنَّع الدَّهشة، وهمس:

- شِيطان!؟

أكد القسِّيس:

- أيوا شِيطان.

همس الشَّيخ محتارًا:

- شِيطان كِيف وهو بيقرا قرآن؟!

دفع القسِّيس نحو الشَّيخ قطيعًا من ثعالب المكر، وهمس:

- وامتى قرالك قرآن؟!

بوغت الشَّيخ "غريب" بهجوم الثَّعالب، فقال متلجلجًا:

- مش مسلم!؟ يُقْبا لازم بيقرا قرآن.

قال القسِّيس:

- علـى فكره يا مولانا.. أوسـخ أنواع الشَّـياطين هـيَّ اللي بتقرا قرآن دي.

أُلجم الشَّيخ "غريب"، واستدرك القسِّيس:

- انت تِعرِف إن الشِّيطان كمان أَلِّف في القرآن.

زَغَر الشَّـيخ بعينيه للقسِّـيس، وخـرج كلامه مطحونًـا من تحت الضُّروس:

- أَلَّف فِ القرآن كِيف يعني؟

- هُـوَّ قـال لربِّنـا ﴿خَلقْتَنِي مِنْ نَـارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِيـنٍ﴾ راح ربِّنا نزلها فِ القرآن زي ما قالها.

قرَّر الشَّـيخ "رجب" أن يُطلق على القسِّـيس مليـون ثعلب ماكر دفعة واحدة، فقال:

- يـا خَا جَات على ديْ! دا انا سـمعت ان ابن الواطي خد ربِّنا عَ الجبل وامتحنه، وورقة الامتحان كلَّها نزلت بالمسـطرة فِ الإنجيل بتاعكم.

تنحنح القسِّيس، وعاد بالموضوع إلى بدئه:

- لـو الشِّـيطان دا فضل معانا يـا مولانا هيموِّتنا كلِّنا.. أنا شُـفت نفسي فِ العربيَّه اللي غرقت من شويَّه دي!

- والعمل؟

- هاقولَّك.

قال "أبو أميرة" لنفسه:

"وافرض طِلعِت سوسن! مالك بيها؟! ما انت توبت خلاص.. ويمكـن الذَّنـب اللي عملتـه معاها يكون هُوَّ سـبب عـدم الخلفه.. استغفر الله العظيم".

وزعق:

- يا خوانَّا اعملولكم همَّه شويِّه.

كلَّم نفسه:

"العربيَّه الغرقانه شَبَه وَاكلَه صحابها أم وش فقر دي"

كان "زياد" ينحني ليتمكَّن من دخول السيَّارة، عبر بابها الجانبي الجرَّار، فاصطدمت عيناه بالعمامة الخضراء، ولفرط ذهوله توقَّف للحظة عن الحركة، قبل أن يواصل صعوده بعينين غائمتين.

"إيه الواقعية الغرائبيَّة العجائبيَّة بنت الوسخه دي؟!".

جلست "سوسن" في مكانها، كان الطِّفل كلما حاول النَّظر إليها دفعت المرأة برأسه إلى بعيد، فيزداد شططه، متحولًا عن ضجيج المرح إلى قلق الإزعاج، لا شك، أبدًا، في قلب "سوسن" أن الولد هو ابنها، كما أنَّه لا شك، أبدًا، في أنَّها ستستعيده فور نزولها في "أسيوط"، لا بد أن يعرف "أبو أميرة" أن هذا الولد هو ابنه أيضًا.

همس صوتها لنفسها:

"افرض نكَرِك ونكَر ابنه؟".

خَاطِرُها أجابها، على الفور، ليطمئن بالها:

" افضحيه فِ موقِف أسـيوط.. وخُدِيه عَ القسم.. والكشوفات هاتثبت ان الولد ابنه.. وإذا ماكنش هُوَّ عايزه.. أنا بَأَه عايزاه".

أُغلـق الباب، وعندما زأر محرِّك السـيَّارة، "الميكروباص"، رقم "345678، أجـرة أسـيوط"، وتحرَّكت لتسـتلم طريقهـا، كان حدث عجيب يجري في عمق النَّهر.

70

جزء بارز من قاع "النِّيل" ساهم في أن تحافظ السيَّارة المنكوبة، على وضع الكُوب، حيث مؤخِّرتها مرتكزة في الطِّين، ومقدِّمتها، التي تهشَّم جانبها الأيمن، مرفوعة إلى أعلى.

وضع غريب.

لكن المشهد، بالدَّاخل، أشد غرابة.

فعندما انقشعت المياه الملوَّنة بالدِّماء، بدت جثَّة لشيخ أزهري، يجلس على الأريكة الأماميَّة، بجوار النَّافذة، تكاد تكون مشوَّهة تمامًا، هصرها تطبُّق صاج واجهة السيَّارة، سقطت طربوشته الحمراء بلفافتها البيضاء على حجره، وانحشرت هناك، فبدا الرَّأس واضحًا، رغم أن الزُّجاج شرَّح صدغيه، ما دلَّى شفته السُّفلى إثر التمزُّق، فظهر مبتسمًا، كأنَّه اطَّلع على الحور العين، عيناه مفتوحتان باندهاش، ما زالتا تتابعان الجمال الذي ما له وصف.

بجوار جثَّة الشَّيخ الأزهري، والكتف قد التصقت بالكتف، جثَّة قسِّيس، في قمَّة رأسه صلعة مدوَّرة، نال تطبُّق صاج السيَّارة من جانبه الأيمن، بحيث أن شرخة حديد، اتَّخذت شكل نصل خنجر، اخترقت كبده وثبَّتته في مسند الأريكة، ونِتف الزُّجاج ثقبت عينيه، فأفرغتهما من مائهما، ليبدو مسبلًا عينيه، خاشعًا باطمئنان أمام رب الدينونة.

أمَّا السَّائق، فقد مالت عجلة القيادة، قليلًا وحشرت صدره، لم تكن هناك أيَّة خدوش بوجهه الدَّميم، بل ظهر لامعًا، ولقد انفرطت عمامته، وتدلَّت أسفل رقبته، لكن بقي جزء منها على رأسه، و..

وارتكزت، في حِجره، رأس طفل ربما تجاوز عمره العامين بقليل، رأس فيه عينان ذاهلتان، ورقبة تمزَّقت مثل رقبة عصفور قنصته عرسة.

ثمَّة جثَّة في الأريكة التي تلي أريكة كابينة القيادة، بدا من سِمَنها أنَّها لرجل فخم، رجل لا يليق به أن يسافر في عربيات "الميكروباص"، كان وجهه مائلًا ناحية اليسار، بملامح شرسة، وقد فتح فمه كأنَّه يسعى إلى قضم رقبة أحد ما يجلس في يساره، إنسان ليس له

وجود، بينمـا، في الطرف الآخر من الأريكـة، انجعصت جثَّة رجل وقد ارتمى رأسه في الزَّاوية، مابين مسند الكرسي وهيكل السيَّارة.

أنتـج الاصطدام المهول انحرافًا حادًّا، مفاجئًا، لاتِّجاه السـيَّارة، ظهرت معطياته القاسية على جثث النِّصف الخلفي منها.

لقـد طارت جثَّة رجل نحيف، لـه وجه يحمل ملامح ثعلب، من منتصف السـيَّارة، وارتمت فوق جثَّة لشـاب مجنَّـد، يرتدي ملابس "الميـري"، يجلس فـي طرف الأريكة الأخيرة، وبـدت ذراعا جثَّة ثعلبـي الوجه، وهما تحيطـان برقبة جثَّة المجنَّد، وكأنَّهما تشـرعان في خنقه.

جثَّة أخرى لشـاب أمهق، اندلقت إلى الأمام، منكفئة برأسها بين مسـند أريكة مقابلة ومقعـد الأريكة التي تليها، بحيـث صار الرَّأس محاذيًا لرأس جثَّة امرأة شـعرها أبيض، لم يمنع تشبُّعه بالماء تصوُّر أنَّه كان مهوَّشًا، وكانت جثَّة هذه المرأة هي الوحيدة التي برز ساقاها مـن النَّافـذة، ليتدحـرج ذيـل جلبابها كاشـفًا عـن سـاقين مرمريَّتين شـهيَّتين، وطاقيَّة القسِّـيس السَّـوداء ملقـاة على أرضية السـيَّارة في مواجهة رأسي هاتين الجثَّتين بالتَّحديد.

وفـي الرُّكـن الأخير من السـيَّارة، جثَّـة لرجل ارتمى رأسـه إلى الـوراء، جاحظة عينـاه، فاتحًا فمه، يده الشِّـمال تقبض على أطراف جريدة هلهلها الماء، وأخذ يرقِّص أطرافها، بينما ذراعه الآخر يحيط بكتفي جثَّة سيِّدة شـابَّة، ذراعاها عريانان، وقد برز ثديها الأيمن من شـق في ملابسـها، منكفئـة إلى الأمـام، تحتضن بحنـان جثَّة، بدون رأس، لطفل صغير ربما عبر العامين بقليل، كأنَّها تريد أن تُرضعه.

نـور الشَّـمس يصـل خافتًا إلى هـذا العمق مـن "النِّيـل"، ورغم أن أسـماك "البلطـي"، و"القراميـط"، صارت تُطوِّف حول السـيَّارة الغارقـة، رُغم أن هناك ثعابين ماء تزحف بين النَّباتات التي نبتت في القاع، رُغم أن الحياة تعمل، إلَّا أن الجثث الآدميَّة أضفت موتًا على ما حولها، وحتَّى هذه البالونة الملوَّنة بالأحمر الممزوج بسـحابات بيضـاء، والتـي يدفعهـا ضغط الهـواء بداخلهـا للتنقُّل بيـن رؤوس الجثث، مشـدودة إلـى أعلى بقانون الطَّفـو، لا يمكنها أن تمنح هذا المشهد ولو ذرَّة مرح وحيدة.

71

صمت.

وجوم.

احتكاك عجلات السَّيارة بالأسفلت، واختراق هيكلها للهواء، وهدير محرِّكها، عوامل تنتج بداخلها دويًّا مكتومًا لا ينتهي، يشيع حالة من الزَّهق، حتَّى إن الطِّفل، الذي كان شطَطه يصنع ضجيجًا منبِّهًا للأرواح، أراح رأسه الصَّغير إلى كتف المرأة، وقد أخذ جفناه سبيلهما نحو الانغلاق.

"أبو أميرة" يُحدِّق في الطَّريق الذي لا تبدو له نهاية، وللحظة هزَّ رأسه، والاستغراب يلعب في عينيه، ثم قطع الصَّمت بصوت مصمصة شفتين متعجِّبتين، قبل أن يقول:

- سبحان الله.. كان ماشي زي الفُل.. مرَّة واحده يِكسِر شمال.. ومن غير سبب!

قال الرَّجل الذي يجلس خلفه:

- يمكن تكون عينيه سهيت ونام.

بنبرة خبير قال "أبو أميرة":

- لَـهْ لَـهْ لَهْ.. عُمر السَّـواق ما تاخده نومه تخلِّيـه يحدف الحدفه الواعره دي.. دا كسـر شـمال زي ما يكون بيفادي حاجه مش عاوز يصدمها، زي ما انا فاديت التِّريلِّه من شويِّه.

قال الرَّجل:

- بس احنا يعني بفضل الله معانا سوَّاق.....

قاطعـه "أبو أميرة" بصوت مبتهـج وهو يخطف نظرة، عبر المرآة الأماميَّة، للعمامة الخضراء المنكَّسة:

- إحنـا بفضل الله معانا أوليات اللـه الصَّالحون.. من غيره كان حايحصلِّنا اللي حصل مع العربيَّه اللي غرقت دي.

كان الشَّيخ "غريب" قد سرح يفكِّر في إمكانيَّة أن يتدخَّل الشَّيطان فعلًا في كتابة الكتب المقدَّسة، لو لا تدخُّله ما فسدت "التوراة"، ولا حُرِّف "الإنجيل".

وهمس في نفسه:

- ويمكن يكون هُوَّ اللي قايل حكاية "هَيْتَ لَك" فِـ "القرآن"!

"أستغفر الله العظيـم.. الله يخرب بيت اليـوم اللي رحت فيه عندك يا جَمَل".

في هذه اللحظة مال القسِّيس ناحية الشَّيخ "غريب"، وهمس:

- لازم نخلص مِ الشِّيطان اللي قاعد ورانا ده.. دا مستقصدنا انا وانت عشان بتوع ربنا.

زَغَر له الشَّيخ "غريب"، وقال بصوت مقطوع:

- نخلصو مِنُّه ازَّاي وهُوَّ بيعمل حركات خارقه تقولش الرَّجل الأخضر؟!

ابتسم القسِّيس بلؤم:

- انت بتتفرَّج عَ الرَّجل الأخضر؟!

لملم الشَّيخ نفسه خجلًا، وقال:

- أها لما تكون البطَّاريِّه مشحونه العيال بيشغِّلو التَّلفَزيون و..

وقطع كلامه وهمس محتدًّا:

- المهم كِيف نخلصو مِ الدَّاهيه دي وهُوَّ جبَّار جبروت؟!

- بُص يا مولانا.. الشِّيطان اللي قاعد دا وهم.. جاي عشان يشكِّكنا ف عظمة ربِّنا.. بني آدم إيه دا كمان اللي يقدر يغلب الموت؟!

- قولتله البني آدم بتزنقُه فَسْيِه.. رَزَعني كف ابن..

حسَّس القسِّيس على صدغه وتأوَّه، فهمس له الشَّيخ:

- هُوَّ رَزَعك كف انت كَمَاني؟ طب يُقْبا وهم كِيف عاد؟!

خفَّض صوته أكثر، واستدرك:

- دا السَّواق بيقولَّك شافه على اكصدام التِّرِيلِّه! وبعد كدِه وهم كِيف وهُوَّا أها قاعد ورانا؟!

- أنا اقولَّك.. لمَّا أُغمى عليَّ فِ الصَّحرا.. فُوقت لقيت العرب اللي كانوا معايا واقفين فوق راسي.. قعدت اصرخ واقولُّهم الكنيسه راحت فين؟ وهُمَّا يضحكوا عليَّ ويقولولي عفاريت الصَّحرا لعبت بيك يا ابونا.. وصمَّمت ما اقعدش فِ الصَّحرا ولا يوم تاني.. ورجعت.. قلبي مِش حِمل أوهام زي دي.

- والله حديتَك يمكن يُقْبا صُح.. أنا ماعارفش ادَّليت م النَّخله كِيف! أنا بافتح عينيِّه لقيتني عَ الأرض.. والدِّنيا قِيَّاله هُسْ هُسْ.. بس لو وهم كنت لقيت الكِياس بتاعتي.. ابن المره الهرمه اللي كان راكب الحمار خدهم.

- ولا خدهم ولا حاجه.. إنت تلاقيك م الدُّوخه والخوف مشيت بسرعه من غير ما تفتكرهم أصلًا.. فاتهيَّأ لك انَّك دوَّرت عليهم وما شفتهومش.

- والله يجوز.. الدِّماغ لمَّا تلف حال الواحد بِيِتْشَنْدَل.. طب والعمل؟

- إحنا نوقَّف العربيَّه وننزله.

احتد الشَّيخ هامسًا:

- انت عاوز تودِّينا فِ داهيه يا بونا!

- ما قولنا دا وهم يا مولانا.

- طب احنا قلقانين من وهم ليه؟! سيبه قاعد.

- إزَّاي؟! مِش الواحد لو ركبه وهم ممكن يتعبه.. ويموِّته كمان؟

- أيوه.

- والعلاج انِّو نِخلص مِ الوهم دا؟

- أيوه.

- خلاص.. لازم نخلص مِ الوهم دا وننزله مِ العربيَّه.

فجأة ارتعد جلداهما، فلقد مزقت الهدوء صرخة الطِّفل، صرخة حادة كأن أسنان منشار تأكل رقبته، وأخذ يتقافز على رجلي المرأة، وتوجَّع قلب "سوسن"، وكادت تخطفه من المرأة لتهدِّئه، بينما المرأة تحاول إسكاته، فمالت إلى كيس أسفل قدميها وأخرجت منه بسكوتة وقدَّمتها له فضربها بكفه ففتتها، حاولت احتواءه في حضنها، لكن جنون غضبه زاد، فمالت المرأة، مرَّة أخرى، ناحية

كيسـها، وأخرجـت منـه بالونة لمَّـا رآها الولـد هدأ صراخـه قليلًا، وأخـذ يتابعهـا وهي تكبر بفعل فم المرأة الـذي أخذ ينفخها بهدوء، فصيحـات الولـد آخـذة إلى الخمـود، كما أنَّـه مدَّ يـده يداعب هذه السُّحب البيضاء الممزوجة باللون الأحمر.

ولـم يكن العرِّيف مجنَّد "ياسر المبروك" محتاجًا لصرخات هذا الطِّفـل كي ينمو عنده إحسـاس الصَّدمة الذي لسـعه حتَّى الوجوم، فقط هـذا الصُّـراخ دفعه للكلام مـع الأمهق الذي يجلـس بجواره، قال:

- أوَّل مرَّة أشوف حَيه بالحجم دِه.

نظر "زياد" طويلًا ناحية "ياسر"، قبل أن يقول:

- على فكره.. أنا مُش باطيق عساكر الجيش.. اختلفت مع واحد منهم وكانت طريقة تعبيره همجيَّه جدًّا.

لكنَّه هزَّ رأسه، وواصل كلامه بنبرة آيسة:

- عمومًا.. يا ريتها تيجي عَ التِّعبان.. ما كانتش تبقى مشكله.

بدا القلق أكثر على وجه "ياسر":

- كِيف يعني؟!

بحلق "زياد" في عيـني "ياسـر"، صمت قليـلًا، كأنَّه يزن كلامه، قبل أن يقول:

- العربيَّه دي هاتعمل حادثه وكلِّنا هانموت فيها.

صمت "ياسر" مذهولًا، فما سمعه يفوق في رعبه رعب رؤية أفعى، ليس أرعب من رؤية الموت نفسه، وتمنَّى في هذه اللحظة لو أن الإنسان قد توصَّل إلى الخلود فعلًا، كما أخبره هذا الشَّبح الغريب الذي التقاه في الصَّحراء.

همس بوجه ممتقع:

- إنت متأكد قوي كدا ليه يا كابتن؟

أشار بسبابته إلى الأمام، حيث العمامة الخضراء تبدو بارزة بين الرؤوس لمن يدقِّق النَّظر، فرأى "ياسر" ما روى ذهوله بالهلع، عمامة الشَّبح الخضراء.

همس بصوت شاحب:

- ما له طيِّب؟!

اندهش "زياد" للهلع الذي تفجَّر من مسام وجه "ياسر" عند رؤيته للعمامة:

- وانت خُفت كدا ليه لما شفت العمَّه دي؟!

- أصلها شبه عمَّه كان لابسها واحد غريب قابلني فِ الصَّحرا وانا ماشي بالليل رايح على الفرقه.

استدرك:

- وقعد يكلِّمني عن الموت.. وان الإنسان هايغلب الموت.. وما فيش آخره.. وكلام فاضي كده.

كان الدَّور على "زياد" في فتح عينيه مندهشًا، وهمس:

- دا طوَّاف بأه؟! يمكن دا السِّر انِّي ما عودتش باشوفه تحت "استراند" الأيام اللي فاتت دي؟

ورفع صوته كي يسمع "ياسر":

- وانا كمان قابلته.. وكلِّمني كلام غريب كدا.. موزون.. بس ما يدخلش عقل برضه.. يعني إيه النَّاس تفضل عايشه وما تموتش أبدًا؟ نفضل بأه فِ الهم دا على طول.. بيقولك الإنسان لما يوصل للخلود هايرتقي آل ومش هايرتكب الجريمه! دا الجريمه مكوِّن أساسي من مكونات الخلايا ف دمُّه.. وها تفضل تحكمنا القوانين.. ويزيد طغيان الماديَّات.. ونفضل بأه ماشيين عَ الخط المستقيم والقلق بيحرق دمِّنا.

كان عقل "المِجَري" يعمل كالطَّاحون، يحاول إيجاد علاقة بين "الميكروباص" الغارق، الذي رأى شبيهه فيه ينظر إليه مبتسمًا، ويلوح له ببلاهة، وما يمكن أن يجري للسيارة التي تخترق الطريق بهم.

لقد وصل عقله إلى مدار الشَّتات منذ بضعة أيام، عندما قال له "شبانة" إن خلودًا يصنعه البشر هو خلود مقيت، وإن الإنسان لا بد من أن يعود إلى تراب، كي يعجنه الله من جديد طينة نظيفة، هزَّ هذا الكلام قواعد قناعته الجديدة، تلك التي وضعها النَّبي "صُنع الله" في عقله، لذلك كان من الحتمي أن يعرِّج على غرفته لاستيضاح هذه القناعة على ضوء ما قاله "شبانة"، وعندما فعل، لم يجد "صُنع الله" في غرفته.

كانت هذه أوَّل مرَّة يُغادر الغرفة منذ أن سكن فيها قبل خمسة عشر يومًا.

والغرفة غارقة في التُّراب وكأنَّها مهجورة منذ أشهر مضت.

"يكون دا وهم؟! يكون عقلي اتلحس؟! مش معقوله عقلي يتلحس أقوم اشوف الرَّسول فِ المنام؟! هُوَّ في إيه؟!".

"طيِّب ومن امتى كان الرَّسول بيجيلك فِ المنام يا كروديا؟! شكل الحكايه وهم جاب وهم.. عايز تبقى نبي مرَّه واحده يا نصَّاب!؟"

قال الشَّيخ للقسِّيس:

- الخلود اللي وعدنا ربنا بيه دا حاجه تانيه خالص.. أكل وشرب ومرعى وقلة صنعه زَي ما بيقولوا.. ولا هَمْ ولا هْمِيمِه.. كل واحد ليه جنِّته بتاعته اللي يجري فيها الحصان.. حصان؟! اللي يشِوْ فيها

الصَّاروخ أيام وسـنين مايجيبش آخرهـا.. ولا الحور العين يا ابونا! مملكه.

قال القسِّيس:

– مـا فيش أحلى مـن ملكوت الرَّب.. وتقعد كـدا تبص ف نور وجهه.

نط الخبث في كلام الشَّيخ:

– أحلى حاجه ف جنِّتنا ان فيها الاتنين.. نهيِّصوا طول الأسبوع.. ويوم الجمعه نروح نتمتع بوجه الكريم.

استدرك:

– طيب خلود الإنسـان اللي بيبعهولنا الشِّـيطان ده فيه حاجه عن البص فِ وجه الكريم؟

في آخر السيَّارة قال "ياسر" لـ "زياد":

– طب ما تيجي نِدَّلُّو.. ايه اللي يخلِّينا قاعدين فِ عربيِّه حاتعمل حادثة؟!

– وها تروح فين من قضا ربنا؟! لو مكتوبلك عيشـه هاتعيش لو العربيَّـه دي اتدشدشـت ألف حتَّه.. ولو مكتوبلـك موته هاتنزل من هنا وتخبطك عربيَّه تانيه من هنا..

ثم همس "زياد" بصوت حائر:

- ويمكن يطلع كل الكلام دا وهم.

- وهم!

- ممكــن يعنــي.. بس المشــكله اللي مش فاهمها انــا.. هُوَّ عايز يموِّتنا ليه.. يعني يا نؤمن بكلامه اللي مِش صحيح يا يقتلنا؟!

"كلامـه مُـش صحيــح ازَّاي!؟ دا أبهرك يا بنــي.. مافيش كلام غلط ممكن يُبهر على فكره".

قال "ياسر":

- فِ كل الأحوال نتشهد على روحنا.. اتشهد اتشهد..

ثم بَرَّق في وجه "زياد" وقال:

- واللا انت نصراني؟

سيَّارة "ميكروبــاص" تنهــب الأرض، ســريعة جــدًّا، لكــن "أبو أميـرة" كان أسـرع، فـأراد أن يتخطَّاهــا، فضــرب بطــن المقود على دفعــات، فانطلق صوت آلة التنبيه مرحًا قويًّا، ثـم ضغط على دوَّاســة البنزين فاتحًا السُّرعة إلى أقصى مداها، وكان السَّائق الآخر قد أطلق كلاكسًا راقصًا، ورأى "المِجَري" ما أذهل عقله.

كان "الميكروبــاص" الــذي يتجاوزونــه على يمينــه، وفيه رجل

يجلس "هناك" فى نفس موقعه "هنا"، شبهه تمامًا، ينظر إليه باندهاش.

كان الأمر أضخم من جبل، أوسع من سماء، أعمق من مُحيط، أكبر كثيرًا من أن يتحمَّله عقله، فتصرَّف بِعَتَه، حيث ابتسم في وجه شبيهه، ولوَّح له ببلاهة.

وعندما انتهى التَّخطِّي، وصارت السيَّارة بالخلف، سأل نفسه:

- أنا مسافر رايح فين؟! أنا أساسًا راكب عربيَّات ليه؟!

"إيه اللخبطه دي؟! هُوَّ انا ف حلم واللا ف علم؟! هُوَّ ما له لمَّا الإنسان يموت؟! وماله لو خَلِّل فِ الأرض وما ماتش أبدًا؟!".

طوَّح رأسه إلى شماله، ونظر إلى العمامة الخضراء المنكفئة على الرُّسغين اللذين تشبثت يداهما بمسند الكرسي بكل قوَّة.

"معقوله يكون عايز يموِّتنا بجد؟!".

جُن "المِجَري"، يصرخ داخل صدره:

"هُوَّ كل اللي بيجرى دا حقيقه واللا وهم؟!".

ولأن السيَّارة انفلتت سرعتها، وصارت تقطع الأرض كالبرق الخاطف، قفز الأفق البعيد ليصير قريبًا جدًّا، وبدت شجرة ضخمة

جدًّا تقترب، طولها يفوق العشــرين متــرًا، جذعها لا يحاط به، لكن ليست ضخامة الجذع هي ما لفتت نظر "أبو أميرة"، لتجعله يركِّز فيه هكذا، صارفًــا اهتمامه عن الطَّريق، وإنَّما هــذه الحيَّة الضَّخمة التي تدور حول نفسها فوق الجذع، تدور بسرعة مبهرة، تصنع دوَّامة من ألوان تسحر النَّظر، فتسحب العقل.

الدُّنيا ليست مفهومة، والأمور فيها تجري على غير نسق محدَّد، ليست كالشَّــمس التي تُشــرق وتَغرب بمقادير، ومسارات، غاية في الدِّقة، والأفضل ألَّا يفهم الإنســان الدُّنيا تمامًا، وإلا فقدت زهوتها، المُتعــة تبقــى دائمًــا فــي محاولة الفهــم، لكــن الفهم نفســه عذاب، ورغــم أن الخطــوط المتعرِّجة أطول، وأكثر إنهــاكًا، لكنَّنا نأمل، مع كل منحنى من منحنياتها، في مفاجأة تثير نشــاطنا، بعكس الخطوط المستقيمة، قصيرة، واضحة، ومملَّة.

لكــن لا بد لـــ "المِجَري" أن يفهم، لا يمكن أن يســتغفله نصَّاب مثله.

"دا حقيقه والَّا خيال؟!".

ففتح فمه ليقضم رقبة "صُنع الله".

في هذه اللحظة..

"لمــاذا انخطفــت عجلة القيادة مــن يد "أبو أميــرة" إلى اليمين

بكل هذه القوَّة؟!".

كان صوت سـائق السـيَّارة المُتخطَّاة يشبه العواء، يمتزج بحرارة الجو، وبصوت نهيق حمار كسلان في الحقول، ونباح كلب يجاوبه، وهريـر طائـر ضخـم يجوب السَّـماء، متوَّج بعشـر ريشـات خضر، تتماوج في مبتدأ رقبته لحية من شعر مسترسل، يطيِّرها الرِّيح.

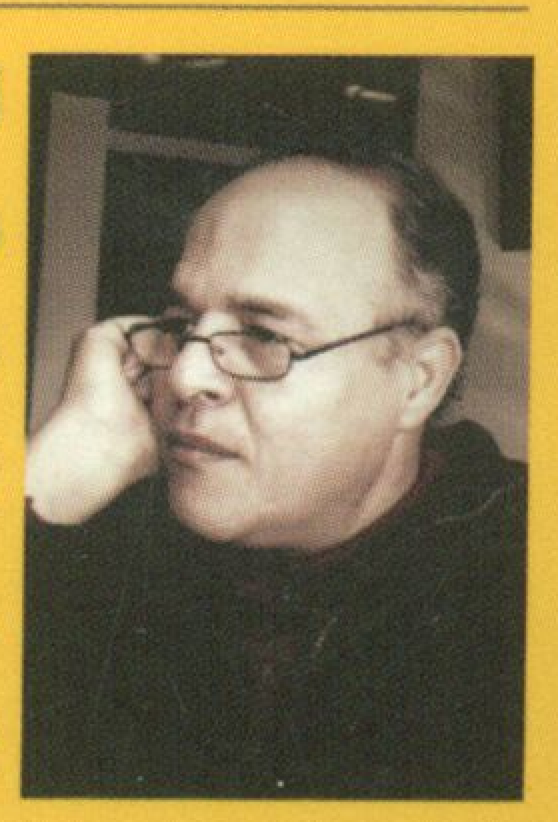
- "يا ستَّار استر".

أبريل 2014

كان "الميكروباص" الذي يتجاوزونه على يمينه، وفيه رجل يجلس "هناك" في نفس موقعه "هنا"، شبهه تمامًا، ينظر إليه باندهاش.

كان الأمر أضخم من جبل، أوسع من سماء، أعمق من مُحيط، أكبر كثيرًا من أن يتحمَّله عقله، فتصرَّف بِعَتَه؛ حيث ابتسم في وجه شبيهه، ولوَّح له ببلاهة.

هذه رواية تراوغ قراءها؛ إذ تستدرجهم إلى عالم يعج بالمتناقضات والانحرافات الحادة، عبر رحلة في سيارة "ميكروباص". هي تجسيد للدنيا بغرورها وتنوعها، وتشخيص للحياة بأفراحها وأتراحها؛ ليصل راكبوها إلى نهاية الرحلة؛ حيث الموت المتسرب إلى شرايين الحياة، أو الحياة التي تسير مذهولة في ركاب الموت، وتقف حائرة أمام فتنة اقتناص الخلود!



أشرف الخمايسي روائي مصري وعضو باتحاد كتَّاب مصر، فاز بالجائزة الأولى في مسابقة "أخبار الأدب" للقصة القصيرة 1994، اختيرت روايته "منافي الرب" للقائمة الطويلة للبوكر 2014، كما وصلت الرواية نفسها للقائمة الطويلة لمسابقة معهد " أكيودي الصينية" 2014. صدر له ثلاث مجموعات قصصية، وهذه روايته الثالثة.







الدار المصرية اللبنانية